إحفظ الله يحفظك

عائض بن عبد الله القرني

دار ابن حزم

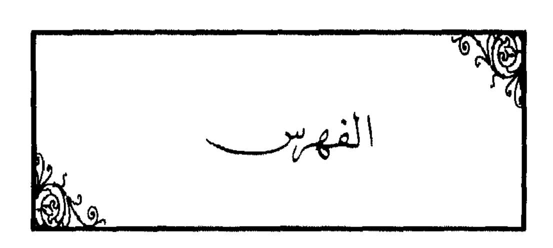


الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

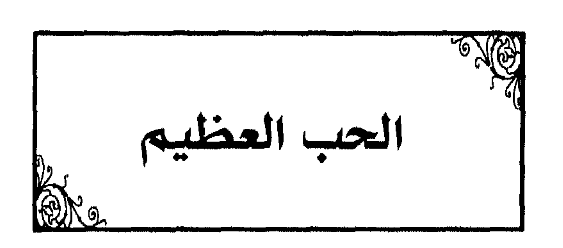
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤



الفهرس

الموضوع	الصفحة





الحب العظيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

كيف تحصل على محبة الله؟

كيف تنال رضوان الله تبارك وتعالى؟

كيف تكون عبداً لله عز وجل؟ إن أعظم مطلب في الإسلام أن تكون حبيباً لله تعالى، وأن تكون قريباً من الله عز وجل، وأن تكون من أحبابه ومن أوليائه، ولذلك جعل الرسول ﷺ الأولياء قسمين: المقتصد، والسابق بالخيرات.

ففي الحديث الذي عند البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تبارك وتعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليّ عبدي بأحب مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢).

هذا هو حديث الولاية، وقد شرحه الأئمة في كتبهم، وهو من أعظم الأحاديث في الإسلام، وللإمام الشوكاني شرح عجيب عليه في كتاب (قطر الولي في شرح حديث الولي).

وقد قسم الله في الحديث المؤمنين قسمين: مقتصد، وسابق بالخيرات.

فالمقتصد هو الذي يؤدي الفرائض.

والسابق بالخيرات هو الذي يتقرب بالنوافل إلى الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فَاطِر: ٣٢].

قال ابن تيمية ما معناه: كل هؤلاء الأصناف في الجنة.

وهذه بشرى لنا لأننا نعد أنفسنا من الظالمين لأنفسهم.

قال مسروق لعائشة رضي الله عنها وأرضاها: يا أماه من هم السابقون بالخيرات؟

قالت: السابقون بالخيرات من مضى مع الرسول ﷺ، والمقتصدون من لحقوهم أو من تبعوهم بإحسان ـ أو كما قالت ـ، والظالم لنفسه أنا وأنت.

هذا تواضع منها رضي الله عنها وأرضاها.

● عوامل محبة الله:

أما عوامل محبة الله تعالى فهي تحصل بأمور:

من أعظمها نفعاً وأجلها فائدة وقربى وزلفى من الله عز وجل القرآن الكريم، لأنه الكتاب العظيم الذي وصّى به ﷺ.

فلا نجاح للأمة ولا فلاح إلا بتلاوته وتدبُّره، ويوم ترى الأمة تعرض عن القرآن وتأخذ عوضاً عنه، يرميها سبحانه وتعالى بالجدل.

وعند الترمذي وأحمد عن أبي أمامة مرفوعاً: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»(١).

تعيش الأمة سخيفة القيم وسخيفة المبادىء والتعاليم يوم تعرض عن القرآن والسنة، فتكون مجالسها عقيمة لا فائدة فيها ولا نفع ولا عائد خير يعود عليها في الدنيا أو الآخرة.

والأمة التي تتلقى ثقافتها من غير القرآن أمة لا عقل لها ولا تدبير ولا مجد، ولذلك من استقرأ حياة السلف الصالح في القرون المفضلة وجدهم قد عكفوا على الكتاب والسنة، فكانوا أجدر العصور وأخلص العصور وأصدق العصور وأمجد العصور، عبادة وزهداً وإقبالاً على الله سبحانه وتعالى.

ولما أعرضنا نحن ـ إلا من رحم الله ـ عن القرآن ماتت قلوبنا، وفقدنا ذاك النور وذاك الإشعاع وذاك الإقبال على الله عز وجل.

قال تعالى للرسول ﷺ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩٢] فمهمته ﷺ أن يتلو القرآن على الناس، ولذلك منع في أول حياته ﷺ من كتابة الحديث لئلا يتشاغل الناس بالحديث عن القرآن.

في صحيح مسلم عن هشام بن سعد بن عامر رضي الله عنه وعن أبيه وعن جده، فأبوه وجده من الأنصار الذين شهدوا بدراً وأحداً:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١٦٦٠)، والترمذي برقم (٣٢٥٣)، وابن ماجه برقم (٤٨)، انظر: المشكاة برقم (١٨٠)، وأخرجه الحاكم برقم (٣٧٢١).

إذا افتخر المسلم فليفتخر ببلائه في الإسلام وبقدمه وبخدمته لهذا الدين، وبرفع لا إله إلا الله.

أما الذي يفتخر بنسبه وأسرته، وعراقته ومنصبه، وجاهه ووظيفته، فهذا كافتخار فرعون وأشباه فرعون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال سعد بن هشام بن عامر: سألت عائشة رضي الله عنها وأرضاها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»[1].

وهي أبلغ كلمة بعد كلام الله عز وجل في وصف الرسول ﷺ.

كان كأنه القرآن يمشي على الأرض.

إذا قرأت القرآن فكأنما تقرأ حياة المصطفى ﷺ.

يقول الله له في القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

ويقول له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ويقول له: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ويقول له: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

والرسول ﷺ علّم الصحابة كيف يعيشون مع القرآن بالأحاديث التي لا يقرؤها المسلم إلا ويرنو قلبه إلى المصحف.

في صحيح مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه وأرضاه قال:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٤٦)، وأحمد برقم (٢٤٠٨٠)، وأبو داود برقم (١٣٤٢).

يقول ﷺ: «**اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**»[١]، وإذا شفع لك القرآن فنعمى لك وقرة عين لك، ويا سعادة قلبك.

وعن عثمان رضي الله عنه وأرضاه كما في البخاري، يقول ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[٢]، أي والله! خيرنا وأمجدنا وأشرفنا من عاش مع القرآن.

هذه أوسمة أنزلها الله في الأرض، ليست أوسمة أهل التراب ولا أهل المادة الذين يشرفون الإنسان بقدر جاهه أو منصبه أو ولده.

لا.. بل «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام ينزل الناس على قدر قربهم من القرآن، وكان يكرمهم على قدر حفظهم لكتاب الله عز وجل، وعلى قدر تلاوتهم لكتاب الله.

يقول أنس: أرسل الرسول ﷺ سرية تغزو في سبيل الله.

فسألهم: «**أيكم يحفظ القرآن**»؟ فسكتوا.

قال: «**أيحفظ أحدكم شيئاً من القرآن**»؟

قال رجل منهم: أنا يا رسول الله.

قال: «**ماذا تحفظ**»؟

قال: أنا أحفظ سورة البقرة.

قال: «**اذهب فأنت أميرهم**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨٠٤)، وأحمد برقم (٢١٦٤٢، ٢١٦٥٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٠٢٧)، وأبو داود برقم (١٤٥٢).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٨٧٦)، وابن خزيمة برقم (٢٥٢٤)، وابن حبان برقم (٢٠٠٧، ٢٥٥٣)، النسائي في الكبرى برقم (٨٦٥٦)، والحاكم برقم (١٦٥٧)، وانظر: ضعيف الترمذي برقم (٥٤١).

هـذه مـؤهـلات الإسـلام، وأهـل لا إلـه إلا الله، وأهـل الإقـبـال إلى الله.

ما دام إنك تحفظ سورة البقرة وهي في صدرك وأنت تعيش معها وتعمل بمقتضاها فأنت أمير الجيش.

ويقول جابر رضي الله عنه وأرضاه: كان ﷺ يسأل عن القتلى يوم أُحُد، فأيهم كان أكثر أخذاً للقرآن قدّمه في اللحد[١].

لقد كان القرآن سميرهم رضي الله عنهم، حتى أنك إذا دخلت بيت أحد المهاجرين أو الأنصار لوجدت القرآن معلقاً في البيت ووجدت السيف بجانبه.

سيف يفتح البلاد، وقرآن يفتح القلوب.

ولذلك في حديث أبي موسى أن الرسول ﷺ سمع قراءته من الليل.

وكان أبو موسى أعجوبة في الصوت، يجري صوته إلى القلوب فيخاطب الأرواح مباشرة.

فخرج ﷺ ووضع جسمه على شرفة مسجده، ومسجده قريب من بيته ﷺ، وأخذ يستمع لأبي موسى وهو يقرأ.

وفي الصباح قال ﷺ له: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»[٢].

قال: يا رسول الله أإنك كنت تستمع لي؟

قال: «**إي والذي نفسي بيده**».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٣٤٣، ٤٠٨٠)، وأبو داود برقم (٣١٣٨)، الترمذي برقم (١٠٣٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٠٤٨)، مسلم برقم (٧٩٣).

قال: والذي نفسي بيده لو أعلم أنك تستمع لي لحبرته لك تحبيراً[١].

يعني جوّدته وحسنته حتى يكون أكثر تأثيراً وإيصالاً وأكثر عجباً.

والقرآن كله عجب: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: ١].

يقول أحد المفسرين: عجباً، حتى الجن يتذوقون القرآن.

ولذلك قالوا كما في سورة الأحقاف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وكان هذا عندما عاد ﷺ من الطائف فأخذ يقرأ القرآن في وادي نخلة.

فلما استمع الجن القرآن أسلموا وآمنوا، فرجعوا إلى قومهم منذرين رافعين لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**»[٢].

---

(١) قول أبي موسى للنبي ﷺ أخرجه البيهقي في السنن برقم (٤٧٤٩، ٢١٥٢٠)، وابن حبان برقم (٧٠٨٣)، والحاكم برقم (٦٠١٩)، وأبو يعلى في مسنده برقم (٧٢٨٠)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١١٧٠٩).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٩٤٨)، والترمذي برقم (٢٩١٣)، والدارمي برقم (٣٣٠٦)، والحاكم برقم (٢٠٧٤)، وانظر المشكاة برقم (٢١٣٥)، وضعيف الترمذي برقم (٥٥٧).

والبيت الخرب الذي تسكنه الغربان والحيات والعقارب.

والقلب الذي لا يسكنه القرآن يسكنه النفاق والوساوس، والخطرات والواردات، والعشق والوله، والأغاني الماجنات والنظرات السيئات.

وكان الرسول ﷺ يبشر أصحابه بمنازلهم وبقربهم من القرآن.

فسيد القراء هو أبيّ بن كعب من الأنصار رضي الله عنه وأرضاه.

يقول له ﷺ - وهذا الحديث في الصحيحين -: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك**: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ [البَيِّنَة: ١]».

الله من فوق سبع سموات يسمي أبيّ باسمه، وهو صحابي من الصحابة.

أي شرف هذا؟

فقال: وسمّاني لك؟

قال الرسول ﷺ: «**إي والذي نفسي بيده**».

فدمعت عينا أبيّ.

وقرأ عليه الصلاة والسلام سورة البينة[١].

وفي صحيح مسلم أن الرسول ﷺ أراد أن يسأل أبيّ ليمتحن قربه من القرآن وكثرة محفوظاته ومعرفته وفطنته، فقال: «**يا أبا المنذر أي آية في كتاب الله أعظم؟**».

قال: الله ورسوله أعلم.

قال: «**أي آية في كتاب الله أعظم؟**».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٨٠٩، ٤٩٥٩، ٤٩٦٠)، ومسلم برقم (٧٩٩).

قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

فأخذ الرسول ﷺ كفه وضرب في صدر أبيّ وقال: «**ليهنك العلم أبا المنذر**»[1].

هذا هو العلم الذي يتسابق عليه، وهذا هو العلم النافع.

فكان سيد القراء رضي الله عنه وأرضاه، حتى أن رسول الله ﷺ كان إذا نسي آية في الصلاة فذكره أحد الصحابة بها يسأل أبيّ بعد الصلاة عنها ليتأكد، لمكانته من القرآن.

أما الرسول ﷺ فهو شأن عظيم في التأثر بالقرآن والاهتمام به.

عند ابن أبي حاتم في تفسيره في سورة الغاشية أن الرسول ﷺ مر بامرأة تقرأ في جنح الليل: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغَاشِيَة: ١].

فوضع رأسه ﷺ على جانب الباب وهي تردد الآية ولا تدري أنه يستمع لقراءتها وتقول: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغَاشِيَة: ١] وتبكي.

وأخذ الرسول ﷺ يبكي ويقول: «**نعم أتاني، نعم أتاني**».

فكان الصحابة يقتبسون تأثرهم بالقرآن منه ﷺ عندما يرونه يعيش آياته وكأنه يراها.

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية في ترجمة عمر أنه مرض من أجل آية حتى عاده الصحابة منها.

وفي بعض الروايات أن هذه الآية هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ۝٢٦﴾ [الصَّافات: ٢٤-٢٦].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨١٠)، وأبو داود برقم (١٤٦٠).

إذاً.. لا يمكن أن يحب العبد الله حتى يحب القرآن.

ولذلك قال ابن مسعود: لا يسأل أحدكم عن حبه لله، ولكن ليسأل نفسه عن حبه للقرآن، فإنك كلما أحببت القرآن كلما أحببت الله، وبقدر حبك للقرآن بقدر محبتك لله تبارك وتعالى.

وفي الصحيح أن أسيد بن حضير رضي الله عنه قام يقرأ سورة البقرة، فأخذت فرسه تجول في رباطها وأخيلتها، فقطع صلاته لأن الفرس كادت أن تطأ ابنه بحوافرها.

فنظر فإذا هو بظلة متدلية على رأسه.

فأخبر الرسول ﷺ.

فقال ﷺ: «**أو قد رأيتها**»؟

قال: نعم.

قال: «**والذي نفسي بيده إن الملائكة نزلت لسماع قراءتك، ولو قرأت حتى أصبحت لأصبح الناس يرونها لا تتوارى عنهم**». هذا حديث صحيح بنحو هذا اللفظ، أو يشبه هذا اللفظ[١].

لقد كان ليلهم مع القرآن.

أما نحن فلما ذهبت ليالينا في غير القرآن: في السهر الذي لا ينفع، وفي القيل والقال والجدل المقيت الذي لا ينفع ولا يقربنا من الله، ولا ينفعنا لا في الدنيا ولا في الآخرة، فخسرنا قربنا من الله وابتعدنا كثيراً عن مقامات أولئك القوم الأخيار.

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب فضائل القرآن (باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن)، ومسلم برقم (٧٩٦)، وأحمد برقم (١١٣٥٧)، وأخرجه البخاري مسنداً عن البراء برقم (٣٦١٤، ٤٨٣٩، ٥٠١١)، ومسلم برقم (٧٩٥) وفيه أن المقروء هو سوره الكهف.

فضاع ليلنا بين الملهيات والمعاصي، وضاع ليلهم بين القرآن والتهجد.

قلت لليل هل بجوفك سر عامر بالحديث والأسرار
قال لم ألق في حياتي حديثاً كحديث الأحباب في الأسحار

فالليل الذي عاشه الصحابة مع القرآن قليل من يعيشه منّا مع القرآن.

قال ابن عباس: بتّ عند خالتي ميمونة، فأتى عليه الصلاة والسلام فدخل البيت بعد صلاة العشاء وقد نمت في عرض الوسادة.

فقال ﷺ: «**نام الغليم؟**».

وهو قد تناوم وما نام.

قالت: نام.

فأتى الرسول إلى الفراش فذكر الله ودعا الله ثم نام.

قال: حتى سمعت غطيطه (أو خطيطه[1])، وهو صوت يحدث النائم إذا استغرق في النوم.

ثم استيقظ ﷺ، فأخذ يفرك النوم من عينيه ويقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيتان ١٩٠، ١٩١]، حتى أكمل العشر الآيات[2].

ثم قام ﷺ فخرج خارج البيت، فلحقه ابن عباس بماء وإناء ووضعه عند الباب.

---

(١) من عادة البخاري أنه يقطع الحديث، وهذا الحديث كذلك فإلى هنا أخرجه برقم (١١٧)، ومسلم برقم (٧٦٣).

(٢) هو عنده برقم (٩٩٢، ١١٩٨، ٤٥٦٩، ٤٥٧٠، ٤٥٧٢)، وعند مسلم برقم (٧٦٣)

ولما عاد عليه الصلاة والسلام ورأى الماء قال: «**من وضع لي هذا الماء؟**»، يسأل نفسه.

وابن عباس يحفظ الكلمات التي قيلت في تلك الليلة.

ثم قال ﷺ: «**اللّهم فقهْه في الدين وعلمه التأويل**»[١].

فكانت هذه بداية حياة ابن عباس العلمية.

فاستقبل ﷺ القبلة وقال: «**اللهم لك الحمد، أنت قيِّم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق.**

اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وإليك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت»[٢].

ثم قام يصلي ﷺ، وأتى ابن عباس يصلي معه ﷺ في ليلة طويلة[٣].

لقد كان ﷺ يقوم بالقرآن حتى لا يستطيع الذي معه إلا أن يمسك نفسه إلى أن ينتهي ﷺ.

يقول ابن مسعود: قام ﷺ في ليلة من الليالي فقمت معه، وقرأ حتى هممت بأمر سوء.

قيل: ما هممت به؟

---

(١) وهذا عنده برقم (١٤٣)، وعند مسلم برقم (١٤٧٧).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢)، ومسلم برقم (٧٦٩).

(٣) أورده البخاري برقم (١٨٣، ٦٩٧، ٨٩٥)، ومسلم برقم (٧٦٣).

قال: هممت بأن أجلس وأن أدعه[١]!

وقال حذيفة: صليت مع الرسول ﷺ، فافتتح بسورة البقرة فقلت يركع عند المائة، فقرأ وافتتح النساء (على ترتيب مصحف ابن مسعود) فقرأها، فقلت: يركع عند انتهائها، فافتتح سورة آل عمران، فقرأها، يسبح الله عند كل تسبيحة، ويسأل الله من فضله عند كل آية رحمة، ويستعيذ بالله عز وجل عند كل آية عذاب[٢].

هذه صلاته عليه الصلاة والسلام.

إذاً.. السبب الأول من العوامل التي تقرب العبد منَ الله سبحانه وتعالى هو تلاوة القرآن، والعيش في ظلال القرآن، وتدبر القرآن، وتكرار القرآن، والعمل بالقرآن.

السبب الثاني: التجرد عن الدنيا والزهد فيها، وهذا دل عليه حديث ابن ماجه عن سهل بن سعد قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس؟

قال ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**»[٣].

فمن أجلِّ ما يقرِّب العبد من الله عز وجل أن يُخرج حب الدنيا من قلبه.

فإذا أخرج حب الدنيا من قلبه وأسكن حب الله في قلبه أحبه الله.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٣٥)، ومسلم برقم (٧٧٣).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٧٢)، وأحمد برقم (٢٢٧٥٠، ٢٢٨٥٨، ٢٢٨٩٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (١٤٠٢)، والحاكم برقم (٧٩٤٥)، والشهاب في مسنده برقم (٦٤٣)، وانظر: المشكاة برقم (٥١٨٧)، ومصباح الزجاجة برقم (١٤٥٩).

وحب الله لا يُنال إلا أن تكون عبداً لله، والعبودية معناها الخضوع والذل والاستسلام له سبحانه وتعالى.

ولذلك قال الله لرسوله ﷺ في موقف التشريف بالإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

وقال له في الإنذار: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩]، وقال له في الإنزال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

وميزة السلف الصالح علينا في هذا الجانب أنهم تجردوا من الدنيا، فكانت الدنيا في أيديهم ولم تكن في قلوبهم، ولذلك أحبهم الله سبحانه وتعالى.

وكان ﷺ يحذرهم ويحذرنا نحن كذلك من محبة الدنيا وعبادة الدنيا، لأن من الناس من يعبد الدرهم والدينار، ومن يعبد الخميصة والخميلة، ومن يعبد الوظيفة والمنصب.

قال ﷺ: **«تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»**[١].

لماذا؟

لأنه عبد هواه، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد مرّت معنا كثيراً قصة محمد بن واسع الزاهد عندما كان في جيش قتيبة بن مسلم يرفعون لا إله إلا الله في شرق البلاد الإسلامية.

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٨٧).

فأراد قتيبة اختباره أمام القواد والوزراء، فقال لهم وبيده كنز من الذهب الذي غنمه من الأعداء كرأس الثور، قال لهم: أترون أحداً يرد هذا لو عرضته عليه؟

قالوا: لا نظن أحداً يزهد في هذا.

فقال: سأريكم رجلاً من أمة محمد ﷺ الذهب عنده كالتراب، .ادعوا لي محمد بن واسع.

فذهب إليه الجنود ليحضروه للقائد، فوجدوه يسبح الله ويستغفره ويحمده على نصر المسلمين.

فلما دخل على قتيبة أعطاه الذهب.

فأخذه منه.

فبهت قتيبة! وكان يظن أنه سيرده.

فتغير وجه قتيبة أمام القواد والوزراء.

فخرج به محمد بن واسع، فطلب قتيبة من بعض الجنود أن يراقبوه أين يذهب به؟ وقال: اللهم لا تخيب ظني فيه.

فذهب به ابن واسع فمرّ به فقير يسأل في الجيش فأعطاه إياه بأكمله.

فلما أخبروا قتيبة قال لمن حوله: ألم أقل لكم إن هناك رجلاً من أمة محمد ﷺ الذهب عنده كالتراب؟!

فهذا هو الزهد.

وأنا قد كررت هذه القصة كثيراً لأنها مؤثرة.

ونحن بحاجة إلى التكرار في الخطب والمواعظ والدروس والتربية والتوجيه دائماً لرد الناس إلى الله.

لأنه وجد في الناس من أصبح عبداً للدنيا، حتى أنه لا يستطيع حضور مجالس العلم ولا الدعوة، ولا أن يتفرغ للذكر وتلاوة القرآن بسبب الدنيا.

فنحن بحاجة إلى تكرار هذه الدروس لعل القلوب أن تفيق وتصحو من سباتها وغفلتها.

يقول ابن عمر رضي الله عنهما في البخاري: أخذ الرسول ﷺ بمنكبي وقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[1]. فكان ابن عمر من أكبر زهاد الصحابة في الدنيا، حتى أنه تخلى عن الخلافة وهو أهل لها لو طلبها، لأن القلوب مجمعة عليه، لكنه تركها لأنه قد عمل بنصيحة الرسول ﷺ، فأصبح غريباً في الدنيا وعابر سبيل، عما قليل يرحل ويتركها وزخرفها.

والتجرد معناه أن تأخذ ما ينفعك من الدنيا وألاّ تشغلك وتكون عوناً لك على طاعة الله.

وبعض الناس يعرّف الزهد بأنه التخلي عن الدنيا.

وهذا ليس صحيحاً.

وبعضهم يقول: أن تزهد في الحرام، وهو تعريف نسب للإمام أحمد.

ولكن كل الناس زهاد إذا كان الزهد على هذا المستوى.

يقول ابن تيمية في تعريف الزهد: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة.

وأما ما ينفع فإن الزهد فيه ليس بزهد.

السبب الثالث لمحبة الله عز وجل هو: قيام الليل.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٦)، وأحمد برقم (٤٧٥٠، ٤٩٨٢).

ونشكو حالنا إلى الله في قيام الليل.

وصف الله عباده فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: الآيتان ١٧، ١٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السَّجدَة: ١٦].

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمني أهل الكتاب: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ١١٣]، فمدحهم بالتلاوة أثناء الليل.

والرسول ﷺ كان يحث الناس على قيام الليل.

وقيام الليل يحصل ولو بركعتين قبل الفجر، ما يقارب نصف ساعة أو ثلث ساعة، لتكون من الذاكرين الله في تلك الساعة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داع فأجيبه؟**»[1]، نزولاً يليق بجلاله، لا نكيفه ولا نمثله ولا نشبهه ولا نعطله.

وهذه الساعة تفوت كثيراً من الناس، ومن فاتته فهو محروم أو مخذول إلا من مرض أو سهر في خير لا بد منه أو سفر.

ويقول الرسول ﷺ: «**يا عبد الله** ـ يقصد ابن عمرو ـ **لا تكن كفلان كان يقوم الليل ثم ترك قيام الليل**»[2]. وهذا الحديث في الصحيح.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٤٥، ٦٣٢١)، ومسلم برقم (٧٥٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١١٥٢)، ومسلم برقم (١١٥٩).

ويقول ابن عمر: كان الصحابة إذا رأى أحدهم رؤيا قصها على رسول الله ﷺ، فتمنيت لو رأيت رؤيا فأقصها على الرسول ﷺ.

قال: وكنت شاباً أعزب أنام في المسجد لا أهل لي.

فنمت في المسجد فرأيت فيما يرى النائم أن رجلين قد أخذا بيدي وذهبا بي إلى بئر مطوية، فأشرفت عليها فخفت، فقالا لي: لا ترعْ.

فأخذت قطعة من إستبرق أو من الحرير لا أشير بها إلى مكان في الروضة الخضراء إلا طارت بي.

فلما أصبحت أخبرت أختي حفصة زوجة رسول الله ﷺ، فقصتها على الرسول ﷺ.

فقال: «**نِعْمَ العبد عبدالله لو كان يقوم من الليل**»[1].

قال نافع مولاه: فكان ابن عمر لا ينام في الليل إلا قليلاً.

وكان إذا سافر يصلي ثم يقول: يا نافع هل طلع الفجر؟ فإن قال: لا.. استمر في الصلاة، وإن قال: طلع، أوتر بركعة ثم استقبل صلاة الفجر.

والأمور التي تعين على قيام الليل ذكرها أهل العلم، منها:

١ - قلة المعاصي في النهار.

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد! لا أستطيع قيام الليل.

قال: قيدتك خطيئتك ورب الكعبة.

٢ - ومنها الورد الذي علّمه الرسول ﷺ علي بن أبي طالب وفاطمة،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٢٢، ١١٥٨، ٣٧٣٩، ٧٠٢٩)، ومسلم برقم (٢٤٧٩).

وهو التسبيح ثلاثاً وثلاثين، والتحميد ثلاثاً وثلاثين، والتكبير أربعاً وثلاثين[1].

٣ ـ ومن الأسباب كذلك ألا يسهر العبد، لأن سهر الناس الآن في غير مرضاة الله إلا من رحم ربك.

وكيف يقوم الليل من يسهر إلى الثانية عشرة والواحدة؟

وهذا الوقت هو وقت القيام عند السلف الصالح.

٤ ـ ومن الأسباب التي تعين على قيام الليل القيلولة في النهار لتستعين بها على القيام وعلى مرضاة الله سبحانه وتعالى.

فقيام الليل سنة من سنن المصطفى عليه الصلاة والسلام، وشعيرة إسلامية لما فاتتنا فاتتنا حرارة الإيمان، وفاتتنا محاسبة النفس، وفاتنا الإقبال على الله عز وجل.

السبب الرابع من أسباب محبته تعالى: التفكر في آياته سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

كلما نظرت إلى شيء دلَّك على الله.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

في كل لمحة، وفي كل نظرة، وفي كل شجرة، وفي كل زهرة، وفي كل جبل، آية من آيات الله.

---

(١) كما ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري برقم (٣١١٣، ٣٧٠٥، ٥٣٦١)، ومسلم برقم (٢٧٢٧).

فكم من آية نمرُّ عليها ولا نعتبر إلا من وفقه الله للتفكر: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

التفكير هو أكثر ما يقودك إلى عبادة الله، وهذه عبادة الصالحين الذين يتفكرون في الآيات البينات، ويتفكرون في المخلوقات، ويتفكرون في عجيب خلق رب السموات فيعودون بإيمان ويقين.

وحبذا لو جعلنا رحلاتنا ونزهنا للتفكر في آيات الله، فلا يمر الإنسان بالشجرة إلا وكأنها تكلمه وتقول له: لا إله إلا الله.

فهذا عامل كبير يعين على محبة المولى الذي خلق لنا الأشياء والآيات لنعتبر بها فنزداد قرباً منه.

قل للطبيب تخطفته يد الردى ... من يا طبيب بطبِّه أرداك
قل للمريض نجا وعوفي بعدما ... عجزت فنون الطب من عافاك
والنحل قل للنحل يا طير البوادي ... من الذي بالشهد قد حلاك
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه ... فاسأله من ذا بالسموم حشاك
واسأله كيف تعيش يا ثعبان ... أو تحيا وهذا السم يملأ فاك
فالحمد لله العظيم لذاته ... حمداً وليس لواحدٍ إلاك

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



صفات المفلحين

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البَقَرَة: ١-٥].

هذه بداية سورة البقرة التي نقل القرطبي وغيره أن فيها ألف أمر.. وفيها ألف نهي.. وفيها ألف خبر.

سورة البقرة: لا تقرأ في بيت إلا ذهب منه الشيطان وطرد ودحر.

وصح عنه ﷺ من حديث أبي أمامة عند مسلم وغيره: «**اقرؤوا الزهراوين، سورة البقرة وآل عمران، فإنهما تأتيان كغمامتين أو غيايتين**

أو كفرقان من طير صوافّ تظلان صاحبهما يوم القيامة»[١].

كان الرجل من الصحابة ـ كما قال أنس ـ إذا حفظ سورة البقرة أصبح سيداً عظيماً مقدماً إماماً.

والرسول ﷺ يستعرض أصحابه في سرية ويريد أن يؤمر عليهم أميراً فيسألهم: «**أيكم أكثر أخذاً من القرآن**»؟

فقال له رجل: أنا أحفظ سورة البقرة.

فقال ﷺ: «**أتحفظ سورة البقرة**»؟ قال: أي والله يا رسول الله.

قال: «**اذهب فأنت أميرهم**»[٢].

وفي الترمذي بسند حسن عنه ﷺ أنه قال: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان**»[٣].

ووجد بعض الصالحين أذىً من الجن في بيته، فأوصاه العلماء بتلاوة سورة البقرة، فلما قرأها ذهبوا بإذنه سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: : ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البَقَرَة: ١].

ما هذه الحروف التي تبدأ بها سورة البقرة؟

إنها الإعجاز الذي تحدى به الله فصحاء العرب وشعراءهم.

فسبحان من أعجز بكتابه.. وأسكت به الخطباء، وأصمت به الشعراء.

ولكل أمة معجزة؛ فيرسل الله رسوله ليتحدى تلك المعجزة،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨٠٤)، وأحمد برقم (٢١٦٤٢، ٢١٦٥٣، ٢١٦٨٩).
(٢) سبق تخريجه ص: ٢٧.
(٣) أخرجه مسلم برقم (٧٨٠)، وأحمد برقم (٨٢٣٨)، والترمذي برقم (٢٨٧٧)، واللفظ للترمذي.

فموسى نزل إلى أمة برعت في السحر. أعطاه الله العصى فتلقفت ما صنعوا.

وعيسى عليه السلام بعث في أمة بلغت الذروة في الطب وتكنولوجيا الطب.. فأعطاه الله إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله.

ولذلك يقول شوقي للرسول ﷺ في نهج البردة:

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له
وأنت أحييت أجيالاً من الرمم

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

● الكفار يستمعون للرسول ﷺ وهو يقرأ، فيعلمون بلاغة هذا القرآن وإعجازه.. فخافوا أن يؤثر في سامعه.

فأتى الطفيل بن عمرو فقال: ما زال بي كفار مكة حتى وضعت القطن في أذني!

فلما اقتربت من الرسول ﷺ وهو يقرأ حول الكعبة.. وافتتح قراءته قلت لنفسي: يا عجباً، أنا رجل شاعر.. ورجل أديب، فلماذا لا أسمع كلامه.. فإن أعجبني فبها ونعمتْ.. وإلا عرفت أنه سحر.

قال: فما زالت نفسي تراودني حتى ألقيت القطن من أذني.. فسمعته يقرأ القرآن، فوقع والله في قلبي.

فذهبت إلى الرسول ﷺ وقلت: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله)[1].

(١) انظر: قصة إسلام الطفيل رضي الله عنه في البداية والنهاية (٩٩/٣ وما بعدها).

● جبير بن مطعم من سادات مكة حلف ألا يستمع لآية من القرآن.

وبتوفيق الله لما أراد أن ينجيه من النار سمع الرسول ﷺ يصلي داخل الحرم وصوته مرتفع في صلاة المغرب ويقرأ: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ [الطُّور: ١-٥]، حتى بلغ آخر السورة.

فقال جبير: كاد قلبي أن يطير، فأسلم من فوره.

● الحارث بن كلدة كان فيلسوفاً ذكياً، ولكنه لم يؤمن، أراد أن يؤلف كتاباً كالقرآن!

ونصحه الناصحون.. ولكنه استمر في غيّه.

فلما ابتدأ.. وقع بصره على سورة المائدة وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ [المَائدة: ١].

فاندهش وقال: إنه نادى وأمر واستثنى ومدح ووصف وختم في آية واحدة.. فوقف مبهوتاً حتى شل نصفه، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فُصِّلَت: ١٦].

● أبو العلاء المعري كان ذكياً ولكن دون إيمان.. أراد أن يعترض القرآن، فلما توفاه الله رؤي في قبره بعد أن دفن وفتح قبره لحاجة.. رؤيت أمام فمه حية.. وقد أمسكت بذنبها على رجليه!

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة: ١]، اختلف أهل العلم فيها والله أعلم بمراده.

قال بعض فرق المبتدعة: ألف: ألف الله محمداً فبعثه نبياً.

لام: لام الله المشركين.

ميم: مقت الله معاديه.

وهذا ليس إلا كلام السفهاء!!

وقال بعضهم: ألف لام ميم لو جمعت لأصبحت كلمات مفيدة، ونسب هذا إلى ابن عباس رضي الله عنه وأرضاه.

والصواب أن الله يقول للعرب: هذه هي الحروف بين أيديكم، فابنوا مثل القرآن وانسجوا على منوال القرآن..

ولذلك يقول الوليد بن المغيرة أحد بلغاء قريش لما سمع القرآن: والله إن أعلاه لمغدق، وإن أسفله لمورق، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة. فهي تدل على إعجاز هذا الكتاب العظيم، فسبحان من أنزله.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البَقَرَة: ٢]، وهذا مدح لكتاب غائب.. ولذلك إذا مدحت قلت: ذلك الرجل وذلك البطل.

ولم يقل: (القرآن)، لأنه هو الكتاب، فكأن غيره ليس بكتاب.

سيبويه لما ألّف كتاباً في النحو سمّاه (الكتاب)، وأنت إذا أردت أن تمدح رجلاً قلت: (الرجل)، والناس كلهم رجال، ولكن تعني ليس أنه ككل الرجال.

والكتاب ورد في القرآن مشتقاً ومصدراً، يقول سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]، يعني فُرِض.

وقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النِّساء: ٢٤].

وقال جلّت قدرته: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المَائدة: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ [الأنبيَاء: ١٠٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفَال: ٦٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النَّمل: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

والكتاب في الأصل هو من مادة: كتب.. وهو تجميع الشيء إلى الشيء.. وسمّيت الكتيبة في المعركة كتيبة لأنها تجمع جنودها.

قال المتنبي لسيف الدولة:

ألا أيها المال الذي أباده

تعزّ فهذا فعله في الكتائب

فالكتاب سمّي كتاباً لأنه جمع الكلمات بعضها إلى بعض.

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: ٢]، لا ريب تدل على أحد ثلاثة معان:

لا ريب: لا شك.

لا ريب: لا تهمة.

ولا ريب: لا حاجة.

ولكنها هنا بمعنى: لا شك، فهذا الكتاب لا يشك فيه إلا ظالم فاجر..

أي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فُصّلَت: ٤٢]. من عمل به أجر.. ومن حكم به عدل.. ومن عمل به كان على صراط مستقيم.

وقوله تعالى: ﴿هُدًى﴾ [البَقَرَة: ٥].. أعظم ما يهتدى به القرآن. الهداية على قسمين: هداية الدلالة وهي للرسول ﷺ ولكل داعية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهداية التوفيق وهي من الله الواحد الأحد: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القَصَص: ٥٦].

: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢].. لماذا لم يقل للمسلمين؟ لأن المسلمين درجات.. فمنهم من يتحمل الكبائر.. فلا تكون له هداية تامة عامة.. ومنهم من يأتي بالمعاصي دائماً وأبداً.. فلا تكون هدايته كاملة شاملة.

فقال: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الفُرقان: ٧٤]. لأنهم أعظم من اهتدى بالقرآن، وهم الذين وازنوا القرآن على أنفسهم، فعملوا بأوامره وانتهوا عن نواهيه، وآمنوا بمحكمه وردوا متشابهه إلى الله الواحد الأحد.

والتقوى قيل أنها: أن تخاف الله على نور من الله ترجو رحمة الله. وأن تعمل الحسنة على نور من الله تريد ثواب الله.. وأن تتقي السيئة على نور من الله تخشى عقاب الله.

وقيل: هي العمل بالمأمور.. وترك المحظور.. وتصديق الخبر.

وقيل: هي العمل بالطاعات وترك السيئات.

وقال علي رضي الله عنه: هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقال ابن مسعود: التقوى أن يذكر سبحانه وتعالى فلا ينسى، وأن يطاع فلا يعصى، وأن يُشكر فلا يكفر.

وقيل: التقوى أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية.

قال عمر لأبي بن كعب: صف لي التقوى.

فقال: أمررت بأرض فيها شوك؟

قال: نعم.

قال: ماذا فعلت؟

قال: تحفزت وشمرت.

قال: فكذلك التقوى!!

وأسباب التقوى كثيرة، منها:

أولاً: مراقبة الواحد الأحد.

ثانياً: القيام بالفرائض والطاعات.

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البَقَرَة: ٣]. الغيب هو كل ما استتر عنك.. فهم يؤمنون ويصدقون بمحمد ﷺ أنه أخبرهم أن هناك جنة وناراً وحساباً وعقاباً وثواباً.. وأن هناك ميزاناً وصراطاً.. وأن هناك نعيماً مقيماً أو عذاباً أليماً.. وأن هناك رباً إلهاً حكيماً، قادراً عليماً، بصيراً سميعاً، مستوياً على عرشه، إنما يقول للشيء كن فيكون، له الملك وله الأمر، كل يوم هو في شأن.. فصدقوه.

فبشرى لكم يوم آمنتم ولم تروا الرسول ﷺ، ويوم أسلمتم وآمنتم بالله ولم تروا ربكم.

وبدأ بالغيب لأنه أعظم قضية.. ولذلك ما ألحد من ألحد إلا يوم أن كفر بالغيب.

فهم يقولون لا إله والحياة مادة! وكل ما أمامك تؤمن به. ما نلمسه نؤمن به.. وما وراء العيون لا نؤمن به.

فالإيمان بالغيب هو أعظم قضية تواجه الإنسان.. فمن لم يؤمن

بالغيب فلا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ولا كلاماً، ولا نظر إليه ولا زكاه، وله عذاب أليم.

قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: ٣]، عزّ وجل إذا ذكر المؤمنين ذكر أنهم يقيمون الصلاة.. وإذا ذكر المنافقين ذكر أنهم يصلون.

لأن الناس صنفان: صنف يقيم الصلاة، وصنف يصلي، فالذي لا يقيم الصلاة لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر.. والذي يقيم الصلاة تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العَنكبوت: ٤٥].

تقول: ما للإنسان يصلي ويتناول المخدرات؟ وما له يصلي ويزني ويسرق؟ الجواب: لأنه صلّى ولكنه ما أقام الصلاة.

وإقامتها قالوا: أن يعتني بخشوعها وخضوعها ووضوئها وإخلاصها وركوعها وسجودها وأذكارها وروحها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣]، أي من بعض ما رزقناهم.. ولو قال: وما رزقناهم ينفقون، لكان هذا تكليفاً على الناس، لأن الإنسان لا يستطيع أن ينفق ماله كله.

والآيات في مدح الإنفاق كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٦٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبَأ: ٣٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفُرقان: ٦٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ﴾ [البَقَرَة: ١٧٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧].

وقد بلغ الكثير من الصحابة في الإنفاق مبلغاً عظيماً.. منهم أبو بكر وعثمان وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عن الجميع.

فأما أبو بكر فأعطى الإسلام كل ماله ودمه وجهده ووقته، فعوضه الله أن جعله أعظم صديقٍ بعد الأنبياء والمرسلين.

وأما عثمان فحفر بئر رومة للمسلمين.. سقاه الله من سلسبيل الجنة، وجهز جيش تبوك فقال له ﷺ: **«ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»**[1].

وأما ابن عوف فقد أنفق سبعمائة جمل في لحظة بأقتابها وأحلاسها وطعامها في سبيل الله خالصة.

لا ينكتون الأرض عند سؤالهم
بتطلب الحاجات بالعيدان
بل يشرقون وجوههم فترى لها
عند السؤال كأحسن الألوان

والناس في الإنفاق أقسام ثلاثة:

قسم يريد به الرياء والسمعة، فليس له حظ ولا نصيب في الآخرة، وهو أول من تسعر به النار.

وقسم ينفقه حياء، فله أجر ومثوبة، وقد يكون عادة.

وقسم ينفقه بقصد ونية وإخلاص، فهو المأجور العابد.

قال الله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البَقَرَة: ٥]،

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٠١٠٧)، والترمذي برقم (٣٧٠١)، وانظر: المشكاة برقم (٦٠٧٣).

و«على» هنا أبلغ من قوله: **في هدى**. وهي تعني أنهم على طريق من هدى واضحة وجادة.. ولو قال في هدى لظنّ أن بعضهم في هدى وبعضهم في ضلال.

ولو قال إلى هدى لما وصلوا إلى الهدى، لأن الذي يمشي إلى الشيء ما كأنه وصله.

ولذلك الذي لا يفعل هذه الأشياء فإن الهدى فيه قليل.

ولذلك لا يحفظك على الهدى إلا هذا العمل والإيمان، فلا تظن أن هناك حافظاً غير الله.. ولا يمكن أن يعصمك من الفواحش غير الله، ولا يعصمك إلا الواحد الأحد.

ولذلك قال تعالى في حق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: ٢٤].

يعني لما كان مهتدياً صرفنا عنه السوء والفحشاء.

فلا يصرف عنك السوء والفحشاء إلا الله.

قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ [البَقَرَة: ٥]، ولم يقل هدى وسكت، لأن هناك أنواع كثيرة من الهدى، فهناك هدى الشيطان!

وقال: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ [البَقَرَة: ٥]، ولم يقل من الله، ليذكرهم بنعمة الهداية... ونعمة الفطرة.. ونعمة الحياة.. من ربهم الذي رباهم.. فهم مقرون بنعم الله عليهم.

لأن الله إذا ذكر الجميل ذكر الربوبية، وإذا ذكر القرآن ذكر الألوهية سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥]. والفلاح ذكر في القرآن كثيراً، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحَشر: ٩]. وذكر سبحانه وتعالى بعد الصبر الفلاح..

وبعد الذكر الفلاح.. وذكر سبحانه وتعالى بعد الجهد والنفقة الفلاح.

والفلاح في اللغة بمعنى السعود والنجاح.. والفلاح معناه الذهاب إلى الشيء، وهو هنا بمعنى: إنهم سعداء في الدنيا والآخرة.

وأولئك هم المفلحون.. بمعنى أفلحوا ونجحوا وأصلحوا ظاهراً وباطناً.

أسأل الله أن يجعلنا من المفلحين، ومن المقيمن للصلاة، ومن الذين يؤمنون بالغيب، ومما رزقهم الله ينفقون.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



الصفات العشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٥]، وهم أولياء الله الذين قال تعالى فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

من هم أولياء الله؟

أمن لبس العباء؟ وتدثر بالقباء؟ ونام في العراء؟

من هم أولياء الله؟

أمن أتى بالمراسيم؟ وقبّل كفه حتى أنزل منزلة العظيم؟

من هم أولياء الله؟

أمن لبس العمائم؟ أو الغتر الحمراء؟ أو الثياب البيضاء؟ أو تحلى بالمناصب العالية؟ أو المراكب الوطية؟ أو الفلل البهية؟

ذلكم ما سوف نجيب عليه إن شاء الله في هذه الرسالة.

أولياء الله لهم عشر مواصفات جمعتها عموماً ومجملاً، وإلا فتفصيلها يدخل في مئات الجزئيات.

هي عشر صفات لأولياء الله، فمن وجد ذلك في نفسه فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

إذا كان هذا الدمع يجري صبابة
على غير سعدى فهو دمع مضيّع

الصفة الأولى: إخلاص العمل لله، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٥، ٦٦].

تباً لمن عمل لغير الله، ونعوذ بالله من الرياء والسمعة.

ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**من راءى راءى الله به، ومن سمّع سمّع الله به**»[١].

فصفة أولياء الله أنهم يريدون بعملهم وجه الله.

يقولون لابن سيرين: صلِّ بنا.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٩٩)، ومسلم برقم (٢٩٨٧) عن جندب بن عبدالله بن سفيان رضي الله عنه، وأخرجه مسلم برقم (٢٩٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال: لا والله، أخشى أن أتقدم لأصلي بكم فينصرف الناس ويقولون: صلّى بنا ابن سيرين.

فترك الصلاة خوف الشهرة.

قالوا عن إبراهيم النخعي: كان إذا جلس عنده أربعة قام وتركهم وقال: أخاف أن يجتمع عليّ الناس.

فما لنا يجتمع علينا الناس، وهم أتقى وأفضل وأطهر وأقرب إلى الله؟ لأنهم أخلص منا، ولكن كما قال الأول يوم خالط مثلنا وتكلم مثلنا:

لعمر أبيك ما نسب المعلى
إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت
وصوّح نبتها رعي الهشيم

وقال ﷺ: **«أول من تسعر بهم النار ثلاثة: قارىء قرأ القرآن، يقول الله: أقرأتك القرآن وعلّمتك العلم، فماذا فعلت فيه؟**

قال: يا رب علمت الجاهل.

قال الله: كذبت ـ والله أدرى ـ.

وتقول الملائكة: كذبت.

ويقول الله: تعلمت العلم ليقال عالم وقد قيل، خذوه إلى النار.

فيدهده على وجهه في النار.

وكذلك الغني، وكذلك الشجاع»[1].

---

(١) رواه مسلم برقم (١٩٠٥)، وأحمد برقم (٨٠٧٨)، والترمذي برقم (٢٣٨٢).

إذن أول ميزة لأولياء الله هي الإخلاص في العمل، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ٣]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البَيّنَة: ٥]، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فأول ما ندعو أنفسنا وإياكم إلى إخلاص العمل لوجه الله.

كان أبو إسحق الشيرازي عالم الشافعية في القرن الخامس لا يتكلم بكلمة ولا يلقي درساً إلا ويصلي ركعتين ويدعو الله بأن يقبل منه.

وابن الجوزي واعظ الدنيا كان إذا أراد أن يخطب الناس ويعظ الناس مرّغ وجهه في التراب وبكى وقال: يا رب استرني وتقبّل مني ـ أو كما قال ـ.

فلذلك من ميزة أهل السنة عن غيرهم: إخلاصهم العمل لوجه الله، وفي الصحيح: «**أن الله تبارك وتعالى يقول للمرائين يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون بأعمالكم في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»[١].

والإخلاص هو أن تعمل عملاً لا ترجو ثوابك فيه إلا من الله.

وقيل: أن لا يحول بينك وبين الله خلق.

وقيل: أن تعمل العمل أمام الناس وفي الخلوة سواء.

تصلي وحدك كأنك أمام الناس، وتصلي أمام الناس كأنك وحدك.

إذن أخص خصائص أهل السنة وأولياء الله أنهم مخلصون،

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٣١١٩، ٢٧٧٤٢)، وانظر: المشكاة برقم (٥٣٣٤).

فعبادتهم لله، وطلبهم للعلم لله، ونصحهم لله... وهكذا.

ولذلك ذكروا عن أيوب بن تميمة السختياني أنه كان يبكي إذا ذكرت عنده الأحاديث في الرقائق، وإذا ذكر الموت، فيمسك أنفه ويقول: ما أشد الزكام.

ليبين أنه مزكوم.. وهو يبكي.

أما بعض الناس فهو يريد أن يري الناس بأنه زاهد، فيلبس ثوباً ممزقاً مقطعاً وقلبه قد سكنته الدنيا بعماراتها وسياراتها ومعارضها وأسواقها.

الزهد ليس في الثياب الممزقة، ولكنه في صدق القلوب ومجافاة الحرام والتقلل من الدنيا.

أما الصفة الثانية: فهي أنهم يرضون برسول الله ﷺ إماماً ويحكمونه ويقتدون به، ويكون أحب إليهم من أسماعهم وأبصارهم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

كان الإمام مالك يدرّس الموطأ في مسجد الرسول ﷺ، وفي أثناء قراءته في الكتاب أتت عقرب فلدغته ثلاث عشرة لدغة فما تغير.

وبعدما انتهى رأى اللدغات في ساقه فمسحها بترياقه، فقيل له: لماذا لم تقطع الحديث؟

قال: سبحان الله! أقطع حديث الحبيب من أجل لدغة عقرب؟

أي حب هذا؟

وأي اشتياق هذا؟

وسئل ابن المسيب عن حديث وهو في مرض الموت فقال: أجلسوني لا ينبغي أن يذكر ﷺ وأنا مضطجع.

ولذلك كان كثير من الصالحين إذا رأوا معالم آثار الرسول بالمدينة وما حولها بكوا.. فكيف لو رأوه؟

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

يلتفت ﷺ إلى جبل أحد ويقول: «**أحد جبل يحبنا ونحبه**»[(١)].

سبحان الله! حتى الجبال تحبك.

يقف على المنبر في أول خطبة يخطبها ﷺ على المنبر الجديد ويلقي جذع النخلة الذي كان يخطب عليه منذ زمن.

فيحنُّ الجذع كحنين النوق العشار، ويسمع له صوت كبكاء الأطفال.

فينزل ﷺ فيضع يده على الجذع ويسكّته حتى يسكت[(٢)].

يقول الحسن البصري معلقاً: عجباً لكم، جذع يحن للرسول ﷺ وأنتم لا تحنون.

إذن من صفات أولياء الله حبهم العظيم للرسول ﷺ، فلا يرضون إلا به إماماً.

وإني أحذر نفسي وإياكم خاصة طلبة العلم والدعاة من الذين

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤٢٢)، ومسلم برقم (١٣٩٢) عن أبي حميد رضي الله عنه، والبخاري برقم (٣٣٦٧)، ومسلم برقم (١٣٦٥) عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٥٨٣)، وأحمد برقم (٥٨٥٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه البخاري برقم (٢٠٩٥، ٣٥٨٤، ٣٥٨٥)، وأحمد برقم (١٣٧٢٩) عن جابر رضي الله عنه.

يغالون في بعض الأشخاص من المنظرين وممن لهم زعامات أن يجعلوهم في مكان الرسول ﷺ وفي محبته.

لا والله فهذا غلو: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النِّساء: ١٧١].

وإنا نزري بأنفسنا وببعض الناس إذا أكثر من ذكر الأشخاص أو بعض الأشخاص أكثر من ذكر الرسول ﷺ.

وقد خالف في هذا الأصل ـ وهو محبة الرسول واتخاذه قدوة ـ كثير من المبتدعة الذين قدموا رؤساهم على الرسول ﷺ في الأقوال، بل وفي الحب.

وشابههم في تقديم الأقوال أهل التعصب المذهبي الذين ردوا حديث المصطفى ﷺ بدعوى أنه يخالف مذاهبهم.

وتوسط أولياء الله فجعلوا إمامهم رسول الله ﷺ.

فأنا أطالب نفسي وإياكم بالاقتداء به في المعتقد والحال والأقوال والفعال، ولا نجعل بيننا وبين الله في التبليغ واسطة إلا محمد ﷺ.

وأما في الدعاء والاستغاثة والخوف والرجاء فلا نجعل بيننا وبين الله واسطة أبداً.

إنما في التبليغ فحسب.

الصفة الثالثة: حبهم وبغضهم في الله، فهم يحبون الأشخاص لقربهم من الله، ويبغضون الأشخاص لبعدهم عن الله، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المَائدة: ٥٥].

ويقول ﷺ فيما رواه أبو داود بسند صحيح: «من أحب لله

وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[(١)].

فلا يحبون أحداً لنسب أو لمواصفات أو لملابسات، أو لأنه وافقهم في مشرب، أو اتجه معهم في اتجاه، أو ذهب معهم تحت مظلة.

كان الشافعي يزور أحمد بن حنبل رحمه الله كثيراً؛ لأنهما تحابّا في الله.

فقيل للشافعي: كيف تزور أحمد وهو أصغر منك؟

فقال:

قالوا يزورك أحمد وتزوره   قلت الفضائل لا تغادر منزله
إن زارني فلفضله أو زرته فلفضله فالفضل في الحالين له

وكان الشافعي يقول أيضاً:

أحب الصالحين ولست منهم   لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره من تجارته المعاصي   ولو كنا سواءً في البضاعة

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزّخرُف: ٦٧].

ولكن للأسف لقد وجد من بعض الملتزمين المستقيمين من يصلي الخمس ويصوم رمضان ويحج البيت ولكن يحب العصاة، فجلساته مع العصاة، وسمراته وسهراته مع أعداء الله.

أتحب الله وتحب أعداء الله؟

كيف يلتقي هذا في القلب؟

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٨١)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٠٥١٩)، وانظر: المشكاة برقم (٣٠).

لا والله، إن من أحب الله أحب أولياء الله وكره أعداء الله.

إذن.. لا بد من هذا التمايز في الولاء والبراء.

يقول الإمام أحمد: إني أرى الشيخ الكبير يخضب لحيته فأفرح به وأحبه لأنه أحيا شيئاً من السنة.

عجباً لك يا أبا عبدالله، تحب إنساناً فقط لأنه أحيا سنة الخضاب.

فكيف بمن يصلي الخمس، ويصوم الشهر، ويدافع عن الرسول ﷺ ويحب سنته؟

أما الصفة الرابعة: فسلامة صدورهم للمسلمين، فهم لا يجدون غلاّ ولا حقداً ولا حسداً ولا غشاً لعباد الله عز وجل.

ويوجد ـ ونسأل الله أن يبرئنا من هذه الخصلة الذميمة ـ من يحقد حقداً ذريعاً على إخوانه لأنهم خالفوه في جزئيات، أو فرعيات.

كان الرسول ﷺ يجلس في المجلس فيدخل رجل متوضىء تقطر لحيته ماءً وحذاؤه في يده اليسرى، وقبل أن يدخل يقول ﷺ: «**يطلع عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة**».

فيدخل هذا الرجل ويصلي ركعتين.

وفي اليوم الثاني يقول ﷺ كذلك: «**سوف يطلع عليكم رجل من أهل الجنة**»، فيدخل ذلك الرجل.

وفي اليوم الثالث كذلك.

فيذهب معه ابن عمر ليرى عبادته، فلم يجده كثير صيام أو كثير قيام.

فقال له: ماذا كنت تفعل؟ فإني سمعت الرسول ﷺ يقول:

«**يطلع عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة**»، ثلاث مرات في ثلاثة أيام فكنت أنت.

قال: هذه عبادتي وهذه صلاتي، وهذا صيامي وهذا قيامي، ولكن ما دمت سألتني فوالله إني أبيت كل ليلة وليس في قلبي لأحد من المسلمين غش ولا حقد ولا حسد لأحد[1].

فهي منزلة رفيعة، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٤٧﴾ [الحجر: ٤٧].

فمن ميزات أولياء الله أنهم لا يجدون في أنفسهم غلاً للمؤمنين: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

عند أحمد في المسند بسند جيد: «**ثلاث لا يغل عليهن: قلب امرىء مسلم إخلاص العمل لله، ومناصحته ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين، لأن دعوتهم تحيط بمن وراءهم**»[2].

وهم يتميزون بحفظ أعراض المؤمنين في مجالسهم:

لسانك لا تذكر بها عورة امرىءٍ

فكلك عورات وللناس ألسن

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

الصفة الخامسة من صفات أولياء الله هي حرصهم على إتمام الفرائض والتزود بالنوافل.

فإذا رأيت الرجل يحافظ على الفرائض ويؤديها على أكمل وجه،

---

(١) رواه أحمد برقم (١١٢٨٦)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٣٠٤٨).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٢٩٣٧)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (٥٩١).

ويتزود بالنوافل ويتجنب المحرمات، فهو وليّ من أولياء الله، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يُونس: ٦٢، ٦٣].

وصح عنه ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**ما تقرب إلي عبدي بأحب مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها...**»، الحديث[١].

وأولياء الله على قسمين:

١ ـ فمنهم مقتصد.

٢ ـ وسابق بالخيرات.

فالمقتصد هو الذي يحافظ على الفرائض ويجتنب الكبائر.

والسابق بالخيرات من يحافظ على الفرائض ويتزود بالنوافل، ويجتنب الكبائر والمحرمات والمكروهات.

يأتي شاب إلى الرسول ﷺ فيقول: يا رسول الله أريد مرافقتك في الجنة.

قال ﷺ: «**أو غير ذلك**»؟

قال: هو ذاك.

قال ﷺ: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**»[٢].

أي تزوّد من النوافل لتكون من أولياء الله فتدخل الجنة.

والنوافل شتى: فمنها الصلاة، والصيام، والذكر، والصدقة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢).

(٢) رواه مسلم برقم (٤٨٩)، وأبو داود برقم (١٣٢٠)، والنسائي برقم (١١٣٨)

فكل إنسان يعلم ما ينفعه وما يرقق قلبه وينقله في مراتب العبودية حتى يكون من أولياء الله، فعليه بالإكثار منه.

فأولياء الله إذن هم أهم النوافل، أهل الصيام في الهواجر وصلاة الضحى وقيام الليل في السَّحر.

الصفة السادسة: أنهم سلفيون في المعتقد ولا فخر.

فلا يكفي أن يكون الإنسان عابداً ويكون مبتدعاً.

فإنك تجد من المبتدعة من يصلي في اليوم خمسمائة ركعة، لكنه مبتدع ضال منحرف.

إذاً لا بد من الاعتقاد السليم، اعتقاد أهل السنة والجماعة على الذي أتى به رسول الله ﷺ في التوحيد بأنواعه، وفي الأسماء والصفات وفي اليوم الآخر.

وهذه الصفة هي أعظم صفاتهم، فهي ما يفرق بينهم وبين أصناف المبتدعة في كل زمان ممن خالفوا نهج الرسول ﷺ وطريقته في أمور العقيدة.

فأولياء الله إذن هم من تلقى العقيدة من الكتاب والسنة، ولم يخض في التأويل والرد اللذين وقع فيهما غيرهم من الطوائف الأخرى كالمعتزلة والصوفية والأشاعرة وغيرهم.

وكتبهم في العقيدة هي كتب أهل السنة والجماعة المعتمدة، حيث الآية والحديث دون فلسفة أو إكثار كلام كطنطنة أهل الكلام والتعقيد.

وهم يجعلون العقيدة والتوحيد رأس الأمر في دعوتهم، فيدعون الناس كما دعاهم الأنبياء إلى تحقيق التوحيد في حياتهم ونبذ كافة أشكال الابتداع من دنياهم، ويكون ذلك عبر الكتب والنصائح والمحاضرات.

الصفة السابعة: أنهم يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يبخلون بالعلم.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

وعلماؤهم رجال عامة.

فليس في الإسلام عالم ينغلق على نفسه في البيت ولا يخرج للناس لينفعهم.

فهذا ليس من علماء أهل السنة.

فعلماء أهل السنة تجدهم في المسجد، وفي السكة، وفي الشارع، وفي الرصيف، وفي الأندية، وفي مجامع الناس، وفي الكليات والجامعات.

فيعلّم الناس وينفق مما آتاه الله ولا يبخل بالعلم كشأن بني إسرائيل الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النِّساء: ٣٧].

كان الزهري يدور على الناس يعلمهم الحديث.

وصح عن عروة بن الزبير أنه كان يعطي الذهب والفضة والدراهم للناس ويقول: تعالوا اسمعوا عني الحديث.

يقدم هدايا حتى يسمعوا منه، فكيف بمن يتعب الناس حتى يفتيهم في مسائل يسيرة تنفعهم ولا تضره؟

الصفة الثامنة: أنهم يحبون الجماعة ويكرهون الفرقة ويسعون إلى جمع الشمل ونبذ الاختلاف.

فالدوائر الضيقة التي تشتت الأمة ليست من دين الله عز وجل.

كفى الأمة تمزيقاً.

فلا بد للولي أن يحب المسلمين الذين يسيرون على منهج أهل السنة دون أن يمايز بينهم، فيقدم واحداً لأنه على مشربه، ويؤخر الآخر لأنه يخالفه.

فالمسلمون جماعة واحدة لا تقبل تقسيمات البعض الذين يريدون حصرها في اتجاه واجتهاد محدد قابل للصواب والخطأ.

فأهل السنة يحرصون على الجماعة.

ولذلك يقول: من علامة أهل البدعة أنهم يطعنون في أولي الأمر، قالها أبو عثمان الصابوني وابن بطة الحنبلي من الأئمة.

ومن علامات أهل البدع أنهم يكرهون التجمع ويفرحون بالفرقة، بخلاف أولياء الله (أهل السنة والجماعة).

الصفة التاسعة: أنهم يعودون إلى الكتاب والسنة عند التنازع.

فإذا اختلفوا في مسألة ذهبوا يبحثون في الكتاب والسنة: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

فالرد يكون إلى كتاب الله، وإلى سنة رسول الله ﷺ.

ودائماً يدعون بقوله ﷺ: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي إلى صراط مستقيم**»[١].

ونحن لا نحتاج مع الكتاب والسنة إلى أي تنظير، أو إلى أي اجتهاد، ولا إلى أي رأي آخر.

الصفة العاشرة: أنهم يقولون بالحق ولا يحملهم الهوى على القول الباطل.

فالرسول ﷺ في حديث النسائي الصحيح كان يقول في الدعاء: «**اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا**»[٢].

فبعض الناس الآن إذا غضب على أخيه وزميله وحبيبه أركبه الهوى إلى أن يقول فيه ما لا يقال لأنه اتبع الهوى.

وإذا رضي على أخيه نسي عيوبه كلها ولو كانت موجودة.

فعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة

كما أن عين السخط تبدي المساويا

فنسأل الله أن نكون عدولاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النِّساء: ١٣٥] شهداء يقومون بالقسط والحق فلا يجورون ولا يظلمون.

(١) رواه مسلم برقم (٧٧٠)، وأحمد برقم (٢٤٦٩٩)، وأبو داود برقم (٧٦٧).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٧٨٦١)، النسائي برقم (١٣٠٥، ١٣٠٦)، ابن حبان برقم (١٦٨٥)، الحاكم برقم (١٩٥٩)، وانظر. المشكاة برقم (٢٤٩٧)، وصحيح النسائي برقم (١٢٣٧)

وفي أثر يروى عنه ﷺ أنه يقول عن صفته: «**وأن أقول الحق في الرضا والغضب**»، أو كما روي عنه ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، صدقاً في الأقوال وعدلاً في الأحكام.

وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

يقول: لا يحملنكم بغض الناس أن تحكموا عليهم بالمفتريات والزور وتنحوا عليهم بالحكم الجائر لأنكم تبغضونهم.

لا.. بل كونوا عدولاً.

أيها الأحبة في الله.. هذه باختصار أبرز صفات (أولياء الله)، وهي عشر صفات تندرج تحتها صفات أخرى لمن تأمل.

أسأل الله لي ولكم أن يجعلنا نتحلى بها ونتصف بمدلولاتها لنحقق ولاية الله في أنفسنا.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



الأتقياء والأشقياء

الحمد لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً، وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً.

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. شهادة أدخرها عند الله العلي القدير ليوم العرض الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلِّ اللهم وسلِّم على محمد ما فاحت الأزهار، وما هطلت الأمطار، وما تلاقى الأبرار، وما تعانق الأخيار، وما تعاقب الليل والنهار، وعلى آله وأصحابه من المهاجرين والأنصار، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين.

● الأتقياء والأشقياء:

الناس صنفان: تقي وشقي، فريق في الجنة وفريق في السعير، ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحجّ: ١٩].

والعيون قسمان: عين عرفت الله، ودمعت من خشية الله، وتدبرت آيات الله، وتفكرت في مخلوقات الله. وعين نظرت إلى الحرام، وأعرضت عن هدي خير الأنام، وتصفحت المعاصي، وأطلت إلى الحرمات، فهي العين الباكية يوم العرض الأكبر عند الله.

والقلوب اثنان: قلب عرف الله وامتلأ بلا إله إلا الله، وأحب رسول الله وسار على منهج الله، فهذا قلب سعيد. وقلب أعرض عن الذكر والتلاوة والصلاة والمعرفة والنهج السديد وسيرة محمد ﷺ، فهو قلب منكوس.

والآذان اثنتان: أذن استمعت إلى الوحي وإلى التلاوة وإلى الحديث وإلى الدعوة وإلى الخير والذكر والبر، فهي أذن سعيدة. وأذن أعرضت واستمعت إلى الغناء وإلى الفحش وإلى البعد وإلى الانهيار وإلى كل ما يغضب الرب جل في علاه.

والألسنة لسانان: لسان نطق بالحكمة وقال الخير وذكر المولى وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ولسان تكلم بالغيبة والزور والاستهتار والاستهزاء واللعنة والنميمة، فهو لسان خاسر.

وفي هذه الأوراق القادمة سوف أعرض إلى صنفين من الناس.. صنف تقي وسعيد، وصنف شقي وتعيس.

سيتواجه الصنفان ويتحاوران، وسوف نصغي سوياً إلى حكاياتهم لنأخذ منها العبرة والفائدة.

● إبراهيم والنمرود:

ما أحسن الهداية! وما أجمل أن تعرف الله! وما أعظم أن تتعرف على الواحد الأحد! فسبحان الله! كيف أعرض كثير من القلوب عن الله؟ يقول جل في علاه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨].

كان إبراهيم ﷺ يحمل لا إله إلا الله، يتصدر الدعوة في سبيل الله، ينزل للناس ويدخل على الطغاة في قصورهم، ويدخل على

المجرمين في أوكارهم، وفي هذا درس لطلبة العلم ولدعاة الإسلام ولحملة الشهادات وأبناء الكليات الذين درسوا العلم الشرعي للنزول إلى الساحة، وأن يدخلوا أعين الناس، وأن يستغلوا المنابر، وأن يتحدثوا إلى الجماهير.

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨]. وهل ينكر عظمة الله إلا من ألحد؟ هل ينحرف عن منهج الأنبياء إلا من تزندق؟

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨]، أي فمن الذي يحيي العظام وهي رميم إلا الله؟

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

من الذي أخرج المولود باكياً من بطن أمه لا يفهم شيئاً ولا يعلم ولا يعرف شيئاً، فدلّه وبصّره وأحياه وأطعمه وسقاه؟ من علّم النحلة بيتها ورزقها وهداها أن تأتي وتجوب القفار والوهاد والجبال؟ ومن علّم الثعبان أن يرتحل ويهاجر؟ من علم الجراد والنملة أن تأوي في جحرها؟ إنه الله الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى.

قل للطبيب تخطفته يد الردى   من يا طبيب بطبه أرداك
قل للمريض نجا وعوفي بعدما   عجزت فنون الطب من عافاك

ذكر ابن الجوزي أن رجلاً رأى عصفوراً يأتي بقطعة لحم فينقلها من مكان في المدينة ويرتحل بها إلى رأس نخلة كل يوم، فتعجب هذا الرجل لأن العصفور لا يعشعش في النخل، فتسلق النخلة فوجد حية عمياء كلما اشتهت الأكل أتى هذا العصفور بقطعة لحم وهي عمياء فاقترب منها.

فإذا اقترب فتحت فمها، ثم يلقي هذا العصفور اللحم في فمها!

سبحان من سخر العصفور لتلك الحية، ودل تلك الحية على رزقها. نعود إلى القصة.

يقول سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨].

فانظر أخي المسلم إلى ذلك الكذاب، وذلك الدجال الملعون الذي يماري ويجادل في أعظم آيات الكون وهي الموت. ولذلك وجدنا أن هناك من تزندق وجادل وشكك في توحيد الربوبية والألوهية.

فعجباً لهم كيف يكفرون؟ وعجباً لهم لماذا لا يؤمنون؟

أفي الله شك؟

أفي آياته لبس وريب؟ حتى يستهزىء بعض هؤلاء المارقين بالقيم والأخلاق والدين والكتاب والسنة.

فقد جاء النمرود برجل مسجون وقال: هذا أحييته لوجوهكم، وأتى برجل آخر فذبحه وقال: هذا أمتُّه!

يا لغباء وسفه وجهل هذا الزنديق الكاذب.

فردَّ عليه إبراهيم ردّاً لا يحتمل المجادلة ولا يترك له باباً لينفذ منه مرة أخرى، فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨]، إن كنت صادقاً بأنك إله، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨]، أي انهزم وانهدم وخاب وخسر وخزي، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨] أي إن الله لا يهدي هؤلاء القوم الظالمين لأن أوراقهم تحترق، فليس لديهم حجج ولا براهين لأنهم دجالون وكذابون ومجترئون على الله.

وبعد هذه الحجة الدامغة التي حاجَّ بها إبراهيم النمرود لم يسكت

ولم ينته عن غيِّه وتكذيبه ومجونه، فقد جمع حطباً وأجّج ناراً. وأخذ جنوده إبراهيم وقيّدوه وهبوا وأسرعوا لإلقائه في النار، فإلى من يلتفت إبراهيم الخليل وإلى من يلتجىء وممن يطلب النصر والنجاة؟

يا واهب الآمال أنت حفظتني ومنعتني

وعدا الظلوم علي كي يجتاحني فنصرتني

فانقاد لي متخشعاً لما رآك منعتني

فمن يمنع الضر إلا الله ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣، ١٧٤].

يقول ابن عباس كما في صحيح البخاري: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾. قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار فجعلها الله برداً وسلاماً عليه، وقالها محمد ﷺ حين قالوا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾[1].

فلما قيّد جنود النمرود إبراهيم ﷺ بالحبال وحملوه في المنجنيق وأشعلوا له ناراً أتاه جبريل في الساعات الحرجة، وهي الساعات الصعبة جداً في حياة أي إنسان عندما يتعرض لمشكلة صعبة في حياته أو أزمة معضلة، فلما أتاه جبريل وهو مقيد بالحبال قال له: يا إبراهيم ألك إلي حاجة؟ فرد عليه إبراهيم قائلاً قول المؤمن الواعي الصابر المتأكد من قدرة ربه عز وجل، الواثق بنصره جل وعلا، قال: أمّا لك فلا، وأما إلى الله فنعم، فلما حملوه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، ووقع في النار فكانت برداً وسلاماً عليه، فسبحان من أنجاه وحماه ووقاه لأنه تقي، وسبحان من رد الخبيث الخسيس لأنه شقي.

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٥٦٣).

عقوبة الله للنمرود:

أتدري يا أخي المسلم بماذا عاقب الله النمرود؟ ذكر بعض أهل العلم أن بعوضة دخلت أنف النمرود فتغذت على دماغه حتى أصبحت تلك البعوضة كالعصفور، فكانت تفرفر في رأسه فيجد انزعاجاً وألماً وعذاباً، فلا يهدأ ولا يرتاح ولا يطمئن حتى يضرب على رأسه بالنعال أو بالكرباج، وفي الأخير ضرب فذهب مخ رأسه.

لقد ذهب الحمار بأم عمرٍ فلا رجعت ولا رجع الحمار

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فُصّلت: ١٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

لقد وجدوا المعيشة الضنك يوم سكنوا ناطحات السحاب بلا إيمان، ويوم استقلوا السيارات الفارهة وسكنوا الدارات بلا إيمان.

فليس العمى عمى الأبصار ولو أنه عمى ظاهر، ولكن العمى الحقيقي هو عمى القلب: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: ٤٦].

فبعض الناس عيناه كأعين الثور ولكنه لا يبصر ولا يعي، فليس عنده قلب يخشع، فمثله مثل أبي جهل يبصر بعينه كل شر ولم يبصر الخير، ولكن ابن أم مكتوم أعمى البصر ولكنه مبصر البصيرة وطاهر القلب ونقي السريرة والفؤاد.

وإن إبراهيم نتيجة لورعه وتقواه حاور هذا الشقي مستنداً إلى عقيدة راسخة ملأت جوانحه كلها، فسعد في الدنيا والآخرة، وأخزى الله هذا الشقي في الدنيا والآخرة لأنه ما عرف الهداية ولا تعلق بالنور الإلهي.

ومن ذلك يتضح لنا أنه لا ينقصنا خبز ولا ماء ولا شهادات، بل ينقصنا هداية وتوفيق من الله، وكذلك فإننا بحاجة إلى دعاة يجوبون السبل ويدعون الناس إلى منهج ربهم وسنة نبيهم.

يقول الشافعي رحمه الله:

تموت الأسود في الغابات جوعاً   ولحم الضأن تأكله الكلاب

ولذلك ما سمعنا أن أحداً مات من الجوع، ولكن القلوب هي التي تموت جوعاً وتموت فقراً وتموت قحطاً وجدباً، فهل من غيث؟ نعم إن الغيث هو الكتاب والسنة.

• موسى عليه السلام وفرعون:

وأما موسى عليه السلام في حواره مع فرعون فأمر عجيب، فهو كان راعياً للغنم ولكنّه عرف الله. وكان لديه عصاً لها أخبار وأعاجيب، كان يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه.

وأما فرعون فهو رجل دجال مخرف.

رجل وقف في الناس جميعاً ليقول لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القَصَص: ٣٨]، ويقول لأهل مصر: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات: ٢٤].

فلما قال تعالى لموسى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤] قال في أول الطريق: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، فشرح الله صدره وهيأه للذهاب ومقابلة هذا الطاغية.

وسبحان الله! فقد ذاق كثير من الناس اللذائذ بأنواعها المختلفة، ولكنهم ما وجدوا ولا أحسوا حلاوة الإيمان، ولا أحسوا بطعم هذه المأكولات والمشروبات، لأن صدورهم وقلوبهم لم تنشرح بنور

الإسلام والإيمان وسنة خير الأنام ﷺ، إنما موسى ﷺ قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٥-٢٨]، يريد عليه السلام أن يكون داعية وواعظاً وناصحاً للناس ليتعرفوا على ربهم ويتجهوا إلى خالقهم.

ومن هذا يمكن أن نستنبط درساً لطلبة العلم في بلادنا وفي جميع بلاد المسلمين قاطبة وحتى للمسلمين في غير بلاد المسلمين أن يتعلموا الخطابة والكتابة ليستطيعوا أن يقفوا في الناس داعين إلى الله عز وجل لهداية البشر وإرجاعهم إلى ربهم على منهاج نبيهم، وأن يتعلموا فن الكلمة ولباقة الحوار والسحر الحلال ليحولوا حال الناس من الظلام إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى والإسلام.

ثم قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٧، ٢٨]، لأنه قد تلعثم في صغره فأحلّ الله عقدته.

ثم استجاب له أيضاً عندما دعا قائلاً: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾ [طه: ٢٩، ٣٠]، فجعل الله عز وجل أخاه هارون مساعداً له ووزيراً، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

وذهب موسى وهارون إلى فرعون، وقال الله لموسى وهارون وهما في الطريق ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٤٣]، أي قد تجاوز الحدَّ واعتدى وتجبر وتكبر على منهج ربه. ولكنْ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

فالقلوب لا تلين إلا للكلمة الحانية والأسلوب الرائع، والآذان لا تستمع إلا إلى الحب والصفاء، والقلوب والأرواح لا تنقاد إلا إلى الحكمة.

قال سفيان الثوري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤]: القول اللين هو أن يكني فرعون، أي يدعوه ويقول له: يا أبا فلان!

فأنت عندما تدعو وتنادي صديقك بكنيته فإنه يفرح وينتعش ويستبشر ويبتهج ويهش ويبش.

يقول الشاعر:

أكنيه حين أناديه لأكرمه ... ولا ألقبه والسوءة اللقبُ
كذاك أدّبت حتى صار من خلقي ... أني وجدت ملاك الشيمة الأدبُ

فدخل موسى وهارون على فرعون، وكانت كنيته كما قال أبو أيوب الأنصاري وسفيان الثوري «أبو مرة». مرر الله وجهه في النار!

قال له موسى: يا أبا مرة إن أردت أن يبقي الله عليك شبابك وملكك وأموالك وشهرتك فعليك أن تؤمن بالله وحدَه.

فقال فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]؟ سبحان الله! فقد أنكر وجود الله.

والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ [طه: ٤٩]؟ فلو قال موسى: ربي الله. سيرد عليه فرعون قائلاً: أنا الله، ولو قال: ربي هو ربي، لقال: أنا ربك!

فماذا سيقول موسى؟

قال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وهذه مواصفات لا تكون إلا في الواحد الأحد جل في علاه،

وهذه لا ينكرها إلا جاهل جاحد مضل، حتى أن ابن القيم يقول: لما قال فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القَصَص: ٣٨] قال: هذا كلام في الظاهر ولكنه في الباطن يعلم أن هناك إلهاً كريماً جواداً، ويعلم أن منْ خلق السموات والأرض إله قادر واهب قيوم يعلم السر وأخفى، حتى يقول موسى له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسرَاء: ١٠٢].

قال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، هدى جميع الكائنات الحية إلى معيشتها ومصالحها. فقد هدى النملة إلى أن تأتي إلى جحرها فتحتفظ بالحبة من الصيف إلى الشتاء، وهدى النحلة أن تسافر مئات الأميال والكيلومترات وتأخذ الرحيق وتضعه في الخلية.

وهدى.. وهدى..

فسبحان الله! ما أجل الله وما أحقر من ابتعد ولم يتعرف عليه سبحانه وتعالى.

قال فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]؟ ما بال الناس يموتون ولا يرجعون من لدن آدم إلى أجدادنا وآبائنا. وهذه الكلمة هي كلمة الكفار والملاحدة في كل زمان.

فيرد موسى على فرعون رداً جميلاً مؤدباً كما أوصاه الله عز وجل: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢]، فدمغه وقضى عليه وهزمه وأزهقه وانتصر عليه في الديوان وفي الميدان بإذن الواحد الديان، لأن موسى هو التقي، والفاجر الشقي هو فرعون فانتصر التقي على الشقي بحمد الله.

• الرسول ﷺ وأهل الباطل:

١ ـ مع اليهود:

والمتتبع لحياة الرسول ﷺ يجده مرة يرد على اليهود، ومرة على النصارى، ومرة على المنافقين، ومرة على المشركين. ففي الترمذي يقول عبدالله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة انجفل الناس فكنت ممن انجفل، فاجتمعوا عليه في السوق فتبينت وجهه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فوجهه كالقمر ليلة أربعة عشر.

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... لكان منظره ينبيك بالخبر

فوجهه صادق ومخلص.

قال ابن سلام: فلما رأيت وجهه سمعته يقول: «**يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**»[1]، فقال عبدالله بن سلام: يا رسول الله أسألك عن ثلاث آيات لا يعرفها إلا نبي، لأن عبدالله بن سلام كان لديه علم من التوراة، وكان حبراً من أحبار اليهود، فقال: إن أجبت عن هذه الثلاث أسلمت وآمنت. قال الرسول ﷺ: «**وما هي**»؟

قال: ما هو أول طعام أهل الجنة عندما يدخلون الجنة؟ وكيف يشبه الولد أباه وكيف يشبه أمه؟ وما هي أول علامات الساعة؟

فرد عليه الرسول ﷺ قائلاً: «**أما أول ما يأكل أهل الجنة فزيادة كبد الحوت**»، قال: صدقت!

«**وأما أن يشبه الولد أباه فإذا أتى الرجل زوجته فعلا ماؤه ماءها أشبه أباه، وإذا علا ماؤها ماءه أشبه أمه**».

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٨٥)، وابن ماجه برقم (١٣٣٤، ٣٢٥١)، والدارمي برقم (١٤٦٠)، والحاكم برقم (٤٣٣١)، وانظر: المشكاة برقم (١٩٠٧).

قال: صدقت!

«وأما أول علامات الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب».

قال: صدقت! وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت - يعني أهل زور وفجور - إذا علموا أني أسلمت بهتوني، فلا تخبرهم بإسلامي، وأدخلني هذه المشربة (غرفة خلفية) واسألهم عني.

فأدخله ﷺ في الغرفة وأغلق عليه ونادى اليهود فجلسوا، فقال لهم الرسول ﷺ: **«يا معشر اليهود كيف ابن سلام فيكم؟»**، قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، وفقيهنا وابن فقيهنا، وعالمنا وابن عالمنا.

قال: **«أرأيتم إن أسلم؟!»**.

قالوا: أعاذه الله من ذلك.

ففتح عليهم الباب ثم خرج وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقاموا ينفضون ثيابهم ويقولون: شرنا وابن شرنا، وسيئنا وابن سيئنا، وخبيثنا وابن خبيثنا[1]!!

وهنا يقول الله عز وجل في محكم التنزيل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف: ١٠]. والشاهد من بني إسرائيل هو ابن سلام، في قول بعض المفسرين.

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣٢٩، ٣٩١١، ٣٩٣٨، ٤٤٨٠)، وأحمد برقم (١١٦٤٦، ١٢٥٥٨، ١٢٧٩٣).

٢ ـ مع العاص بن وائل:

هو أبو عمرو، كان سيداً في قومه. وكان يلبس الديباج ويغشيه بالذهب لكنْ لم ينفعه ديباجه ولا ذهبه، فهو في النار وفي جهنم خالداً فيها وبئس المهاد، لأنه ما عرف الله وما سجد لله، ولم يتلذذ بالعبودية.

جاء هذا العاص! وأخذ عظماً وقطعه وسحقه ثم نفخه أمام الرسول ﷺ وقال: يا محمد أتزعم أن ربك يحيي هذا العظم بعد أن بلي؟

فقال ﷺ: «**نعم ويدخلك النار!**».

فيقول الله جل شأنه وعظم سلطانه فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٨، ٧٩][١].

فسبحان الله الذي كوّن الإنسان وأنشأه من تلك النطفة المهينة، وسبحان من خلق الإنسان وجعل له السمع والبصر والعينين والأذنين.. ثم هو بعد ذلك يجحد ويكفر، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ [عَبَسَ: ١٧].

● حبيب بن زيد ومسيْلمة الكذاب:

ادّعى مسيلمة الكذاب أنه نبي من الأنبياء، فلما علم الرسول ﷺ بأمره أرسل إليه حبيب بن زيد وهو صحابي عمره ثلاثون سنة قد تربّى على القرآن ولا يملك من الدنيا إلا سيفاً يفلق به هامات الأعداء، ومصحفاً يتصل من خلاله بالله عز وجل، وسجداته في السحر، وقلبه الذي وعى القرآن.

---

(١) أخرجه الحاكم برقم (٣٦٥٤)، وأخرجه الحارث في مسنده برقم (٧٢٩) وعنده القصة في أبي بن خلف.

فيقول ﷺ: «**يا أيها الناس إني مرسلكم إلى ملوك الدنيا فلا تختلفوا علي**»[١]، قالوا: سمعاً وطاعة يا رسول الله.

فقال: «**قم يا حبيب بن زيد واذهب إلى مسيلمة الكذاب**».

فتودعه أمه وتبكي بكاءً شديداً لفراقه، لكنها علمت أنه مأمور بأمر الرسول ﷺ، وعلمت أنها سوف تفارقه وستلقاه في جنة عرضها السموات والأرض، وكأن لسان حالها يقول كما قال ابن زيدون:

بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
تكاد حين تناديكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
إن كان قد عز في الدنيا اللقاء ففي ... مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا

وبعد أن أتى إلى مسيلمة قال له: من أنت؟ قال: حبيب بن زيد، قال: ماذا جاء بك؟

قال: جئت برسالة من رسول الله ﷺ.

قال له: أتشهد أنه رسول؟

قال: أشهد أنه رسول الله.

قال: أتشهد أني رسول؟

قال: لا أسمع شيئاً.

قال: أتشهد أنه رسول؟

قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ﷺ.

قال: أتشهد أني رسول؟

قال: لا أسمع.

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/٢٦٨).

فقال مسيلمة الكذاب لأحد جنوده: اقطع منه جزءً من اللحم. فقطع منه قطعة وقعت على الأرض.

فأعاد عليه السؤال فأعاد عليه الجواب[1].

فقطع مه قطعة أخرى.

وظل يقطع منه حتى قطّعه قطعاً متناثرة في مجلسه وارتفعت روحه إلى الله إلى الخالق جل في علاه، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفَجر: ٢٧-٣٠].

• خبيب بن عدي وكفار قريش:

عرض الكفار خبيب بن عدي على مشنقة الموت وسألوه: ماذا تريد يا خبيب؟

قال: أريد أن أصلي ركعتين.

فقام وتوضأ وصلى ركعتين واستعجل فيهما، ثم فرغ منهما وقال لهم: والله لولا أن تظنوا أني أخاف الموت لأطلت في الركعتين.

ثم رفعوه على المشنقة فدعا عليهم قائلاً: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً.

قالوا: أتريد أن يكون محمد مكانك وأنت في أهلك ومالك؟

قال: لا والله، لا أريد أن رسول الله ﷺ يصاب بشوكة وأني في أهلي ومالي؛ ثم قتلوه.

---

(١) انظر قصة استشهاد حبيب بن زيد رضي الله عنه في سيرة ابن هشام (٥٠٢/١)، وذكر ابن أبي شيبة في مصنفه أن مسيلمة قتل حبيب بن زيد برقم (٢٨٧٧٢، ٢٩٥٠٧)، وانظر: أسد الغابة (ترجمة حبيب برقم ١٠٤٣).

يقول أهل السير: كان خبيب بن عدي يقول قبل أن يقتل: اللهم أبلغ عنّا رسولك ما لقينا الغداة، والسلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا رسول الله.

هو في مكة والرسول ﷺ في المدينة، فأخذ يقول ﷺ في تلك اللحظة: «**عليك السلام يا خبيب، عليك السلام يا خبيب، عليك السلام يا خبيب**»[١].

وقد أنشد خبيب أنشودة الموت قبل أن يقتل وهي قصيدة الفداء:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً   على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أشلاء شلو ممزع

● أبو مسلم الخولاني والأسود العنسي:

لقد سأل الأسود العنسي كذّاب اليمن أبا مسلم أن يؤمن به ويشهد أنه رسول.

فقال له أبو مسلم: لا أسمع شيئاً، وكذبه.

فجمع له حطباً وألقاه في النار.

فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل. فجعلها الله برداً وسلاماً عليه.

فعانقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفرح به لما زار المدينة وأخذ يقول: مرحباً بخليل هذه الأمة، أو بالرجل الذي أشبه الخليل إبراهيم[٢].

---

(١) قصة استشهاد خبيب رضي الله عنه أخرجها البخاري برقم (٣٩٨٩، ٤٠٨٦)، وأحمد برقم (٧٨٦٩)، وأبو داود برقم (٢٦٦٠)، وانظر: فتح الباري (كتاب المغازي - غزوة الرجيع) وأسد الغابة (ترجمة خبيب برقم ١٤١٠)، وسير أعلام النبلاء (ترجمة خبيب برقم (٤٥).

(٢) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ترجمة أبو مسلم الخولاني برقم (٢١٨٣)، وأسد الغابة (ترجمة أبو مسلم برقم ٦٢٤٠)، وسير أعلام النبلاء (ترجمة أبو مسلم برقم ٣٦٩).

• ربعي بن عامر ورستم:

ربعي بن عامر رضي الله عنه وأرضاه أحد الأعلام المسلمين في حرب القادسية.

دخل على رستم قائد فارس ومعه ما يقارب مائتين وثمانين ألفاً من الجنود.

فقال له رستم بعجرفة القوة: ما الذي جاء بكم؟

وكان مع ربعي رمح مثلّم، وثوب ممزق، وفرس كبير معقور قد بلغ من العمر عتياً!

فردَّ عليه ربعي بن عامر بلسان الواثق: إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فردَّ عليه هذا الشقي بعد أن أدهشه ردّه: لا تخرج من قصري أو إيواني حتى تحمل تراباً على رأسك.

فحمل ربعي بن عامر تراباً وقال لأصحابه: هذه بشرى بأن يملكنا الله أرضهم[1].

وبعد ذلك دخل سعد بن أبي وقاص تلك الأرض وانتصر ودخل إيوان الضلالة وحطم وكر الوثنية الفارسية وهو يقول ما ورد في القرآن: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدّخان: ٢٥-٢٩].

(١) انظر: البداية والنهاية (غزوة القادسية ٣٧/٧ وما بعدها).

• الحجاج بن يوسف وسعيد بن جبير:

الحجاج بن يوسف أحد المسلمين الذين أعرضوا عن المنهج وانحرفوا.

وله قصص كثيرة مع المسلمين تدل على جبروته وعظمته في نفسه.

يقول طاووس بن كيسان عالم اليمن: كنت جالساً عند مقام إبراهيم ﷺ في الحرم بعدما صليت ركعتين عند المقام، وجلست أنتظر وأنظر للناس وهم يطوفون، وإذا بجلبة الرماح وإذا بوقع السيوف والسلاح، فالتفتُّ فإذا الحجاج بن يوسف وحرسه داخل الحرم.

فإذا بأعرابي يطوف حول البيت والحجاج جالس، فإذا بحربة قد نشبت في ثوب هذا الأعرابي وهو يطوف فوقعت على الحجاج، فقبضه الحجاج وقال له: من أين أنت؟ قال: من أهل اليمن.

فقال له الحجاج: كيف تركت أخي؟

قال له الأعرابي: ومن أخوك؟

قال له: أخي محمد بن يوسف ـ وكان ظالماً مثل الحجاج، وقد ولاه الحجاج ولاية اليمن ـ.

فقال له الأعرابي: تركته سميناً بطيناً!

فقال: ما سألتك عن صحته، ولكن سألتك عن عدله!

فقال له الأعرابي: تركته غشوماً ظلوماً!

فقال له الحجاج: أما تعرف أنه أخي؟

فقال الأعرابي للحجاج: يا حجاج أتظن أنه يعتز بك أكثر من اعتزازي بالله؟!

فقال طاووس: والله ما بقيت شعرة في رأسي إلا قامت من هذه الكلمة.

وأما حكايته مع سعيد بن جبير فهي حكاية طويلة جليلة فيها عبر كثيرة.

فقد ظل الحجاج يطارد العالم الجليل سعيد بن جبير ثماني سنوات أو أكثر حتى عثر عليه.

فلما دخل سعيد بن جبير عليه قال له الحجاج: ما اسمك؟ (وهو يعرف اسمه).

فقال له: اسمي سعيد بن جبير.

فرد عليه الحجاج قائلاً: بل أنت شقي بن كسير.

فقال له: أمي أعلم إذ سمتني.

فقال له: شقيت أنت وشقيت أمك، ثم قال له: والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى.

قال: لو أعلم أن ذلك إليك لاتخذتك إلهاً!

فقال الحجاج: إلي بالذهب والمال. فأتوه بأكياس الذهب والفضة فنثروها بين يدي سعيد بن جبير ليفتنه.

قال سعيد بن جبير: يا حجاج إن كنت اتخذته رياء وسمعة وصداً عن سبيل الله، فوالله لن يغنيك من الله شيئاً.

فقال: إلي بالمغنية (جارية تغني) فقال لها الحجاج: غني واعزفي.

فبكى سعيد بن جبير. فقال له الحجاج: هل تبكي من الطرب؟ فقال له سعيد: والله ما بكيت طرباً، ولكن بكيت لجارية سخرت لغير ما خلقت له، لأنها ما خلقت لتغني.

فقال الحجاج: خذوه وولوه إلى غير القبلة، والله يا سعيد بن جبير لأقتلنك قتلة ما قتلها أحد من الناس.

قال سعيد: يا حجاج اختر لنفسك أي قتلة أردتها، والله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله بمثلها، فاختر لنفسك أي القتلة تريد؟

قال الحجاج: ولّوه إلى غير القبلة.

قال سعيد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٥].

قال الحجاج: أنزلوه أرضاً.

قال سعيد: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

قال الحجاج: اقتلوه.

فقال سعيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله، خذها يا حجاج حتى تلقاني بها غداً عند الله، اللهم لا تسلطه على أحد بعدي.

ثم قتله الحجاج.

يقول الحجاج عن نفسه: ما مرت بي ليلة إلا ورأيتني أسبح في الدم، وما مرت بي ليلة إلا ورأيت كأن القيامة قد قامت وأن الله يحاسبني ويقتلني عن من قتلته قتلة واحدة، إلا سعيد بن جبير قتلني به الله سبعين مرة. فأهلكه الله بعد شهر[١].

● أخيراً:

إن الصراع بين التقي والشقي ما زال يجري على أرض الواقع، وما زالت المناظرة بين الطرفين قائمة، والحوار مستمراً.

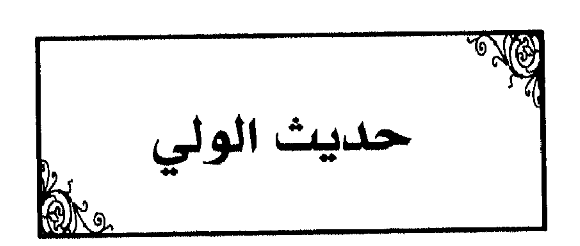
---

(١) انظر: قصة استشهاد سعيد بن جبير في تهذيب الكمال (ترجمة سعيد برقم ٢٥٠٩)، والطبقات الكبرى (٢٦٨/٦)، وسير أعلام النبلاء (ترجمة سعيد برقم ٤٨٣).

فيا أخي المسلم، أين مقامنا نحن من هذا الحوار؟ نرجو من الله العلي القدير أن نكون في صف الأتقياء، وأن يبعدنا ربنا عن زمرة الأشقياء، وأن يرزقنا الهدى والتقى والعفاف والغنى، وأن يحشرنا مع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وحسن أولئك رفيقاً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





حديث الولي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

حديث الولي شرحه الشوكاني في كتاب: (قطر الولي في شرح حديث الولي)، وفيه مسائل أعضلت على الفطاحل من العلماء، فما بالك بطلبة العلم أو العوامّ؟

نص هذا الحديث كما أورده البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله تبارك وتعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بأحب مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء كترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته»**[1]، أو كما قال ﷺ.

وقد ورد الحديث بعدة ألفاظ أخرى متشابهة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢).

اعلموا بارك الله فيكم أن محمداً ﷺ هو أفضل الأنبياء، وسيد الأنبياء، وخطيب الأنبياء، وقائد الأنبياء. إذا وفدوا فهو خطيبهم، وإذا احتشدوا فهو إمامهم، وهو الشافع المشفع، ﷺ، وهو أول من تنشق له الأرض، وهو أول من يقرع باب الجنة.

وخير الأولياء أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فليس هناك ولي أفضل ولا أعظم بعد الأنبياء من أبي بكر، لا الخضر ولا غيره، إذا كان الخضر على قول من قال أنه ولي فأبو بكر أفضل منه.

وفي الحديث: «**ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر**»[1]، فأبو بكر هو خير الأولياء، ولن يأتي أحد بعد أبي بكر في هذه الأمة أفضل منه مهما صلّى ومهما صام ومهما حج ومهما جاهد، لأن أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه أخذ المرتبة الأولى وأخذ الدرجة الأولى في كل منزلة.

في صحيح البخاري في كتاب الجهاد يقول ﷺ: «**من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد**»، إلى آخر تلك الأبواب.

فقال أبو بكر: يا رسول الله أيدعى أحد من تلك الأبواب جميعاً؟

فتبسم ﷺ وقال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر**»[2].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/٣٢٥)، وانظر: تاريخ واسط (١/٢٤٨)، والرياض النضرة (١/٣٢٠، ٢/٢٨)، وفي فضائل الصحابة لابن حنبل (١/١٥٢، ٤٢٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٨٩٧، ٣٦٦٦)، ومسلم برقم (١٠٢٧).

من هو الولي؟

قال غلاة التصوف: الولي هو من غاب بمشهوده عن شهوده، ويعنون بالمشهود: الله، والشهود: ما نراه.

وقالوا: يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ [الكهف: ٢٤]، قالوا: أي إذا نسيت نفسك ومنْ حولك فقد ذكرت الله!

وهذا خطأ.

وقالوا: قال سبحانه وتعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢]، فقالوا: سبحان الله وأين الذي يريد الله؟

فجعلوا الذين يريدون الآخرة لا يريدون الله.

والله يذكر أن بعض الصحابة في معركة أحد يريدون الله والآخرة وبعضهم يريد الدنيا، فأهل الغنائم الذين نزلوا من الجبل يريدون الدنيا فالله يقول: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢]، هؤلاء هم الذين نزلوا من الجبل، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢] وهم الصحابة وعلى رأسهم محمد ﷺ.

فأما على تفسيرهم ـ أي الصوفية ـ فكلا الطائفتين أخطأت.

وقالوا: من صفا، ومن جانب الجفا، ومن أتى بحقوق الوفا، فهو من الصوفية وهو الولي.

وقال الاتحادية: كل ما في الكون من الأولياء ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤٣﴾ [الإسرَاء: ٤٣]، لذلك رد عليهم ابن تيمية شيخ الإسلام ردّاً عجيباً فسحق مفترياتهم وأبطل حججهم.

أما تعريف الولي عند أهل السنة فهو التعريف الذي عرّفه به الله

من فوق سبع سموات في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

فتعريف الولي هو الذي اتقى.

وقال سبحانه تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

أما الصحابة فكانت طرق الولاية عندهم بالعبودية.

وكانت طرق الولاية عند غيرهم ثلاث طرق: بالمواجيد والأذواق، وبالفلسفة والجدل، والتفكير.

أما الصحابة فسلكوا في الولاية مسلك العبادة، فأقربهم عند الله أكثرهم عبادة له.

ولذا كان أبو بكر أفضل الأولياء لأنه أكثر الناس عبادة، فقد حج وجاهد وصام وزكى ودعا وفدى الإسلام بنفسه وماله، ثم كان أخوف الخائفين من الله.

ولذلك في كتاب الزهد للإمام أحمد ـ وقد تكرر هذا ـ أنه رضي الله عنه وأرضاه كان يبكي كثيراً حتى يرثى له، وكان يقول: يا ليتني كنت شجرة فأعضد.

وكان يقول إذا رأى الطائر يطير: يا ليتني كنت طائراً.. فأطير، طوبى لك يا طير ترد الماء وترعى الشجر ثم لا حساب ولا عذاب.

ولما حضرته الوفاة قالت له ابنته عائشة: صدق الشاعر حيث يقول:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال: لا تقولي ذلك ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق: ١٩-٢١].

وانتقل إلى رحمة الله فلم يترك إلا ثوبه وبغله وشيئاً من مال قليل، وقد كان أتجر التجار، لكن دفع ماله في سبيل الله فيلقاه عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة.

فالولي هو من خاف الله واتقاه وعمل الصالحات.

ولأبي عثمان الصابوني كتاب في الولاية ذكر فيه أن الولي هو: من أتى بالفرائض، واجتنب المحرمات، وتزود بالنوافل، وكان سليم الصدر حسن الخلق، قائم الليل مجاهداً لنفسه في ذات الله، عاكفاً على عبودية الله، حسن التعامل مع الناس، صادقاً، إلى آخر كلامه الطويل.

والولي ـ كما يقول ابن القيم في مدارج السالكين ـ، لا يشترط له أن يكون ذا لباس محدد، بل يكون من جملة الناس يلبس كما يلبسون ويأكل كما يأكلون، ولا يتميز عليهم إلا بأعماله وتقواه، لا كما يدعي أهل التصوف.

فكم من ولي في قباء وكم من زنديق في عباء

ولذلك دخل ابن عباس رضي الله عنهما على الخوارج قبل يوم النهروان بيوم ـ والخوارج فرقة ضالة وهم كلاب النار اجتهدوا في العبادة وتركوا العلم والفقه والدين ـ فذهب ابن عباس ليحاورهم فاغتسل وتطيّب ولبس حلة ثمينة بعشرة آلاف درهم.

فلما رأوه وكانوا يلبسون الثياب الممزقة قالوا: أنت ابن عم الرسول ﷺ وتلبس هذا؟

قال: أنتم أعلم برسول الله ﷺ أم أنا؟

قالوا: أنت.

قال: والذي نفسي بيده لقد رأيته في حلة حمراء كأحسن الحلل.

فالمقصود أن الملابس لا دخل لها في الولاية.

أو أن لهم مشية خاصة يمتازون بها على من سواهم.

رأت عائشة رضي الله عنها وأرضاها شبيبة يمشون بتماوت.

فقالت: من هؤلاء؟

قال لها الناس: هؤلاء قوم عبّاد.

قالت: والله الذي لا إله إلا هو، لقد كان عمر أخشى لله منهم وأنسك لله منهم، وكان إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع[1].

والأولياء عند الجمهور قسمان: مقصرون، ومجتهدون.

وابن تيمية يرى أنهم ثلاثة أقسام كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فَاطِر: ٣٢].

فالظالم لنفسه قد يترك بعض الواجبات ويأتي ببعض الكبائر.

والمقتصد هو الذي يفعل الواجبات ويترك الكبائر، ولكنه قد يترك المستحبات وقد يفعل بعض المكروهات.

والسابق بالخيرات هو الذي يفعل الفرائض والواجبات والمستحبات، ويترك الكبائر والمحرمات والمكروهات.

(١) انظر هذا عند القرطبي في التفسير (البقرة: ٤٥، ٣٧٥/١)، وقد أخرجه ابن سعد في الطبقات (ذكر استخلاف عمر ٢٩٠/٣)، والطبري في تاريخه (٥٧٢/٢)، وهو عندهم عن الشفاء ابنة عبدالله وليس عن عائشة.

ووصفه ابن القيم في (طريق الهجرتين) بأنه الذي ينام وقلبه يطوف حول العرش، فهو معلق بربه سبحانه وتعالى.

فإذا نام وانتصف الليل قام فتوضأ وهو خائف منكسر القلب لله سبحانه وتعالى، فيصلي ويناجي ربه وقد أسلم أعضاءه وروحه وعزيمته ومحبته، فليس له من نفسه شيء وليس لنفسه منه شيء.

يقول الله تبارك وتعالى: «**من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة**»، فما معنى المعاداة؟

فهل إذا عاديت المسلم وأتى بينك وبينه بعض البغض ثم تصافيتما يكون هذا من المعاداة؟

قال أهل العلم: لا تدخل المشاحنة والمشادة ولا الخلاف والمجادلة في العداء.

ومعنى المعاداة في الحديث المعاداة التي سببها الولاية.

يعني أنه يعادى لأنه ولي الله، كبغض الرافضة لأبي بكر، وسب الناصبة لعلي رضي الله عنه.

وكعداء الكفار مع المؤمنين، وعداء أهل البدعة من أهل السنة.

وعداوة أهل النفاق مع أهل الإيمان، حيث عادوهم بالسخرية والغيبة واستحلال الأعراض والاستهزاء، ليس المعاداة: الاختلاف العلمي والجدل والضغينة الطفيفة التي لا يخلو منها البشر.

والمحاربة من المفاعلة، أي أن هذا يقاتل ويحارب هذا.

فهي من أفعال المشاركة.

ولكن الله عز وجل أن يحارب العبد ويكون هناك توازن بين الجانبين.

فالله أجلّ قدراً سبحانه وتعالى من ذلك.

قال أهل العلم: ليس معنى الحديث أنه يحاربني وأحاربه، فالعبد أذل وأصغر من أن يحارب الله، لكن المعنى: أن العبد تعرض لما يوجب هلاكه، يعني أنه أغضبني فسأهلكه.

وفي هذا الحديث جعل الله النوافل سبباً لحبه وقرب العبد منه برغم أن الفرائض أهم من النوافل، لأن النوافل لا يحرص عليها إلا من قد كمّل الفرائض غالباً، وهو يسعى إلى أن ينال بها قرب الله وحبه.

بخلاف الفرائض التي قد يفعلها العبد خوفاً من العذاب أو طمعاً في الجنان، فلذلك قدّم النوافل وجعلها أعظم أثراً في هذا الحديث.

والنوافل في الحديث تشمل جميع التنفلات وعلى رأسها نوافل الصلاة كركعتي الضحى والسنن والوتر وغيرها.

وهكذا من النوافل في غير الصلاة كالصيام والحج والصدقة والجهاد.

ولكن بعض الناس لقلة فقهه وفهمه للحديث خطأً تجده يعتني بالنوافل أكثر من الفرائض، فيحرص مثلاً على صلاة الضحى ركعتين ولكنه يصلي الفجر بعد شروق الشمس في البيت!

أو يحرص على التراويح، وهو لا يصلي الصلاة المفروضة جماعة!

وهذا من الفهم الخاطىء، والواجب على المسلم أن ينزل المسائل في محلها الذي أراده الله.

قوله تعالى في الحديث: **«كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...»**.

لأهل العلم عدة تفسيرات لهذا:

قيل: هو من التشبيه، أي أن هذا العبد يحب طاعتي والقرب مني كما يحب سمعه وبصره.. إلخ.

وقيل وهو الأقرب: أن أعضاءه أصبحت كلها في مرضاتي، فأذنه لا تسمع إلا ما يرضيني، وبصره لا يشاهد إلا ما يرضيني، ورجله لا تمشي إلا لما يرضيني.

وقيل: بل هناك محذوف تقديره: «كنت حافظ سمعه وحافظ بصره..» إلخ.

والمعنى الراجح كما سبق أن الله يوفقه لطاعته ومرضاته في كل عضو من أعضائه.

وقد أخطأ في فهم هذا الحديث وألحد طائفتان:

أولاً: طائفة أهل الغناء من الصوفية عندما قالوا قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به**»، أي أنه يسمع غناءهم بإرادة الله وبقدرته لا من نفسه! وهذا إلحاد في المعنى وصرف له عن ما يراد به.

ثانياً: طائفة أهل الاتحاد والحلول الذين قالوا بأن الله يحل في بعض الأشخاص فيكون سمعهم وبصرهم و.. إلخ، وهذا كفر والعياذ بالله.

قوله تعالى: «**ولئن سألني لأعطينه**»، لكن وجد في الدنيا من الأولياء من سأل فلم يعطه الله سؤاله.. فكيف الجواب؟

قيل: بأن الله قد يجيب له ما يريد في الدنيا، وقد يدّخره عنده في الآخرة فيضاعفه له. أو أنه تعالى صرف عنه من السوء بهذا الدعاء الشيء الكثير.

ونحن لا ندري بمصالحنا، فالله هو المدبر الحكيم لنا.

قوله تعالى: «**وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته**».

فهل يطلق التردد على الله؟

الجواب: أن التردد من صفات النقص ولا يفعله إلا ضعيف الإرادة، ولذلك قال الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة   فإن فساد الرأي أن تترددا

وهو لا يجوز إطلاقه على الله.

وقد ذكر العلماء لهذا الحديث عدة معانٍ:

١ ـ قيل: المعنى أن العبد المؤمن يقرب من الهلاك بحادث أو بمصيبة فيكون القضاء أقرب إليه من شراك نعله، فيصرف الله عنه الموت ويعافيه. ففيه شبه تردد للإنسان.

٢ ـ أنه تردد بين الملك الذي سيقبض روحه وبين المؤمن، كما فعل موسى عندما أتاه ملك الموت ليقبض روحه فلطمه موسى حتى فقأ عينه.

فعاد ملك الموت إلى الله فرد عليه عينه فعاد فقبض روح موسى عليه السلام.

فهذا تردد بين الملك والمؤمن، وهذا الرأي ضعيف.

٣ ـ وقيل: إن لطف الله بالعبد في قبض روحه أُطْلق عليه التردد، فكأن هذا اللطف دليل على أن الله لا يريد قبض روح المؤمن.

٤ ـ وقيل: إن الله يحب لقاء العبد المؤمن ويعلم أنه يكره الموت ومشقته وسكراته.

فكأن فيه التقاء بين إرادة الحب وإرادة عدم مساءة العبد، فأطلق عليه تردداً.

وهو ليس بتردد فإن قضاء الله نافذ.

قال حافظ الحكمي:

ومـــن لـــقـــاء الله قـــد أحـــبـــا ... كـــان لـــه الله أشـــد حـــبـــا

وعـــكـــســـه الـــكـــاره فـــالله اســـأل ... رحـــمـــتـــه وفـــضـــلاً ولا تـــتـــكـــل

وهذا أقربها، وهو اختيار شيخ الإسلام.

والله أعلم بمراده.

ولكننا لا نطلق عليه سبحانه صفات النقص تنزيهاً له عنها.

أخيراً: في الحديث النهي عن أذية المؤمن الولي وتحذير الله من ذلك، وأن من فعل ذلك فكأنه قد أعلن المحاربة لله عز وجل.

وســـيـــغـــلـــبـــنّ مـــغـــالـــب الـــغـــلاّب

جعلني الله وإياكم من أوليائه المقربين.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



عناية الله بأوليائه

الحمد لله.. والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد.. سوف أعرض عليكم نماذج من عناية الله بأوليائه وحفظه لهم، فإنه الحافظ على كل شيء والوكيل، ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

﴿خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ [يُوسُف: ٦٤] قالها يعقوب عليه السلام لابنه الوليد الجميل يوسف حينما فقده، فمرة يقولون: أكله الذئب، ووالله ما أكله.. ومرة يقولون: ابتلعته الصحراء، ووالله ما ابتلعته.. ومرة يقولون: لقد ذهب هو غيظاً على إخوانه وعلى أبيه وما ذهب.. ولكن ذهب في رعاية الله ليمضي أمراً كان مفعولاً.

ورعاية الله أدركت العصابة المؤمنة التي خرجت من القصور الشاهقة إلى الكهف فحفظهم الله عزّ وجل ورعاهم.

• عناية الله بموسى عليه السلام:

ونموذجنا في الرعاية الآن هو موسى عليه السلام.. وإذا ذكرت موسى تتذكر الشجاعة والأمانة، وتتذكر القوة والعظمة، وتتذكر الفداء والتضحية.

رأى فرعون عليه لعنة الله في المنام أن شرارة انطلقت من بيت

المقدس وأخذت في اتجاهها إلى مصر فأحرقت قصور مصر، فخرج كئيباً ذات صباح وجمع السحرة والكهنة والمشعوذين والمنجمين وعرض عليهم رؤياه.. فقالوا بالإجماع: غلام من بني إسرائيل سوف يهدم مملكتك وينهي ملكك، فأصدر أمراً صارماً بقتل كل غلام يولد في هذه الفترة الحرجة ليحمي ملكه وليؤيد سلطانه.

وبالفعل ذهب جواسيسه وذهب جنوده يقتلون الأبرياء من الأبناء، ويقتلون الغلمان ممن ولد لبني إسرائيل، فأخذت الدماء تسيل وأخذت الأرواح تزهق والنفوس ترتفع إلى الله بالشكوى.

وفي هذه الفترة ولد موسى عليه السلام! يا الله.. أما تقدّم لحظة أو سنة عن هذا القرار الذي صدر من فرعون؟

يا الله.. من يحمي موسى الذي لا أب له، وإنما هي أمه المسكينة الوالهة الحزينة تحتضنه بلفائف من القماش لتعرضه للجلادين والجزارين؟

يا الله.. من يحمي هذا الطفل وقد قتل مئات الأطفال بل ألوف الأطفال من أمثاله؟ ولكن تتدخل عناية الله.. اسمعوا إلى القصة وإلى العرض وإلى الجمال والروعة في عرض القصة.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١-٤].

لقد علا وتجبر وما كان له أن يتكبر، وجعل أبناءها شيعاً يستضعف أهلها يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين، إلى أن قال سبحانه وتعالى بعدها بأربع آيات: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧].

سبحان الله! لم يقل لها فاحفظيه أو فامسكيه إذا خفت عليه، ولكن (فألقيه). والإنسان إذا خاف على شيء حفظه والتزمه ومسكه وخبأه، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد من موسى أن يحارب فرعون منذ البداية ومنذ النشأة، (فألقيه) لتتولاه رعاية الله، ودعيه لتتكفله عناية الله، وتخلي عنه فإن الله هو الحافظ عزّ وجل.

من الذي يحفظ الطيور وهي لا تملك ضراً ولا نفعاً؟ من الذي يشبعها؟ من الذي يؤويها؟ من الذي يحفظ السوارح في البوادي؟ من الذي يحفظ الوالهين والضائعين واليتامى؟ إنه هو الله عزّ وجل.

فألقته أمه تحت رعاية من الله وحراسة ووثقت بوعد الله.. ولو جاءها من غير الله ما وثقت أبداً، ولكن ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القَصَص: ٧] والوحي إنما هو يأتي من الله عزّ وجل لمن يشاء من عباده، فوثقت بهذا الوحي.

وانظروا إلى هذا المشهد: أم والهة حزينة تلقي طفلها في اليم!!

وسوف لا يغرق أبداً لأن من يحفظه الله لا يغرق، وسوف لا يضيع لأن من يحفظه الله لا يضيع، وسوف لا يهلك لأن من يحفظه الله لا يهلك أبداً.

وألقته في أسماله البالية على الماء، وأخذه نهر النيل الرقراق ليتجه به.. لكن إلى أين يتجه به؟ البساتين كثيرة في مصر والحدائق الغناء كثيرة في مصر، ولكن هناك حديقة واحدة، سوف يترك الحدائق التي مرّ بها ليدخلها.. لقد دخل حدائق فرعون!! واستقر على شاطىء قصره المنيف.

ويستبشر الحرس الظلمة الغشمة بهذا الطفل الوديع الذي رأوا أنه من بني إسرائيل، فأخذوه بلفائفه وقدموه لفرعون، فصدر أمر فرعون بقتله! لكن عناية الله تتدخل مرة ثانية لتحفظ هذا الغلام، ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ

إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصَص: ٧]. تأتي امرأة فرعون المؤمنة آسية فتقول: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القَصَص: ٩].

وانظر إلى الخطاب، وانظر إلى عناية الله، وانظر إلى الأسلوب، تقول لزوجها الظالم الغاشم: هذا قرة عين لي ولك.

وهذا غلام سوف نربيه ينفعنا إن شاء الله.

ووالله لقد نفعها موسى عليه السلام، نفعها في الدنيا بأن أسلمت على يديه، ونفعها في الآخرة بأن دخلت الجنة بإذن الله.. أليست هي التي قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التّحْريم: ١١].

فسمع فرعون لهذا الكلام منها وصدّقها وترك الطفل.

أراد الله سبحانه وتعالى أن يهيىء له العودة من جديد لأمه، فقد وعد الله أمه بأنه سيرده إليها.. فتأتي المرضعات ويقدّم الطفل إلى النساء فيأبى أن يرضع ويأبى أن يشرب الحليب ليوفي الله وعده عزّ وجل، وتتدخل أخت موسى عليه السلام، وعلى أنبياء ورسل الله جميعاً، فتقول: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ [طه: ٤٠] لكم؟ ويحفظه لكم، ويرعاه لكم، ويرضعه لكم، فيستبشرون ويعاد الطفل الوديع إلى أمه فتربيه وترضعه في حنان، وتأخذ على الإرضاع أجرة وكأنها ليست بأم له، ثم يعود بعد الإرضاع إلى قصر فرعون ليتربى في هذا القصر الظالم الغاشم.

قالوا: ولما درج وأصبح على وعي وعلى بصيرة.. لكنه لا زال صغيراً ضرب فرعون مرة من المرات ضرباً قوياً على جبهته! وهذا الكف إيذان بهدم ملكه وتبديد إمبراطوريته وإنهاء استعباده واستخدامه للعباد.

فغضب الكافر المارد وازداد غضبه وتميز غيظاً، ودعا بقتل هذا

الغلام، ومرة ثانية تتدخل امرأة فرعون رضي الله عنها وتقول: هذا لا يعقل شيئاً ولا يعي شيئاً، اعرض عليه تمرة أو جمرة فإن أخذ التمرة فقد وعى فاقتله، وإن أخذ الجمرة فهذا لا يدري بشيء فاتركه.

ففعل وعرض عليه جمرة وتمرة، ولكن عناية الله تحرسه وتحفظه بأساليب لا يدركها البشر، فامتدت يده عليه السلام إلى الجمرة فأخذها ووضعها على لسانه فلذع اللسان الرطب العذب الناطق بالحق.

فتركه وعفا عنه.. استمر هذا الشاب ينمو في هذا القصر تحت رعاية الله سبحانه وتعالى وحمايته.

وينزل من القصر ويترك القصر، لكن ما ندري ماذا حدث في تلك الفترة، لأن القرآن لا يتحدث إلا عن العبر والعظات في القصة، ينزل إلى الشارع ليعاشر الناس وليعيش مع الناس. ومرة من المرات يأتي حطاب إسرائيلي يعمل عند مصري.. فيأتي المصري بكبره وعنجهيته وتغطرسه.. لأن فرعون وراءه، فيضرب الإسرائيلي، فيستدعي الإسرائيلي موسى لينصره وينقذه من هذا الظالم، فيأتي موسى وهو القوي.. فيضربه ضربة قوية.. تصرعه على الأرض جثة هامدة!!

فلما علم فرعون قرّر قتله.

فيأتي رجل صالح إلى موسى ويقول: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القَصَص: ٢٠]، لقد دبروا لك الدسائس ودبروا لك الحيل ليغتالوك، فاخرج إني لك من الناصحين.. الفرار الفرار.. النجاة النجاة..

وموسى عليه السلام بعد أن قتل هذا الرجل أحس بالذنب، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ [الأعرَاف: ١٥١] فغفر له.

قال المفسرون: هذه بلاغة عجيبة ولطيفة حبيبة إلى النفوس ما

فصل الله بين الذنب والمغفرة. لأن الإنسان إذا تلطخ بالمعصية، وإذا توسخ بالخطيئة، وإذا أصبح في طينة من خبال الرذيلة، اتجه إلى الله سبحانه وتعالى فنظّفه، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥].

وخرج موسى.. ولكن إلى أين يتجه؟ المدينة قد أوصدت أبوابها، والحرس وقفوا على الطرق يبحثون عن موسى بن عمران الذي يطلبه فرعون.. لقد خرج في وقت قيلولة على غفلة من الناس.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝٢٢﴾ [القَصَص: ٢٢]. فوجهه الله سبحانه تعالى وهداه في الصحراء حتى وصل إلى وادٍ عظيم الماء وفيه أناس رعاة، فإذا الناس يسقون، وإذا ببنتين اثنتين تقفان وتذودان غنمهما عن الماء.. تريدان أن يفض الزحام وأن ينتهي هذا الفئام من الناس حتى تسقيا.

فجاء عليه السلام بعد أن رأى موقف هاتين البنتين، فأخذ الغنم بقوته وشجاعته وزاحم الرجال ودفعهم وهو من هو في قوته وصلابته، حتى سقى تلك الأغنام وأعادها للبنتين.. ولكن كان به من الجوع العظيم ما لا يعلمه إلا الله، وبه من الغربة ما لا يدركه إلا الله، وبه من المرض أيضاً، فقد أورد الإمام أحمد في كتاب الزهد عن موسى عليه السلام قال لما رجع إلى الماء: يا رب مريض غريب جائع فقير.

قال الله عزّ وجل: يا موسى! الفقير من لم أكن أنا مغنيه، والمريض من لم أكن طبيبه، والغريب من لم أكن أنا مؤنسه، والجائع من لم أكن أنا مشبعه.

فتولى إلى الظل فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَص: ٢٤]. وتتدخل عناية الله مرة ثانية، وتأتي إحدى البنتين وتخبر أباها بما حدث عند الماء، وتعود أدراجها لتطلب هذا الرجل

العظيم لتوفيه حقه من أبيها، فأتت وسلمت عليه وأخبرته بالخبر.. فمشى أمامها إلى بيت أبيها لكي لا يراها حتى وصل إلى هذا الرجل الصالح، فسلم عليه وقصَّ عليه القصص وأخبره بالأنباء المفجعة والحوادث الرهيبة والإرهاب الذي استعمله فرعون عليه لعنة الله، فقال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

لقد استقر قلبك وارتاح ضميرك، وأنت في ولاية الله وفي رعايته، لا تخف أبداً، نجوت من القوم الظالمين.

ثم بدأت بينهما معاهدة بأن يتزوج موسى عليه السلام إحدى ابنتي شعيب عليه السلام على أن يرعى له غنمه مدة من الوقت، فإن شاء عشر سنوات وإن شاء ثماني سنوات.

قال: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧]، يعني زيادة تفضل وكرم وعفو، ولا أريد أن أشق عليك، وستجدني إن شاء الله من الصالحين.

وفعلاً وفّى موسى عليه السلام بعشر سنوات.. يقول ابن عباس: وفّى أبرهما وأحسنهما وأكرمهما.

ولما انتهت العشر سنوات أخذ زوجته وأخذ غنمه وساقها وأعطاه الرجل الصالح عصا.. والعصا هذه سوف تقلب الدنيا ظهراً لبطن!!

وسوف يكون لها حديث في القرآن الكريم، وسوف يكون لها خبر مع فرعون، وسوف تصارع الطغاة والسحرة، وسوف تقف موقفاً وتتكلم بكلام، وسوف تتحدث بحديث.

فخرج وساق أغنامه وقطع تلك الفيافي.. وانظروا عناية الله سبحانه وتعالى، فإنه أعلم سبحانه وتعالى حيث يجعل رسالته.. يتوقف في ليلة من الليالي وقد أظلم عليه الليل، لا يجد نوراً ولا يجد شيئاً يقبس به لظلامه، فتلمع له نار في وادي طوى بجانب الطور، فيستأذن

من أهله في رقة ويقول: سوف آتيكم بقبس لعلكم تصطلون، ولما قرب من النار ـ ومن اللطائف أن عنده حذاءين قيل من جلد حمار ميت والله أعلم ـ قال له سبحانه وتعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢]، فالمكان مكان قداسة، والمقام مقام عبادة، والمقام مقام جلال وإكرام. فالنعلان لا يليقان أن تدخل بهما في هذا البساط القدسي، فخلعهما وتقدم، فسمع صوتاً ما عهده، صوت الله سبحانه وتعالى يكلم هذا العبد الذي وضعته أمه داخل الماء.. هذا الذي رعى الأغنام.. وهذا الذي أتى في الصحراء ضائعاً والهاً لا يحفظ شيئاً ولا عنده شيء.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]، ووقعت لا إله إلا الله في قلب موسى، وتحرك قلب موسى بلا إله إلا الله، واضطربت جوارحه وانهدّ كيانه، وتذكر من هو الله عزّ وجل ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]، انظر إلى السماء ترَ قدرة الله وترَ إبداع الله عزّ وجل، وانظر إلى الأرض تجد صنع الله عزّ وجل، انظر إلى كل شيء.. وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

ثم يقول له: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، فألقى العصا التي كان يرعى بها الغنم فإذا هي حية تسعى، فتركها وولّى مسرعاً هارباً لا يلوي على شيء!! يا الله! العصا التي كنت أضرب بها الأغنام تتحول إلى ثعبان؟ ما هذه الاضطرابات في هذه الليلة؟ ما هذه الأحداث الضخام في هذه الليلة؟ منْ أنا؟ أنا راعٍ كنت أرعى الأغنام.

فيعود النداء من الله عز وجل ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النّمل: ١٠]، فأقبل ووضع يده في لسان الحية فعادت عصاً تهتز في يده، فعادت سيرتها الأولى.

ثم قال له سبحانه وتعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢]، فأدخلها ثم أخرجها فإذا هي بيضاء تلمع للناظرين من غير سوء!

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤].

هل هذا صحيح؟ أكنت أرعى الغنم؟ أكنت أبحث عن سراج في هذه الظلمة؟ ثم أذهب إلى فرعون!

ومن يدخلني على فرعون؟ ومن يتركني أتجاوز إلى قصره وأدخل إلى بساطه، ثم أدخل إلى ديوانه لأتكلم معه؟ وأنا طريد قتلت رجلاً منهم ولو أمسكني جواسيسه لقطعوني إرباً إرباً.

فما كان رده إلا أن قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ [طه: ٢٥-٢٦]. فوالله إن الأمر صعب والمسؤولية جسيمة.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ [طه: ٢٧]، لأنه عليه السلام قد كوته الجمرة التي أخذها في صغره.. وأثرت في لسانه فأصبح لا يبين، حتى يقول فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢].

فأعطاه الله بياناً لكن ليس شافياً كبيان هارون الذي كان يجيد الكلام والخطبة.

ثم قال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾﴾ [طه: ٢٩-٣١]، وفي آية أخرى يقول: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤]، يعني هو أفصح مني لساناً وأوضح في الحجة والبيان.

ثم قال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [طه: ٣٣]، فالاثنان يسبحان أكثر من الواحد، لأن كل واحد يعين الآخر على الذكر، ولذلك وأنت مسافر فسافر برفيق، يقول ﷺ: «**الراكب شيطان**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٦٧٠٩)، وأبو داود برقم (٢٦٠٧)، والترمذي برقم (١٦٧٤)، ومالك في الموطأ برقم (١٨٣١)، والنسائي في الكبرى برقم (٨٧٥٦)، وانظر: المشكاة برقم (٣٩١٠).

وصل موسى إلى بساط فرعون واستأذن، ويقال: إن من اللطائف أنه جاء وعليه جبة من صوف فضرب الباب ـ أي باب القصر ـ بعصاه فخرج عليه الجنود.. وقالوا: ماذا تريد؟

قال: أريد أن أقابل فرعون وأدعوه إلى الله.

قالوا: هو الله.. ثم أخبروا فرعون فسمح له بالدخول وهو يظن أنه مجنون، ولذلك قال في المقابلة: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٧].

ثم قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٩].

قال: أو لو جئتك بشيء مبين؟

فأراه الآيات ـ العصا وبياض اليد ـ لكن الخبيث رفض أن يستجيب.. وجمع سحرته في يوم الجمعة ودعا أن يحشر الناس ضحى، ويخاف موسى عليه السلام.

فأوحى إليه الله سبحانه وتعالى: لا تخف، أنا قريب، أنا معك، أنا وراءك، فلا تخف.

وألقى السحرة حبالهم وكل ما في أيديهم، فإذا الحبال تسعى! وتتطاير في الجو!

فيقول له سبحانه وتعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ [طه: ٦٧-٦٨]، فأنت الأعلى سوف تعلم من ينتصر هذا اليوم ممن ينهزم؟ فألقى عصاه فأخذت تبتلع الحبال! وكبرت ما شاء الله واتجهت إلى منصة فرعون لتلتهمها كذلك، لكنه فزع وهرب!!

يقول الحسن البصري رحمه الله: كان فرعون طياشاً خفيفاً جباناً.

هــلا بــرزت إلــى غــزالــة فــي الــوغــى
أم كــان قــلــبــك فــي جــنــاحــي طــائــر
أســد عــلــيّ وفــي الــحــروب نــعــامــة
فــتــخــاء تــنــفــر مــن صــفــيــر الــصــافــر

نهاية القصة أن الله تولاه إلى آخر مرحلة وخرج فرعون يطارده من مصر واتجه إلى البحر.

فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ﴾ [البَقَرَة: ٦٠]، فانشق البحر نصفين!! وجاوزه موسى وقومه.

وأتى فرعون ليدخل ولكنه توجس خيفة، فعاد ببغلته بعيداً عن الماء، ولكن إرادة الله منعته من ذلك.

يقولون في الأحاديث الإسرائيلية أن عند جبريل بغلة وعند فرعون فرس، والفرس يرغب البغلة دائماً، فدخلت بغلة جبريل في الماء، فلما رآها فرس فرعون دخل فدخل الجنود!

وهذا خبر إسرائيلي لا يصدّق ولا يكذّب.

فلما انتصف في الماء أطبق عليه.

وانتصر رجل الموقف موسى عليه السلام.

خلاصة القصة: أن عناية الله عزّ وجل تدرك أحبابه وأولياءه في الدنيا وفي الآخرة.

• عنايته تعالى بمحمد ﷺ:

قرر كفار مكة اغتياله ﷺ، وأرسلوا شباباً معهم سيوف حادّة قاطعة، وشحنوها بالسمّ، وأخذ كل شاب معه هذا السيف يهزه، ووقف عند بابه ﷺ ينتظر متى يخرج؟

فيخبره الله بأن كفار قريش قد طوقوا البيت ونصبوا كميناً لاغتيالك فاخرج.

فأخذ حفنة من التراب وذرها على رؤوس هؤلاء الشباب، وخرج ﷺ إلى الغار فدخله، وخرج كفار مكة كأنهم مجانين.

خرجوا بالسيوف يطاردونه، فاجتمعوا على الغار الذي هو فيه ﷺ.

يا الله! من يحميه غير الله عز وجل؟

وأبو بكر معه يرتعد خوفاً عليه، فقال الرسول ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

ومن اللطائف يقولون: أتت الحمامة فبنت عشها عند الباب، وأتت العنكبوت فضربت بيتها على باب الغار.

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خير البرية لم تنسج ولم تحم

عناية الله أغنت عن مضاعفة
من الدروع وعن عالم من الأطم

وأتت المحاولة الثانية لاغتياله.

سراقة يهرع في الصحراء بفرسه وسيفه ليدرك الجائزة وليمسك محمداً ﷺ، ولكن كلمة خافتة من الرسول ﷺ أفشلت محاولته: «**اللهم اكفنا إياه بما شئت**»[1]، هكذا بلا تكلف وبلا محاضرة وبلا خطب.

فكفاه الله.. وغارت قوائم الفرس في الأرض حتى أسقط

---

(١) أخرج الحديث البخاري برقم (٣٦٥١، ٥٦٠٧)، ومسلم برقم (٢٠٠٩)، وأحمد برقم (٣) واللفظ له، وأيضاً أخرج هذا الدعاء بلفظه ابن حبان برقم (٦١٧٢، ٦٧٥٦)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٢٣٩٩، ٣٢٤٠١).

صاحبه، وانتصر محمد ﷺ بعد الاغتيالات وبعد المعاناة.

● **الله يؤيد أولياءه بالكرامات:**

ومن تأييد الله لأوليائه أن يؤيدهم بالمعجزات والكرامات. والمعجزات ـ بارك الله فيكم ـ التي أيد بها الله رسولنا ﷺ كثيرة جداً لا يحصيها إلا الأقلون.

يقف ﷺ أمام الناس ليتكلم إليهم، ثم يدعو بمنبر له صنع فيجعل المنبر بجانب الجذع الشجرة الذي كان يعتمد عليه.. فيتألم هذا الجذع الخشبي من فراق الحبيب المصطفى ﷺ. جذع لا ينطق ولا يتكلم ولا يأكل ولا ينفع ولا يضر.. لكنه يحن.. ولكنه يبكي على مرأى من الناس ومسمع.

يقول جابر: والله لقد سمعنا له صوتاً كصوت العشار (الناقة العشراء إذا فارقت ولدها في الصحراء).

فاقترب ﷺ على مرأى من الناس ومسمع ليسكن هذا الجذع ويضع يده الشريفة الطاهرة عليه ليقر ويسكن[1].

فالكرامات جمع كرامة، وقد أثبتها أهل السنة والجماعة وقالوا: إنها تتحقق إذا بلغ المؤمن رتبة من العبادة عالية لا يبلغها إلا السابقون، يقول تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فَاطِر: ٣٢].

والكرامة تأييد وتشجيع من الله سبحانه وتعالى للعبد المؤمن.

● **العلاء الحضرمي** أحد أصحاب محمد ﷺ، خرج بجيش

(١) أخرجه البخاري برقم (٩١٨، ٢٠٩٥، ٣٥٨٤، ٣٥٨٥)، وأحمد برقم (١٣٧٢٩، ١٤٠٥٩).

يقوده، ولما أصبح في الدهناء ضل الطريق، فذهب مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال.. ولكن دون جدوى. وأتاهم من الظمأ ما لا يعلمه إلا الله.

فقالوا: يا علاء، إن الله سبحانه وتعالى وعدنا خيراً في أمة محمدٍ فادع الله عزّ وجل لنا.

فتوجه إلى الله سبحانه وتعالى في كلمات مختصرة يقول: (يا حكيم، يا عظيم، يا عليم، يا حكيم، يا عليم، يا عظيم أغثنا).

قال الراوي: والله ما انتهى من كلامه إلا وجاءت سحابة فتوسطت الجيش وغطت سماء الجيش، ثم أرعدت وأمطرت حتى سقط المطر وشربوا وتوضؤوا، ثم ارتفعت!

• **أبو مسلم الخولاني** أحد التابعين، دخل ،على الأسود العنسي، فقال له الأسود العنسي ـ وقد ادَّعى النبوة ـ: أتؤمن بي؟

قال: لا أسمع شيئاً.

قال: تؤمن بمحمد ﷺ؟

قال: بأبي هو وأمي، نعم أؤمن به.

قال: والله لأقتلنّك قتلة ما قتلها أحد قبلي.

فجمع له حطباً وأشعلوا ناراً، ثم أتى الجنود فسحبوه بيديه كلتيهما، فلما قرب من النار قال كلمة إبراهيم عليه السلام (**حسبي الله ونعم الوكيل**)، فأصبحت النار برداً وسلاماً على أبي مسلم الخولاني.

فخرج رضي الله عنه وتوجه إلى المدينة، فسمع عمر بن الخطاب به، فعانقه طويلاً وذهب به إلى أبي بكر الصديق وأجلسه بينه وبين أبي

بكر، وقال عمر: الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام[١].

نماذج عظيمة في أمة محمد ﷺ كلها تثبت حفظ الله سبحانه وتعالى ورعايته وولايته لأوليائه.. ومن الذي يحفظ الإنسان إذا لم يحفظه الله عزّ وجل؟ ولذلك يقال عند النوم: اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك[٢].

وإذا استحفظت الله سبحانه وتعالى حفظك أبداً.

● أمور تحفظ الإنسان:

١ ـ الوضوء:

ولذلك يقول ﷺ: «**الوضوء سلاح المؤمن**»[٣]، فإذا توضأ الإنسان بإذن الله عصمه الله سبحانه وتعالى من الشكوك، ومن الشهوات، ومن الأرواح الخبيثة التي تخالطه، ومن العيون الغادرة الماكرة الحاسدة، ومن النقمات بإذن الله.

٢ ـ الأوراد والذكر:

وسوف أعرض عليك أوراداً، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيننا على الذكر بها دائماً صباحاً ومساءً وعند النوم، وهي:

---

(١) قد مر معنا تخريج قصة أبو مسلم رضي الله عنه ص: ٩٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٤٧، ٦٣١١، ٦٣١٣، ٦٣١٥)، ومسلم برقم (٢٧١٠).

(٣) هذا الحديث لم يثبت ولم أجده، وإنما الوارد «ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» أخرجه أحمد برقم (١٢٨٧٣، ٢١٩٠٨، ٢١٩٢٧، ٢١٩٣٠)، وابن ماجه برقم (٢٧٧)، والدارمي برقم (٦٥٥)، وانظر: مصباح الزجاجة برقم (١١٢)، والمشكاة برقم (٢٩٢).

آية الكرسي: وآية الكرسي لها حديث عجيب عند العابدين، ولها جلالة عجيبة عند الموحدين، لا يعرفها إلا من يداوم عليها، لذلك يقول ابن القيم: إني لأسأل الله عزّ وجل أن يمهل في عمري حتى أكتب مجلدات في تفسير وفي تخليد كنوز هذه الآية.. يعني آية الكرسي.. لكنه وافته المنية عليه رحمة الله قبل أن يكتب.

فآية الكرسي يقولها الإنسان فيبقى في رعاية الله.

وخواتيم سورة البقرة: يقول علي رضي الله عنه: عجبت لمسلم ينام ولا يقرأ خواتيم سورة البقرة.

والمعوذات: يقول ﷺ لأحد أصحابه: «**قل هو الله أحد، قل أعوذ برب الفلق.. قل أعوذ برب الناس، حين تصبح وحين تمسي ثلاث مرات تكفيك من كل شيء**»[١].

ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. في الصباح مائة مرة، وفي المساء مائة. ومن قالها فله أربعة أشياء من الله وعداً غير منقوص وغير مردود وغير منسي بإذن الله، هذا ثابت في صحيح البخاري.

تكتب له مائة حسنة وتكفَّر عنه مائة سيئة، وكانت له عدل عشر رقاب، وتكون له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت يوم القيامة أحد بمثل ما جاء به إلا رجل عمل بمثله أو زاد عليه[٢].

ومن أنفع الحروز كتاب الله عز وجل، ولا إله إلا الله! كيف يعيش الإنسان في هذه الحياة بلا قرآن؟ وكيف يستطيع أن يواصل يومه وليله بلا قرآن؟

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٨٢)، والترمذي برقم (٣٥٧٥)، والنسائي برقم (٥٤٢٨، ٥٤٢٩)، وانظر: المشكاة برقم (٢١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٢٩٣، ٦٤٠٣)، ومسلم برقم (٢٦٩١).

يقول الذهبي: يروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان مصحفه في البيت، فإذا دخل توضأ ونشر المصحف فقرأ فيه.

يقول نافع: لم يكن شغل ابن عمر في البيت إلا الوضوء والمصحف.

ومنها ما يفرح الإنسان ويشرح صدره إن استطاع أن يصلي ركعتين في آخر الليل ولو في دقائق قبل الأذان.

يقوم في تلك الساعة الهادئة حينما ينزل الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا ويسكن الناس وينام الناس، فلا كلمة ولا لغو، فيقول الله عزّ وجل: «**هل من داعٍ فأستجيب له، هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له**»[1]، رواه البخاري ومسلم.

فما ظنك لو سأل الله سبحانه وتعالى.

يقول الله: هل من مستغفر فأغفر له؟ وتقول: اللهم اغفر لي! هل من داع فأستجيب له؟ وتقول: اللهم أجب لي اللهم افتح علي! هذه من أعظم الفتوح، لكن لما سهرنا في أول الليل ضيعنا آخر الليل.

ومنها التزود بالنوافل، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: «**ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**»[2].

فالنوافل النوافل بارك الله فيكم.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم برقم (٧٥٨).

(٢) سبق تخريجه في أكثر من موضع.

فالله خير حافظاً

الحمد لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً، وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكوراً.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

صحّ عند الترمذي وأحمد[1]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ فقال: «**يا غلام، إني أعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**».

---

(١) الترمذي برقم (٢٥١٦)، وأحمد في مسنده برقم (٢٦٦٤، ٢٧٥٨، ٢٨٠٠)، وانظر: المشكاة برقم (٥٣٠٢).

زاد أحمد في مسنده: «**وإن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً**»(١).

فهذه وصية رسول الله ﷺ للأولين والآخرين.

قال بعض الصالحين: إذا أردت أن توصي صاحبك أو أخاك أو ابنك فقل له: **احفظ الله يحفظك**.

وقال أحد العلماء: تأملت في هذا الحديث، فكدت أدهش لما فيه من المعاني الجليلة.

ولذلك قال سليمان بن داود عليهما السلام: «تعلمنا مما تعلم الناس، ومما لم يتعلم الناس، فما وجدنا كحفظ الله في الغيب والشهادة».

وهذا المبحث لا يوجه لصنف من الناس، وإنما هو للملوك، وللأمراء، وللموظفين، وللأطباء، وللمهندسين، وللتجار، وللفلاحين، وللعسكريين، وللرجال، وللنساء.

دعها سماوية تجري على قدر   لا تفسدنها برأي منك منكوس

وقال له الآخر:

يا حافظ الآمال أنت حفظتني ورعيتني   وعدا الظلوم علي كي يجتاحني فنصرتني
فانقاد لي متخشعاً لما رآك منعتني

الله سبحانه وتعالى، خلق خلقه، وهو يحفظهم ويتولاَّهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

رأى رجل عصفوراً يطير من شجرة إلى شجرة، وبفمه لحمة

(١) أحمد برقم (٢٨٠٠).

ينقلها إلى أعلى نخلة، فصعد الرجل إلى أعلى النخلة، فوجد في أصل النخلة حية عمياء كبيرة السن، فكان إذا اقترب منها العصفور وشوش لها، ففتحت فاها وألقى فيها قطعة اللحم. حية رزقها يصلها إلى رأس النخلة، بعصفور وهي عمياء.

من الذي ذّل العصفور؟ إنه الواحد الأحد!! إنه رب العصفور!!

من الذي رزق الحية؟ إنه الحيّ القيوم، رب الحيّة.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هُود: ٦].

والله سبحانه وتعالى **يحفظ من حفظه** من عباده في حالات ومقامات متنوعة، لا يمكن لأحد حصرها أو عدها.

يحفظه في دينه، وذلك أغلى ما عند المسلم.

ويحفظه في دنياه، من كل سوء، ويسخر له مخلوقاته، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

وحفظ الله تعالى المرء في دينه، كثيراً ما يغيب عن الأذهان بالرغم من أهميته وخطورته.. فيحفظ الله قلبه من الشبهات والشكوك.. ويحميه من الشرك والنفاق.. ويحفظه من الحيرة والتردد، ومن كل مبدأ دخيل هدام.. والناس من حوله صرعى بلا هدف ولا وجهة.. وهو قد حفظه الله، فعرف درب الخير والفلاح.

ويحفظه عند ساعة الاحتضار، عند فراق هذه الدنيا، في تلك اللحظة الحرجة، التي يحرص الشيطان على اصطياد المرء فيها، ولكن المؤمن الصادق **يثبته الله بالقول الثابت.. ويحفظه ويسدده، ويوفقه لقول كلمة التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله**.

وكم من شخص ضيّع حدود الله.. وعند الموت خانه لسانه

فعجز عن التلفظ بالشهادة.. وندم وتحسر!! وأسف على ما قدم ولات ساعة مندم!! **لأنه لم يحفظ الله تعالى! فلم يحفظه سبحانه، فخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين؟!!**

حفظ الله لأوليائه في الدنيا:

أما حفظه تعالى لأوليائه، وعباده الصالحين في الدنيا، فله صور وأنواع متنوعة، وإليك أخي القارىء أمثلة على ذلك:

١ ـ الحفظ من مكر الأعداء:

دعا نبي الله إبراهيم عليه السلام قومه، فلما ضاقوا به ذرعاً أجمعوا أمرهم على إلقائه في النار، ووضعوا إبراهيم في المنجنيق، وأشعلوا له ناراً، وأوقدوها وقالوا: ألقوه في النار. فأتى جبريل في تلك اللحظة، إلى إبراهيم عليه السلام فقال: «**يا إبراهيم، هل لك إلي حاجة؟ قال: أما إليك فلا! وأمّا إلى الله فبلى**»[1].

وفي البخاري عن ابن عباس موقوفاً[2]، قال: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾»، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار. وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣].

ألقوا نبي الله إبراهيم في النار، وهو في الهواء، يقول: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**». وفي أثناء وقوعه قال الله للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبيَاء: ٦٩]، وخرج ونجّي من كيدهم.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤]، فمن الذي

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (الأنبياء: ٦٨)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢٩٤/٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٥٦٣).

يطفىء النار؟ إنه الله!! ومن الذي ينجي من اليم؟ إنه الله!! ومن الذي يكسر ويلين الحديد لأوليائه؟ إنه الله!! ومن الذي يصل الحبل بعبده؟ إنه الله.

كم نطلب الله في ضير يحلّ بنا فإن تولت بلايانا نسيناه
ندعوه في البحر أن ينجي سفينتنا فإن رجعنا إلى الشاطىء عصيناه
ونركب الجو في أمن وفي دعة فما سقطنا لأن الحافظ الله

٢ ـ الحفظ من كيد الطغاة والحكام:

موسى عليه السلام، أرسله الله سبحانه إلى فرعون الطاغية، فذهب إليه ليدعوه إلى الله سبحانه وتعالى، وقبل أن يدخل إلى إيوانه وديوانه يعرف أن الموت في الديوان، من الذي في الديوان؟ إنه فرعون الجبار!! السيوف!! الدماء!! الموت الأحمر!! فرعون الإرهابي!! الفتاك!! الدكتاتوري المجرم!!

قال موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طٰه: ٤٥]. فأتى كلام الذي هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طٰه: ٤٦]، وتكلم معه موسى بقوة، **وحفظه الله تعالى.**

واتفق موسى وفرعون على تحديد يوم الزينة، موعداً بين موسى والسحرة، واجتمع الناس، وحضر موسى عليه السلام. وجاء السحرة، فقال لهم موسى: ألقوا، فألقوا حبالهم وعصيهم، وصار يخيّل للناظر إليها أنها تسعى!! فأوجس موسى في نفسه خيفة، فأتاه كلام الذي هو خير **حافظاً**، وهو أرحم الراحمين. ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طٰه: ٦٨]، **أنت مع الله.**

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل

عِمرَان: ١٣٩]. لا تهنوا فعقيدتكم أعلى، فأنتم تسجدون لله وحده، وهم يسجدون لشيء من خلقه، أو لبعض من خلقه، ومنهجكم أعلى، فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله، ودوركم أعلى.. ومكانكم في الأرض أعلى[1].

يقول طاووس بن كيسان ـ وهو من تلاميذ ابن عباس الأخيار الأطهار، وهو من رواة البخاري ومسلم: «دخلت الحرم لأعتمر، قال: فلما أديت العمرة جلست عند المقام بعد أن صليت ركعتين، فالتفت إلى الناس وإلى البيت، فإذا بجلبة الناس والسلاح.. والسيوف.. والدرق.. والحراب.. فالتفتّ فإذا هو الحجاج بن يوسف، وهو الأمير السفاك، تقول فيه ليلى الأخيلية:

حجاج أنت الذي ما فوقه أحد   إلا الخليفة والمستغفر الصمد

قتل مائة نفس، وقتل سعيد بن جبير.

قال الحجاج: رأيت في المنام أن الله قتلني بكل نفس قتلها مرة، إلا سعيد بن جبير، فإن الله قتلني على الصراط به سبعين مرة!!

يقول طاووس: فرأيت الحراب فجلست مكاني، وبينما أنا جالس، وإذا برجل من أهل اليمن، فقير زاهد عابد، أقبل فطاف بالبيت؛ ثم جاء ليصلي ركعتين، فتعلّق ثوبه بحربة من حراب جنود الحجاج، فوقعت الحربة على الحجاج، فاستوقفه الحجاج، وقال له: من أنت؟ قال: مسلم، قال: من أين أنت؟ قال: من اليمن، قال: كيف أخي عندكم؟ [يعني أخاه الظالم مثله، اسمه محمد بن يوسف]، قال الرجل: تركته سميناً بديناً بطيناً، قال الحجاج: ما سألتك عن صحته لكن عن عدله؟ قال: تركته غشوماً ظلوماً، قال: أما تدري أنه أخي؟ قال الرجل: فمن أنت؟ قال: أنا الحجاج بن يوسف، قال:

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤٨٠/١) بتصرف.

أتظن أنه يعتز بك أكثر من اعتزازي بالله؟ قال طاووس: فما بقيت في رأسي شعرة إلا قامت، قال: فأفلته الحجاج وتركه.

لماذا؟ لأنه توكل على الله، ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

لما فتح عبدالله بن علي العباسي[١] **دمشق،** قتل في ساعة واحدة ستة وثلاثين ألفاً من المسلمين، وأدخل بغاله وخيوله في المسجد الأموي الجامع الكبير، ثم جلس للناس وقال للوزراء: هل يعارضني أحد؟ قالوا: لا، قال: هل ترون أحداً سوف يعترض علي؟ قالوا: إن كان فالأوزاعي ـ والأوزاعي محدِّث فحل، أمير المؤمنين في الحديث، أبو عمرو، كان زاهداً عابداً، من رواة البخاري ومسلم.

قال: تعالوا به، فذهب الجنود للأوزاعي فما تحرك من مكانه، قالوا: يريدك عبدالله بن علي، قال: **«حسبنا الله ونعم الوكيل»**، انتظروني قليلاً، فذهب فاغتسل، ولبس أكفانه تحت الثياب؛ لأنه يعرف أن المسألة موت أحمر، وقتل.. ودماء. ثم قال لنفسه: الآن آن لك يا أوزاعي أن تقول كلمة الحق، لا تخشى في الله لومة لائم، فدخل على هذا السلطان الجبار، قال الأوزاعي وهو يصف القصة: فدخلت فإذا أساطين من الجنود صفان، قد سلوا السيوف، فدخلت من تحت السيوف؛ حتى بلغت إليه، وقد جلس على سرير، وبيده خيزران ، وقد انعقدت في جبينه عقدة من الغضب، قال: فلما رأيته، **والله الذي لا إله إلا هو، كأنه أمامي ذباب.. «حسبنا الله ونعم الوكيل»**.

قال: فما تذكرت أحداً لا أهلاً، ولا مالاً، ولا زوجة، وإنما تذكرت عرش الرحمن، إذا برز للناس يوم الحساب، قال: فرفع بصره

---

(١) هو ملك من الملوك، أمره عجيب وخبره غريب، عم أبي جعفر المنصور ما كان يبتسم أبداً، حرسه ما يقارب ثلاثين ألفاً.

وبه غضب عليّ ما الله به عليم، قال: يا أوزاعي، ما تقول في الدماء التي أرقناها، وأهرقناها. قال الأوزاعي: حدّثنا فلان... قال: حدثنا ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[(١)].

فإن كان من قتلتهم من هؤلاء فقد أصبت، وإن لم يكونوا منهم فدماؤهم في عنقك، قال: فنكث بالخيزران ورفعت عمامتي أنتظر السيف، ورأيت الوزراء يستجمعون ثيابهم، ويرفعونها عن الدم.

قال: وما رأيك في الأموال؟ قال الأوزاعي: إن كانت حلالاً فحساب، وإن كانت حراماً فعقاب!!

قال: خذ هذه البدرة ـ كيس مملوء من الذهب ـ قال الأوزاعي: لا أريد المال. قال: فغمزني أحد الوزراء، يعني خذها، لأنه يريد أدنى علة ليقتل، قال: فأخذ الكيس ووزعه على الجنود، حتى بقي الكيس فارغاً، فرمى به وخرج، فلما خرج قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» قلناها يوم دخلنا، وقلناها يوم خرجنا، ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤].

يقول أحد الصالحين لابنه: ألا أدلك على القوة التي لا تغلب؟ قال: بلى، قال: **توكل على الله!!**

دخل المهدي الخليفة العباسي مسجد رسول الله ﷺ، وفي المسجد أكثر من خمسمائة رجل من طلبة الحديث، أهل العمائم والمحابر والأقلام، وفيهم مالك بن أنس، فقام الناس جميعاً إلا ابن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٨٧٨)، ومسلم برقم (٢٦٧٦)، وأحمد برقم (٣٦١٤، ٤٠٥٥).

أبي ذئب، أحد العلماء، من رواة البخاري ومسلم، فقال المهدي: يا ابن أبي ذئب، قام الناس لي جميعاً إلا أنت، قال: والله الذي لا إله إلا هو، لقد أردت أن أقوم لك، فلما تهيأت للقيام تذكرت قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: ٦]، فتركت هذا القيام لذلك اليوم، قال: اجلس، والله ما بقيت في رأسي شعرة إلا قامت.

والإمام الزهري، المحدث الكبير، دخل على هشام بن عبدالملك الخليفة الأموي، فقال هشام للعلماء وكانوا حوله: من الذي تولى كبره؟ يعني في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النُّور: ١١]، في حادثة الإفك.

وكان هشام يدّعي أن الذي تولى كبره هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال هشام لسليمان بن يسار: من الذي تولى كبره؟ قال: عبدالله بن أبّي، قال: كذبت هو علي بن أبي طالب، فقال سليمان: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، ثم قال للآخر: من الذي تولى كبره؟ فأجابه وكذبه، ثم وصل الدور إلى محمد بن مسلم بن شهاب (الزهري)، فقال هشام: من الذي تولى كبره؟ قال: عبدالله بن أبي بن سلول، قال: كذبت، قال: أنا أكذب لا أبا لك! والله لو نادى منادٍ من السماء أنّ الكذب حلال ما كذبت، والله الذي لا إله إلا هو، لقد حدثني سعيد وعروة وعبيد وعلقمة بن وقاص عن عائشة: أن الذي تولى كبره هو عبدالله بن أبي بن سلول، فارتعد الخليفة وقال: هيجناك سامحنا.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

٣ ـ النصر على الأعداء:

إنّ منْ حفظ الله تعالى لعبده المؤمن الصالح، أن يحفظه من عدوه وينصره عليهم.

وقد ورد في ترجمة خالد، وكلكم يعرف خالداً، فمن الذي لا يعرف أبا سليمان؟ من الذي لا يعرف سيف الله المسلول، الذي سلّه على المشركين؟

التقى بالروم وظن خالد أنّ عدد الروم يتناسب مع جيشه الذي كان عدده اثنين وثلاثين ألفاً، وجيش الروم كان عدده مائتين وثمانين ألفاً، وفي الصباح ومع طلوع الشمس أقبلت كتائب الروم تتهدر، السيوف تلمع مع الشمس، تنزل الكتيبة ألوفاً، وبعدها كتيبة، وبعدها كتيبة، حتى امتلأت الأرض والجبال والسهول، أين يلتجيء خالد؟ إلى هيئة الأمم، إلى مجلس الأمن!! بل إلى الله الواحد الأحد، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفَال: ١٧].

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

وقبيل المعركة قال أحد المسلمين لخالد: يا خالد! ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فدمعت عينا خالد، وقال: إلى الله الملتجأ، قل ما أكثر المسلمين، وأقل الروم!! لوددت أن الأشقر، «يعني خيله» برؤ من مرضه، وأن الروم أضعفوا العدد.

ثم جرد سيفه وجرد المسلمون سيوفهم، والتقى الجمعان، وما أتت ثلاثة أيام إلا وقد أوقع الروم في كربة، وفي سحق ومحق لا يعلمه إلا الله، وانتصر عليهم!! وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

قتيبة بن مسلم، القائد البطل، حاصر كابل وطوقها، ولما اقتربت ساعة الصفر، وسلت السيوف، وتنزّل النصر من الله، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٠]، قال قتيبة: التمسوا لي محمد بن واسع الأزدي، أحد الصالحين الأخيار، أين هو؟ فذهبوا فوجدوه قد صلى الضحى، وركز رمحه واعتمد عليه، وهو يدعو الله بالنصر: يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، نصرك الذي وعدتنا.

فجاء الخبر إلى قتيبة، فبكى يرحمه الله وقال: والله الذي لا إله إلا هو، إن أصبع محمد بن واسع خير عندي من مائة ألف سيف شهير، ومن مائة ألف شاب طرير.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

٤ ـ حفظه للأولاد:

ومن حفظ الله تعالى لعبده، أن يحفظ ذريته ويتولاهم سبحانه، سواء في حياته أم بعد مماته.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤]. قالها يعقوب عليه السلام، لما ضاع منه يوسف، وتذكر يعقوب أن الذئاب سوف تأكل يوسف؛ فقال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

وتذّكر أن الفرقة حلت بينه وبين ابنه الحبيب، فقال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

ثم تذكر أن فلذة كبده، قد لا يراه منذ فقده، فقال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

قال الحسن البصري: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحبّ إلى الله من يعقوب.

فرد الله يوسف إلى أبيه يعقوب، عليهما السلام، بعد تلك المدة الطويلة، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

وفي خبر موسى والخضر، أنهما أتيا أهل قرية، فاستطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه الخضر، ثم بيّن الخضر لموسى سبب فعله ذلك، بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ

﴿لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ [الكهف: ٨٢].

فصلاح أبي اليتيمين، كان سبباً لحفظ الله تعالى لذريته بعد موته. ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

عمر بن عبدالعزيز يرحمه الله تعالى، الخليفة الأموي الراشد، لما حضرته الوفاة، لم يكن عند أولاده من المال شيء. فهو خليفة أنفق المال في سبيل الله، فجمع أولاده وهم سبعة ذكور، وسبع إناث، فقال لهم وقد دمعت عيناه: إني ما خلّفت لكم مالاً، إنما خلّفت لكم الواحد الأحد، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦]. إن كنتم طائعين سوف يحفظكم الله، وإن كنتم عصاة فلا أعينكم على معصية الله، وهذا اجتهاد منه ورأي له يرحمه الله، ثم مات بعد ذلك، فحفظ الله أولاده من بعده، حتى قال العلماء: وكان أبناؤه من أغنى الأغنياء في الناس.

٥ ـ حفظه للجوارح:

ومن صور حفظ الله تعالى لمن حفظ الله أن يحفظ جوارحه.

وها هي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها، ذات النطاقين، زوج الزبير بن العوام ووالدة عبدالله بن الزبير، وهي ممّن أسلم قديماً بمكة وكانت حافظة لله فحفظها الله تعالى.

يقول عروة بن الزبير، بلغت أسماء مائة سنة لم يسقط لها سن ولم ينكر لها عقل(١).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم (٦٣٩٢)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٢١٠٣)، والإصابة (ترجمة أسماء برقم ١٠٧٩٩).

وها هو المحبّ الطبري، أحد علماء الإسلام، أتى إلى السفينة فركبها، فلما اقتربت من الشاطىء، وهو في السبعين من عمره أراد أن ينزل إلى الشاطىء، فقفز، فأراد الشباب وهم معه أن يقفزوا، فما استطاعوا، فقالوا له: كيف استطعت وأنت شيخ، وما استطعنا ونحن شباب؟ قال: هذه أعضاء حفظناها في الصغر، فحفظها الله لنا في الكبر.

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

العين يحفظها الله إذا حفظت الله، والسمع يحفظه الله يوم تحفظ الله، واليد والقدم، وسائر الأعضاء، يحفظها الله عندما تحفظ الله.

٦ ـ تسخير الدواب والسباع والحفظ من شرها:

البهائم والسباع والدواب، يسخّرها الله تعالى لأوليائه الصالحين، الحافظين لحدوده، الممتثلين لأوامره، والمنزجرين عن نواهيه، ويحفظهم سبحانه، ويقيهم من شرها وخطرها.

اتجه عقبة بن نافع الفهري رحمه الله إلى إفريقية، حين بعثه معاوية رضي الله عنه فافتتحها، واختط مدينة القيروان، وكان موضعها إذ ذاك غابة مليئة بالأشجار، وفيها من السباع والحيات والحشرات، ما لا يمكن لبشر أن يدخلها، فضلاً عن أن يسكنها!! فقام عقبة، ودعا الله تعالى ولجأ إليه، فجعلت تلك الدواب تخرج منها بأولادها من الأوكار، والجحور، فبنى المدينة بعد ذلك.

يقول محمد إقبال:

بمعابد الإفرنج كان أذاننا ... قبل الكتائب يفتح الأمصارا

لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها ... سجداتنا والأرض تقذف نارا

كنا نقدم للسيوف رؤوسنا ... لم نخش يوماً غاشماً جبارا

لقد حفظ عقبة ربه في رخائه، فحفظه الله في مختلف أحواله، ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

كان صلة بن أشيم في خراسان، يغزو مع قتيبة، وكان هذا الرجل من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر في صلاة، وفي عبادة وفي بكاء.

وكان قتيبة بن مسلم، يقول: الحمد لله الذي جعل في جيشي مثلك يا صلة.

كان إذا قام يصلي الليل يأخذ بردة بألف دينار ويطيبها، ويقول: **اللهم إنك جميل، تحبّ الجمال**، ما لبستها إلا لك، فيلبسها في الليل، فإذا أتى النهار خلعها، فإن الله تعالى جميل يحب الجمال.

خرج من الجيش بعد أن نام الناس، ودخل الغابة، وقام يصلي ويبكي، وهو في الجبهة، في سبيل الله، قريباً من كابل التي ضيعناها يوم ضيعنا لا إله إلا الله[1].

بنفسي تلك الأرض ما أحسن الرُّبىٰ ... وما أحسن المصطاف والمرتعا

قام يصلي فأتاه أسد فدار عليه، وهو يصلي، فما تحول ولا تحرك ولا اضطرب، فلما انتهى من ركعتين التفت إلى الأسد، وقال له: يا حيدرة يا ليث! إن كنت أمرت بقتلي وأكلي فاقتلني وكلني، فإنه ليس معي سلاح إلا حماية الله تعالى، وإن كنت ما أمرت بقتلي ولم تسلط عليّ فاذهب واتركني أصلي. فقام الأسد فلوى ذنبه وذهب، كأنه جرو الكلب!!

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

قال أحد علماء المسلمين:

---

(١) وقد عادت ولله الحمد. ولكن بقي أن تتحد صفوف المجاهدين وأن يلتقوا على منهج واضح سليم من الانحرافات ليكتمل النصر [الناشر].

لما أطعنا الله سخر لنا الوحوش، ولما عصيناه سلط علينا الفئران!!

ولذلك يقول أحد أدباء المسلمين، لما رأى إسرائيل هاجمت بلاد المسلمين، وأخذت القدس، والروس أخذت أفغانستان، يوم ضيعنا الله:

أيا عمر الفاروق هل لك عودة	فإن جيوش الروم تنهى وتأمر
رفاقك في الأغوار شدوا سيوفهم	وجيشك في حطين صلوا وكبّروا
تغني بك الدنيا كأنك طارق	على بركات الله يرسو ويبحر
نساء فلسطين تكحلن بالأسى	وفي بيت لحم قاصرات وقصر
وليمون يافا يابس في أصوله	وهل شجر في قبضة الظلم يثمر

ويروى عن أحد الصالحين، وهو مالك بن دينار، أنه قال: نمْت في حديقة فاستيقظت من نومي وأنا في الحديقة، وإذا بحيّة أخذت زهرة في فمها، وهي تزيل الذباب والبعوض عن وجهي، سبحان الله من الذي علمها؟ من الذي دلها؟ من الذي سخّرها لهذا العبد الصالح؟ إنه الواحد الأحد!!

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

٧ ـ تسخير الجمادات:

ومن حفظ الله تعالى لعباده الصالحين، أن يسخر لخدمتهم حتى الجمادات، التي لا تبصر ولا تسمع، ولا تعقل.

روى البخاري رحمه الله تعالى في باب الكفالة: عن أبي هريرة رضي الله عنه «عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل، سأل آخرَ أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمّى. فخرج في البحر فقضى

حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يقدم عليها للأجل الذي أجّله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: «اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك. وسألني شهيداً فقلت كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها». فرمى بها في البحر، حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة؛ فانصرف بالألف الدينار راشداً»[1].

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

نتائج عدم حفظ الله تعالى:

إن من لم يحفظ الله تعالى فإن الله تعالى، لا يحفظه، ومن لم يحفظه الله، فإن مرده في الدنيا سوء المعاش، وفقدان السعادة، وفي الآخرة مصيره إلى نار جهنم، ما دامت السماوات والأرض، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٢٩١)، وأحمد برقم (٨٣٨١).

والتاريخ مليء بالشواهد:

فها هو فرعون يملك مصر، والأنهار تجري في بلاده، والثمار والخيرات تتدفق من مصر، لكنه لم يحفظ الله تعالى، فلم يحفظه الله سبحانه وتعالى، فأغرقه وقومه في اليم وهو مليم. ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدّخان: ٢٥-٢٩].

وها هو قارون، يؤتيه الله من المال ما لا يخطر على بال، لكنه لم يحفظ الله، ولم يستمع لنصح الناصحين، بل قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القَصَص: ٧٨]، واستكبر وعاند، فكانت عاقبته أن خسف الله به وبداره الأرض، فخسر الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

وفي عهد العباسيين، كان هناك وزراء في عهد الرشيد، يدعون بالبرامكة، أعطاهم الله المال، الذهب، والفضة، طلوا قصورهم بكل لون من الألوان، حتى قال بعض المؤرخين:

كانوا يطلون قصورهم بماء الذهب.

لكن ضيعوا أوامر الله، ففي داخل قصورهم معصية: **غناء.. خمر.. مجون.. ضياع.. تضييع للصلاة؛** فأخذهم علام الغيوب، الذي يمهل ولا يهمل، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فسبحانه ما أقدره، ولا إله إلا الله ما أعظمه، ولا إله إلا الله ما أجلّه.

هؤلاء الوزراء أخذوا في غداة واحدة، سلط الله عليهم أحب الناس إليهم، هارون الرشيد، كان صديقاً لهم، كان أخاً لهم، فغضب عليهم ضحى، فأخذ شبابهم فقتلهم بالسيف قبل الظهر، وأخذ أشياخهم فأودعهم في السجن، وأخذ أبناءهم فجعلهم في المستعمرات تحت

الأرض، وأخذ النساء فأوصد عليهن في الغرف.. **بكاء هناك.. وبكاء هنا.. ودمع هنا.. ودمع هناك.**

قيل لأحدهم ـ هو: يحيى بن خالد البرمكي ـ: ما الذي أنزلكم في هذا المنزل، في الظلام بعد هذه النعم؟ بعد الذهب؟ بعد الحرير؟ بعد الديباج؟ قال وهو يبكي: دعوة مظلوم، سرت في ظلام الليل، غفلنا عنها، ولم يغفل الله عنها!!

قيل لعلي بن الحسين رضي الله عنهما: كم بين العرش والتراب؟ قال: **دعوة مستجابة.**

لم يجب بالأميال، ولا بالكيلومترات، ولا بالقياسات وإنما قال: دعوة مستجابة، يرفعها الله فوق الغمام، حتى تصل إليه، ثم يقول سبحانه: وعزتي وجلالي، لأنصرنّك ولو بعد حين.

وقد صح عنه ﷺ، أنه قال لمعاذ: «**اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[1].

أخذ الرشيد البرامكة، فبقي أبوهم الشيخ الكبير في السجن، سبع سنين حتى طالت أظافره، وطال شاربه، ما وجد مقراضاً يقلم أظافره، ما وجد مقصاً يأخذ من شاربه، وما وجد سواكاً، كان يتوضأ ويبكي في مكانه، كان يقضي حاجته في مكانه، في زنزانته، بعد ذلك النعيم، بعد الحرير، بعد الديباج.

باتوا على قلل الجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستُنزلوا بعد عزّ من منازلهم إلى مقابرهم يا بئس ما نزلوا

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧)، ومسلم برقم (١٩).

من الذي يصرف الأمور إلا الله؟! من الذي بيده المقاليد إلا الواحد الأحد؟! سبحانه يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء.

القاهر أحد الخلفاء العباسيين قال: أكتنز للدهر وأحفظ المال للأيام السوداء، فجفر بركاً في الأرض وملأها ذهباً وفضة! ولم يعتمد على الله، وقال لأبنائه: يا أبنائي، لا تخشوا الفقر، ملأت لكم في هذه الحفر ما لو وزع على أهل بغداد لكان كل بغدادي تاجراً.

فماذا فعل به لما خالف أمر الله وفرط؟ أخذ من خلافته، وخلع عنها، وسملت عيناه، ثم أخذت أملاكه، وصودرت إلى الخليفة من بعده، وأصبح يقوم في الجامع الكبير ببغداد، ويقول: من مال الله يا عباد الله.

قالوا: فانظروا إليه يوم ضيع الله، كيف ضيعه الله!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧].

كيف يحفظ العبد ربه؟

علّق النبي ﷺ حفظ الله لعبده، بحفظ المرء لله، بقوله: «**احفظ الله يحفظك**»[(١)]. فمن الذي يحفظ الله ليحفظه الله؟ لأن الله سبحانه يقول: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾ [ق: ٣٢]. ومعنى الأواب: الرّجاع إلى الله، كثير التوبة والندم والاستغفار، كثير العبادة، كثير الإنابة.

ومعنى الحفيظ: الذي يحفظ حدود الله تعالى.

---

(١) كما مر معنا في الحديث وسبق تخريجه ص: ١٣٣.

وحفظ الله تعالى باختصار، يكون بتقوى الله سبحانه.

تقوى الله: أداء ما أمر، واجتناب ما نهى، وتصديق ما أخبر.

تقوى الله: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية.

تقوى الله: أن يكون أخوف ما تخاف منه هو الله، لأن كل شيء إذا اقتربت منه أمنته إلا الله، إذا اقتربت منه خفته، يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨].

قال أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تعريف التقوى: هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضى بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

ومن علامات التقوى:

١ ـ المحافظة على الصلوات:

لقد سمّى الله سبحانه، المواظبة على الصلاة وأدائها حفظاً، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المعَارج: ٣٤].

فمن حفظ الصلاة في أوقاتها وخشوعها وخضوعها وجماعتها، حفظه الله يوم يضيع الناس، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العَنكبوت: ٤٥].

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو مطعون، في سكرات الموت، وعيناه تهراق بالدموع يقول: **الله الله في الصلاة، لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة**[1]، من حفظ الصلاة حفظه الله، ومن ضيع الصلاة ضيعه الله.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ برقم (٨٤)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٢٨٥٦).

وكان رضي الله عنه يكتب لرؤساء الأقاليم والأمراء: **عليكم بالصلاة** إنها أول الإسلام، وآخر ما تفقدون من دينكم.

والله سبحانه يقول: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٣٨].

واعلم أخي المسلم، أنك لا تحافظ على الصلاة إلا بثلاث طرق:

١ ـ **أداؤها في وقتها**: فلو أخرتها إلى أن يخرج الوقت ما قبلها الله إلا بعذر، وتلف ويرمى بها وجه صاحبها، وتقول: ضيعك الله كما ضيعتني!!

وأوّل ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فمن حفظها حفظه الله يوم تضيع الأفهام، وتضل العقول، وتندهش الأفكار.

يقول الرسول ﷺ لابن مسعود رضي الله عنهما لما سأل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»[١].

٢ ـ **أداؤها في جماعة**: فلا صلاة إلا في جماعة إلا من عذر، يوم ينادى بها في المساجد، يوم يقول لك المؤذن: حي على الصلاة.. حيّ على الفلاح، فتقوم من فراشك، وتذهب للمسجد، ليحفظك علام الغيوب.

٣ ـ **أداؤها بخشوع وخضوع**: وذلك بأن تعيش مع الإمام، وهو يقرأ عليك، وتستمع لهذا القرآن العجيب، والنبأ العظيم، الذي طرق الدنيا، ولتعلم أن مواقف الناس في الآخرة، وفي العرصات كمواقفهم في الصلاة، ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢٧، ٢٧٨٢، ٥٩٧٠)، ومسلم برقم (٨٥)، وأحمد برقم (٣٨٨٠، ٣٩٦٣، ٤١٧٥).

٢ ـ حفظ الجوارح:

وإن من حفظ العبد لله أن يحفظ المرء جوارحه عن معاصي الله سبحانه؛ وأن يذللها لطاعته، وإليك ـ أخي القارىء ـ بعض التفصيل في هذه المسألة، لأهميتها وخطورتها، من خلال النقاط الآتية:

أولاً: حفظ العبد لقلبه:

من حفظ الله تعالى، حفظ العبد لقلبه من الشبهات والشهوات. فهذه المضغة إذا ضاعت، ضاع منك كل شيء، قطعة اللحم هذه هي القلب، يقول الرسول ﷺ موضحاً ومبيناً أهمية هذا القلب: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[1]!!

القلب إذا أصلحته بالذكر والطاعة، صلحت اليد والعين والسمع، والرجل والبطن والفرج.

إن كل الناس خاسر يوم القيامة، ولن يغني عن أحد مال أو أولاد أو زوجة إلا من أتى الله ومعه قلب سليم. ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨، ٨٩].

قالوا: القلب السليم، الذي لم تدخله شهوة أو شبهة.

وقالوا: هو القلب الذي ليس فيه إلا الله.

وقالوا: هو الذي امتلأ بلا إله إلا الله، محمد رسول الله.

إنه القلب الذي سلم من أمراض الشبهات وأمراض الشهوات، سلم من الشك والشرك.. سلم من الرياء والنفاق.. سلم من الكبر والعجب.. سلم من الحقد والحسد.. سلم من كل داء، وامتلأ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢)، ومسلم برقم (١٥٩٩)، وأحمد برقم (٢٧٦٣٨).

بتوحيد الله تعالى وتعظيمه، امتلأ بالإخلاص والصدق، امتلأ بالتوكل والاعتماد على الله.. امتلأ بالخوف من الله.. كقلب إبراهيم عليه السلام، الذي يقول عنه ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصَّافات: ٨٣، ٨٤]، ويقول الله سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

من يسجد لله يهد قلبه.. من يأت إلى المسجد يهد قلبه.. من يرفع يديه يهد قلبه، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: ٦٩].

والله لا يجعلك وأنت تأتي إلى الدروس والمحاضرات والخير والذكر كمن أعرض وجلس في مقاهي اللغو والزور والفاحشة، ومع الغناء الماجن، ومع كل قول وفعل رخيص، لا والله، ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القَلَم: ٣٥، ٣٦].

أما الذي إذا سمع الهدى أعرض عنه ونأى وابتعد، فإنه على خطر عظيم، ألا يهديه الله أبداً، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

إن على المؤمن أن يسلم قلبه لله سبحانه، ليهديه سواء السبيل، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]. وكل الناس لهم قلوب، ولكن المقصود القلب الفقيه المبصر، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرّعد: ١٩].

ولذلك لام الله سبحانه وتعالى قوماً ما استفادوا من جوارحهم، فقال فيهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فلينتبه المسلم لقلبه وليراقبه، وليحذر من أمراضه، فإن للقلب أدواء خفية، قلما يتنبه لها المرء أو يسلم منها، وليعلم أن الأعمال الصالحة إنما تعظم بقدر ما قام بالقلب من تعظيم الله تعالى، ومحبته.

ورب رجلين عملا عملاً متماثلاً وبينهما من الأجر كما بين السماء والأرض، والسبب ما قام في قلب كل منهما: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

ثانياً: حفظ العبد لسانه:

من حفظ العبد لربه أن يحفظ لسانه، واللسان هذا أمره عجيب، وخبره غريب، فإن جُلَّ السيئات والذنوب والمعاصي من الألسنة.

فلا إله إلا الله كم هتك من عرض! ولا إله إلا الله كم أوقع من معصية!

ولا إله إلا الله كم لطّخ من سمعة! وكم هدم من بيت!

يقول الرسول ﷺ في حديث معاذ الشهير: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه؟**» قال: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه وقال: «**كف عليك هذا**»، قال: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمّك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»[(١)].

والله سبحانه، يقول في مدح أوليائه الصالحين ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ٣]. واللغو: كل ما لا ينفع في الآخرة، أو كل ما يضر في الآخرة!!

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١٥١١، ٢١٥٥٨، ٢١٥٦٣)، والترمذي برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه برقم (٣٩٧٣)، وانظر: المشكاة برقم (٢٩).

ويقول سبحانه، في مدح أوليائه الصالحين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النِّساء: ٧١-٧٣].

ويقول رسول الهدى محمد ﷺ: «**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**»[1].

والعجيب أن الإنسان يحرص كثيراً على حفظ جوارحه، ويشعر بمرارة الذنب الذي ارتكبه بتلك الجارحة، ما عدا اللسان، فقلما يحترس المرء من خطره، ويتجنب سقطه رغم خطورته.

فكم انطلق اللسان في المعاصي؟ وكم سجل الملكان من الكلام السيء القبيح، في كتاب سوف يراه صاحبه ويقرؤه؟ ويتندم يوم لا ينفع الندم ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

وكم من كلمة قالها صاحبها مستخفاً بها وقد هوت به في نار جهنم سبعين خريفاً؟! وكم من كلمة خير قالها صاحبها، لا يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله بها رضوانه أبداً؟!

كم ينطلق اللسان في الغيبة والنميمة؟! أو الاستهزاء والسخرية، أو الكذب والخداع؟! أو اللغو والجدال؟!!

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله ما شيء أحق بطول حبس من اللسان.

احذر لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٨٠٧، ٦٤٧٤)، وأحمد برقم (٢٢٣١٦)، والترمذي برقم (٢٤٠٨).

كم في المقابر من صريع لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

منْ حفْظ المرء للسانه، أن يوجهه لكل ما يخدم هذا الدين، والذبّ عن حياضه.

فها هو حسان بن ثابت رضي الله عنه كان يحفظ الله تعالى بشعره وبقصائده، فحفظه الله.

كان يمدح الدعوة، ويمدح الرسول ﷺ، وقد قال في سب مشركي قريش:

زعمت سخينة[1] أن ستغلب ربها فليُغلبن مغالب الغلاّب

وكان الرسول ﷺ يقرّبه ويرفعه على المنبر، ويقول له: «**اهجهم** ـ أو قال: **هاجهم ـ وجبريل معك**»[2].

فكان رضي الله عنه يهجوهم ويقول:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشرُّكما لخيركما الفداء

قال الزهري: أفخر بيت قالته العرب، بيت حسان في بدر:

ويوم بدر إذ يصد وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد

فتحت قيادتنا المسلحة جبريل عليه السلام، ومحمد، فكيف تغالبوننا؟!

---

(١) سخينة: مسبة لقريش؛ لأن قريشاً تحب هذه الأكلة ـ وهي نوع من الحساء ـ فالعرب إذا سبت قريشاً قالت: سخينة.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٢١٣، ٤١٢٤، ٦١٥٣)، ومسلم برقم (٢٤٨٦)، وأحمد برقم (١٨٠٥٥، ١٨١٧٦، ١٨٢١٤).

فهو قائد الشعراء إلى الجنة، لأنه حفظ الله تعالى.

أتى عبدالله بن رواحة رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله:

فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

ثم باع نفسه كما يقول ابن القيم يوم العقبة، «**والبيعان بالخيار ما لم يتفرقا!**»[1] فإن تفرقا فقد وجب البيع!

ذهب إلى مؤتة، فلما أتت ساعة الصفر نزل إلى الأبطال، وخلع درعه، وأخذ سيفه، وقال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب النّاس وشدوا الرنّة ما لي أراك تكرهين الجنة
هل أنت إلا نطفة في شنة؟

يقول له الصحابة لما ودّعوه بالمدينة: يا ابن رواحة بالسلامة والعافية، قال: لا.

ودع الرسول ﷺ وبكى، ولما التفت إلى المدينة وهو على فرسه:

خلف السلام على امرىء ودعته في النخل خير مودع وخليل

ترك زوجته وأطفاله، وأصحابه من الصحابة، وما التفت إلى رجل سوى رسول الله ﷺ.

ولما قالوا له: نراك على خير، قال: لا..

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وطعنة ذات فرع تقذف الزبدا

---

(١) كما ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري برقم (٢٠٧٩، ٢٠٨٢، ٢١٠٨)، ومسلم برقم (١٥٣٢).

حتى يقال إذا مروا على جدثي يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

قتل هناك ابن رواحة، وذهبت روحه إلى الجنة.

فكان الصحابة إذا مروا بقبره، يسلمون عليه، ثم يقولون: يا أرشد الله من غاز وقد رشدا[١].

وهو القائل في مدح الرسول ﷺ:

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر

هكذا كانت ألسنتهم في ذكر الجنة، والجهاد والذّبّ عن دين الله تعالى.

وفي المقابل امرؤ القيس حامل لواء الشعر إلى النار[٢]، ضيّع شبابه في المعصية، فضيعه الله!! ما عرف إلا النساء والخمر فضاع.

ابن هانىء الأندلسي أحد الفجرة دخل على خليفة فقال:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فعلّمه الله من الواحد القهار؟ وأعطاه درساً حتى لا ينسى من الواحد القهار؟!

خرج من القصر فأصيب بمرض. فكان يعوي كالكلب على فراشه، ويقول: أنت الواحد القهار، وأخذ يبكي ويقول:

أبعين مفتقر إليك نظرت لي فأهنتني وقذفتني من خالق

لست الملوم أنا الملوم لأنني علقت آمالي بغير الخالق

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ترجمة عبدالله برقم ١٣٦٨)، والبداية والنهاية (غزوة مؤتة ٢٤١/٤ وما بعدها).

(٢) وذلك كما ورد في الحديث الذي أخرجه أحمد برقم (٧٠٨٧)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (٤٧١، ١٣٢٩٩)، وكنز العمال برقم (٣٤٤٤٥ ـ ٣٤٤٤٩).

والقروي أحد الشعراء المنحرفين اللبنانيين الفجرة، نزل في دمشق فحملوه على الأكتاف، وصفقوا له فقال:

هبوا لي ديناً يجعل العرْب أمة وسيروا بجثماني على دين برهم
أيا مرحباً كفراً يوحد بيننا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأهانه فمات في حمام، وما علم به إلا بعد أيام، وقد أصبح جيفة كالكلب، ليعْلمه الله أنه الواحد الأحد.

وإيليا أبو ماضي.. الشاعر الفاسد يقول:

جئت لا أعلم من أين؟ ولكنني أتيت ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت لست أدري لست أدري

قلنا له: لا دريت ولا تليت، وتوليت وعصيت، وأذنبت وأخطأت وتعاليت.

وقد أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، فمات في أسوأ حال.

ثالثاً: حفظ العبد سمعه:

منْ حفظ العبد لربه أن يحفظه في سمعه، فيوجِّه سمعه إلى ما ينفعه، ويفيده في أخراه ودنياه.

يستمع لكتاب الله تعالى.. يستمع للمحاضرات.. يستمع للمواعظ.. يستمع لأخبار وأحوال المسلمين، أينما كانوا.

المؤمن لا يستمع إلى ما حرّم الله، فلا يستمع إلى الغيبة والنميمة.. أذنه بعيدة عن الأغاني.. بعيدة عن المعازف.. بعيدة عن كل معصية وذنب.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. المسلم يعلم أن السمع نعمة عظيمة، وأنه مسؤول عنها، فحاله كما

ذكر الله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفُرقان: ٧٢]. قال بعض المفسرين: لا يسمعون الكلام الباطل الزور، وقيل: لا يؤدون شهادة الزور.

فالسامع الذمّ شريك له ومطعم المأكول للآكل

رابعاً: حفظ العبد بصره:

البصر كم جنى على القلب من ويلات..؟ وكم جنى من مصائب..؟

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

العين إذا انطلقت إلى الحرام، فهي سهم من سهام إبليس، ومن غضّ طرفه عن الحرام، أبدله الله إيماناً يجد حلاوته في صدره، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النُّور: ٣٠].

العين إذا شردت فإنما هي سهم يقع في القلب.

وأنا الذي جلب المنية طرفه فمن المطالب والقتيل القاتل

قال أحد الصالحين: كم من نظرة أودت في حفرة، وكم من عين أدخلت في نار، وكم من التفاتة أعقبت ندماً يوم القيامة، نعوذ بالله من ذلك.

إن على المؤمن أن يوجه بصره للنظر في ملكوت السموات والأرض، والتفكر بما فيهما من الآيات العظيمة: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يُونس: ١٠١]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغَاشِيَة: ١٧-٢٠].

وإن على المؤمن أن يصرف بصره عن المحرمات، عن النساء.. عن الصور الخليعة.. وليحذر كل الحذر، فرب نظرة أودت بصاحبها، ورب نظرة أعقبها حزن وحسرة.

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد ما دام ذا طرف يقلبه في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضرّ مهجته لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

كم نظرة جلبت من الهموم والأحزان أثقالاً؟! وكم نظرة أسرت قلب صاحبها؟ وكان يحسب أن فيها سعادته والتفريج عما في نفسه.

يا رامياً بسهام اللحظ مجتهداً أنت القتيل بما ترمي فلا تصب
يا باعث الطرف يرتاد الشفاء له احبس رسولك لا يأتيك بالعطب

فإذا حفظ المسلم بصره ولم يصرفه إلى الحرام، بل وجهه لطاعة مولاه وخالقه، فإن الله سبحانه يحفظه ويتولاه. وكفى بحفظه وتوليه نعمة وعطية: فالله خير حافظاً، وهو أرحم الراحمين.

خامساً: حفظ العبد بطنه:

ما يلزم المسلم حفظه، أن يحفظ بطنه عن المطعم الحرام، فلا يأكل إلا مما أباحه الله سبحانه.

فيتخلى عن كل مصدر للمال محرم كالربا والغش، وبيع أو تأجير ما حرم الله، ولا يأكل إلا مما أباحه الله سبحانه، ويطيب مأكله ومشربه، ليجيب الله دعوته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس؛ إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا

تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟!»[1].

ثم إن على المؤمن أن يحفظ بقية أعضائه بلا استثناء، فيحفظ فرجه عما لا يحل له، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾﴾ [المؤمنون: ٥]﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون: ٦].

وعليه أن يحفظ قدمه فلا يمشي بها إلى ما حرم الله سبحانه، بل يجعلها تسير إلى طاعة الله.. إلى المساجد.. إلى حلق العلم.. إلى المحاضرات.. إلى صلة أرحامه.. إلى زيارة إخوانه في الله.. إلى كل خير وفلاح.

وعلى المؤمن أن يحفظ يديه فلا يستعملهما إلا فيما أباحه الله.

وليحذر أن تكون يداه وسيلة لمعصية مولاه، ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]، ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت: ١٩، ٢٠].

وإذا حفظ المؤمن أعضاءه وجوارحه، وسخرها لطاعة الله، فإن الله يحفظه، وهو أرحم الراحمين.

وبعد يا عبد الله:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠١٥)، وأحمد برقم (٨١٤٨)، والترمذي برقم (٢٩٨٩).

يا من تريد أن يحفظك الله.. **احفظ الله**.

يا من تريد سعادة الدارين.. **احفظ الله**.

يا من تريد النجاة من الأخطار.. **احفظ الله**.

ها قد عرفت كيف تحفظ الله عز وجل بتقواه وطاعته.

وكيف تحفظ جوارحك جميعها، فلا ترتكب بها ما حرم الله بل سخرها في طاعة الله.

ويبقى العمل بعد ذلك: احفظ الله ـ بما علمت ـ يحفظك الله من كل سوء ومكروه، ولا تنس الله عز وجل، فينساك، فتخسر الدنيا والآخرة، نعوذ بالله من ذلك.

أخي الكريم: لا أملك في الختام إلا أن أوصيك بوصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما فأقول: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله.**

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[١].

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) أخرجه أحمد برقم (٢٦٦٤، ٢٧٥٨، ٢٨٠٠)، والترمذي برقم (٢٥١٦)، وانظر: المشكاة برقم (٥٣٠٢).

مقامات السائرين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

إن أشرف المقامات أيها الإخوة الأبرار هي مقامات العبودية لله بأن تكون عبداً لله، هذا هو شرفك في الدنيا والآخرة، ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ في أشرف المواطن بأشرف الأوسمة والألقاب والصفات، فسماه ووصفه بالعبد في الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وسماه بالعبودية في مقام التنزيل فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]، وسماه في مقام الدعوة والتبليغ والتبشير والإنذار فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ [الجن: ١٩].

فشرفك في الحياة أن تكون عبداً لله.

ومما زادني شرفاً وفخراً — وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي — وأن صيّرت أحمد لي نبيا

أي أن تكون داخلاً مع عبادالرحمن تحت هذه الياء، ياء النداء (يا عبادي).

لا تـدعـنـي إلا بـيـا عـبـدي فـإنـهـا أشـرف أسـمـائـي

فالقوة كل القوة في عبودية الله، والعزة كل العزة في عبوديته سبحانه وتعالى، لأنه السند والركن، وهو سبحانه وتعالى المرتجى والقوة التي لا تغلب ولا تهزم.

فالزم يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركانُ

روى ابن كثير عن طاووس بن كيسان العابد العالم الكبير الزاهد الخطير النحرير قال: دخلت الحرم فصليت ركعتين عند المقام، وإذا بالحجاج بن يوسف الثقفي قد قدم ومعه حرسه عليهم السلاح، فسمعت جلبة ورائي، فالتفت فإذا بالحجاج وحرسه يصلون عند المقام، وبينما الحجاج يسلّم من ركعتيه فإذا بأعرابي جاء من اليمن فمر من أمام الحجاج فخطف ثوبه حربة عند الحجاج وأوقعها بجانبه.

فأخذ الحجاج بثوب هذا اليمني الأعرابي وسأله: ممن أنت؟

قال: أنا من أهل اليمن.

فقال: كيف أخي محمد؟ أخو الحجاج محمد بن يوسف، ظالم غاشم كان والياً على اليمن.

قال: تركته سميناً بطيناً.

قال: ليس عن صحته أسألك، لكن أسألك عن عدله.

قال: تركته غشوماً ظلوماً.

قال: أما تعرف أني أنا الحجاج وهو أخي، ألا تخاف مني؟

قال الأعرابي: أتظن أنه يعتز بانتسابه إليك أعز من انتسابي إلى الله؟

قال طاووس: فما بقيت شعرة في رأسي إلا قامت.

إنها عبودية الانتساب إلى الله سبحانه وتعالى.

إنها قوة المؤمن يوم لا يكون له والٍ إلا الله، ولا سند إلا هو سبحانه وتعالى.

ولذلك ذكر الذهبي في ترجمة ابن أبي ذئب المحدِّث، أن المهدي الخليفة العباسي دخل المسجد النبوي والناس جلوس وطلبة العلم في حلقاتهم، فلما رأوا الخليفة قاموا جميعاً إلاّ ابن أبي ذئب لم يقم من مكانه.

فقال المهدي للعالم ابن أبي ذئب: أما عرفتني، لم لم تقم لي؟

فقال ابن أبي ذئب: والله لقد هممت أن أقوم لك فتذكرت قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: ٦]، فتركت القيام لذاك اليوم!

هؤلاء أناس عرفوا مقام العبودية.

ومن أعظم مقامات العبودية عبودية الخوف من الله سبحانه وتعالى، وقد أثنى الله على الخائفين ومدح المخْبتين، وذكر سبحانه وتعالى المنيبين إليه بأحسن الصفات وأجلِّ القربات والطاعات، ولذلك يقول عز من قائل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦]، ويقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النَّازعَات: ٤٠، ٤١].

ولذلك يقول بعض أهل العلم: كل شيء تقرب منه تأمن منه إلا الله، فكلما اقتربت منه خفت منه.

أما يقول عز من قائل عن العلماء المخلصين: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨]، فذكرهم بالخشية والخوف لقربهم منه تبارك وتعالى.

ولذلك كان أكثر الناس خوفاً وإخباتاً ووجلاً وخشية رسول الله ﷺ.

يقول ابن مسعود أحد تلاميذ رسول الله ﷺ الأبرار، وأحد خريجي تلك المدرسة التي ما عرفت البشرية مدرسة مثلها، مدرسة حياة الإنسان وصنع الأجيال ورقيّ القلوب وقيادة الأرواح إلى بارئها سبحانه وتعالى.

لأننا أيها الإخوة الأخيار قبل مبعث الرسول ﷺ كنا أمواتاً. فما كان عندنا حياة ولا حضارة ولا معرفة ولا رقي ولا تقدم، ولو دجل الدجالون وكذب الكذابون من القوميين وأذنابهم، فليس عندنا حضارة ولا رقي ولا ثقافة إلا بدعوته ﷺ.

ويوم جاء، تلك الفترة، بدأ تاريخنا، ولذلك يقول عز من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: ٢].

فبدأنا الحياة يوم أتى ﷺ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعَام: ١٢٢]، أو من كان ميتاً في جهله وفي معصيته وفي شهوته وشبهته كمن أحياه الله بالإيمان؟ لا سواء.

والشاهد في مقام الخوف أن الرسول ﷺ يقول لابن مسعود، هذا التلميذ البار الحبيب النجيب، الذي كان قوة متفجرة في تهذيب الأمة، كان هزيلاً في جسمه ضعيفاً في بنيته ضحلاً في هيكله، لكنه قوي في إيمانه، لأن ديننا لا يعترف بالأجسام إنما يعترف بالقلوب والأرواح، فلما أتى ﷺ جعل من هذه القلوب مادة قوية توجه الناس وترشد الحائرين.

يقول أهل السير عن ابن مسعود: كان ضئيل البنية، إذا وقف بجانب الرجل الجالس يوازيه قياماً.

صعد مرة من المرات شجرة فأخذت الريح تهز هذه الشجرة وهو على أغصانها، فتضاحك الناس.

فقال ﷺ: «**أتعجبون من دقة ساقيه؟! والذي نفسي بيده إنها في الميزان يوم القيامة أثقل من جبل أحد**»[١]، بالإيمان وباليقين وبالاتصال بالله.

قال له ﷺ: «**اقرأ علي القرآن**».

قال: يا رسول الله، أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟ يا للأدب! يا للحياء! يا للخجل من أهل الفضل!

فقال ﷺ: «**اقرأ علي القرآن فإني أحب أن أسمعه من غيري**»، فاندفع رضي الله عنه وأرضاه يقرأ من سورة النساء والرسول ﷺ يستمع.

فلما بلغ قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، أخذ ﷺ يبكي وعيناه تذرفان ويقول: «**حسبك الآن**»[٢]، حسبك فقد بلغت، وحسبك فقد أثرت، وحسبك فقد وصل الكلام مكانه ومستقره.

هذا وهو رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأتم الله عليه نعمته ظاهرة وباطنة، لكنه ما اغتر وما انخدع، وما زاده ذلك إلا عبادة وخوفاً.

كان يقوم ﷺ في الليل يستمع إلى الصحابة وهم يقرؤون القرآن.

عبَّاد ليل إذا جن الظلام بهم كم عابد دمعه في الخد أجراه

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٣٩٨١)، وابن حبان برقم (٦٩٥٥)، وأبو يعلى في مسنده برقم (٥٣١٣، ٥٣٦٨)، وابن سعد في الطبقات (٣/١١٠)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٥٥٦٢، ١٥٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٥٨٢، ٥٠٤٩، ٥٠٥٠)، ومسلم برقم (٨٠٠).

وأسد غابٍ إذا نادى الجهاد بهم هبوا إلى الموت يستجدون رؤياه

فاستمع ﷺ لأبي موسى وهو يقرأ بصوته الشجي الندي ذي الصدى العجيب.

وفي الصباح قال له ﷺ: «**يا أبا موسى لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»(١).

فيقول أبو موسى رضي الله عنه وأرضاه: أإنك كنت تستمع إليّ يا رسول الله؟

قال: «**إي والذي نفسي بيده**».

قال: والله لو كنت أعلم أنك تستمع إليّ لحبرته لك تحبيراً(٢)، أي حسنته وزينته وجملته بالصوت الحسن.

فكان ﷺ يحب أن يسمع القرآن لأنه يذكره بالخوف والخشية من الله تبارك وتعالى.

وفي تفسير ابن أبي حاتم بسند حسن، قال أبو هريرة: ذهب ﷺ ذات ليلة بعد أن أظلم الليل، فمر بسكة من سكك المدينة، وإذا بعجوز تقرأ القرآن، فوضع ﷺ رأسه على الباب وأخذ يستمع إليها. عجوز مسنة كبيرة طاعنة في السن، لكن قلبها شاب وقلبها حي مع الله.

فأخذت تردد: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية: ١]، وهي لا تدري أن الرسول ﷺ يستمع إليها.

فأخذ يبكي ويقول: «**نعم أتاني، نعم أتاني**».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠٤٨)، ومسلم برقم (٧٩٣)، والترمذي برقم (٣٨٥٥).

(٢) أخرجه ابن حبان برقم (٧٠٨٣)، والبيهقي في السنن برقم (٤٧٤٩، ٢١٥٢٠)، والحاكم برقم (٦٠١٩)، وأبو يعلى برقم (٧٢٨٠)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٥٩٤٢).

لقد عرف السلف الصالح مقام الخوف فجعلوه من أعظم المقامات الموصلة لله.

ولذلك لام الله عز وجل، ومقت الله البشرية جمعاء إلا بقايا من أهل الكتاب على عدم خوفهم من الله.

وفي كتاب «الزهد» للإمام أحمد بسند جيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تبارك وتعالى: عجباً لك يا ابن آدم، خلقتك وتعبد غيري، ورزقتك وتشكر سواي، أتحبب إليك بالنعم وأنا غني عنك وتتبغض إليّ بالمعاصي وأنت فقير إليّ، خيري إليك نازل وشرك إليّ صاعد**»[1]. وهذه صفة العبد إذا تمرد وفجر على الله، وخرج على حدود الله، وترك رقابة الله.

ولذلك فالرقابة هي أولى درجات الخوف.

قد أثر عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: والله ما نظرت إلى عورتي حياء من ربي، ولا اغتسلت واقفاً حياءً من الله عز وجل.

كأن رقيباً منك يرعى جوانحي وآخر يرعى مسمعي وجناني

ولذلك يقول الأندلسي لابنه وهو يوصيه بتقوى الله:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحيِ من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

ولو أننا جميعنا قلنا: إن الذي خلق الظلام يرانا، ما عصينا وما تمردنا على الله، وما انتهكنا حدود الله، وما فجرنا، لكن الرقابة قلّت في كثير من القلوب والنفوس.

---

(١) انظر: فيض القدير (٤/٤٩٤)، وكنز العمال برقم (٤٣١٧٤).

يقول ثعلب الأديب كما في بعض التواريخ: دخلت على الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فقال: من أنت؟

قلت: أديب أحفظ شيئاً من الشعر.

قال: هات أسمعني.

قال: قلت: يقول أبو نواس:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل طرفة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

قال: فترك كتبه ومحبرته وقام وأغلق على نفسه الحجرة، ثم والله لقد سمعته يبكي ويردد البيت:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولذلك يقول الإمام أحمد في كتاب الزهد أيضاً بسند حسن: أثر عن أبي بكر الصديق الخليفة الزاهد العابد المجاهد، الذي وصفه ﷺ وأفاض عليه أحسن الأوسمة، أوسمة التبجيل والتقدير والتوقير، شيخ الإسلام والمجاهد يوم الردة، والمتولي في الساعات الحرجة رضي الله عنه وأرضاه، قال الإمام أحمد: أثر عنه أنه دخل مزرعة رجلٍ من الأنصار فأخذ يتلفت في النخيل، فإذا بطائر يطير من شجرة إلى شجرة، فجلس رضي الله عنه وأرضاه يبكي ويقول: طوبى لك يا طائر ترعى الشجر وترد الماء ثم تموت فلا حساب ولا عذاب، ثم بكى، فبكى الصحابة.

فهي رقابة لله عزّ وجل، هذا وهو مشهود له بالجنة، بل قال له ﷺ كما في كتاب البخاري: **«من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة، يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة»**.

فيقول أبو بكر بهمته العالية وتشوقه إلى رحمة الله: يا رسول الله أيدعى أحد من تلك الأبواب جميعاً؟

فيقول ﷺ: «**إي والذي نفسي بيده، وأرجو أن تكون منهم**»[1].

هذه هي الهمم العالية.

ألا لا أحب السير إلا مصاعداً ولا البرق إلا أن يكون يمانيا

لأن أهل الدنيا اهتماماتهم دنيوية: مناصب، ووظائف، وصدارة، وظهور، وأموال.

وأما المؤمن فهمَّته متعلقة برضى الرب سبحانه وتعالى.

أبو بكر الصديق حضرته الوفاة ـ كما في سيرته ـ، فأتته ابنته عائشة المطهرة المبرأة من فوق سبع سموات فقالت: يا أبتاه صدق الأول الذي يقول:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فالتفت إليها كالمغضب وقال: يا بنية، لا تقولي ذلك ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ [ق: ١٩، ٢٠].

فلما توفي وهو خليفة كان ذهب الأمة تحت يديه، فما وجدوا في ميراثه إلا بغلاً وناقة وثوبين، فاستلمها عمر إلى بيت المال وبكى عمر وقال: أتعبت الخلفاء بعدك يا أبا بكر.

وروى ابن القيم في كتاب «روضة المحبين ونزهة المشتاقين»، أن عمر رضي الله عنه كان يتفقد أبا بكر بعد صلاة الفجر، فكان يراه إذا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٨٩٧، ٣٦٦٦)، ومسلم برقم (١٠٢٧).

صلى الفجر يخرج من المسجد إلى ضاحية من ضواحي المدينة كل يوم، فيتساءل ما له يخرج؟

ثم تبعه مرة من المرات فأتى فإذا هو قد دخل خيمة منزوية هناك، فلما خرج أبو بكر دخل بعده عمر، فإذا في الخيمة عجوز حسيرة كسيرة عمياء معها طفلات لها، فقال لها عمر: يا أمة الله من أنت؟

قالت: أنا عجوز كسيرة عمياء في هذه الخيمة، مات أبونا ومعي بنات لا عائل لنا إلا الله سبحانه وتعالى.

قال: ومن هذا الشيخ الذي يأتيكم؟ وهي لم تعرفه.

قالت: هذا شيخ لا أعرفه يأتي كل يوم فيكنس بيتنا ويصنع لنا فطورنا ويحلب لنا شياهنا.

فبكى عمر وقال: أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر.

إي والله، لقد أتعب كل خليفة من بعده إلى قيام الساعة بهذه العبادة والاتصال بالله.

يقف عمر يوم الجمعة وبطنه عام الرمادة يقرقر من الجوع فيقول: قرقر أو لا تقرقر، والله لا أشبع حتى يشبع أطفال المسلمين.

يقف يوم الجمعة وبردته مرقعة عليها أربع عشرة رقعة، وكسرى وقيصر يهتزان خوفاً منه.

يا من ترى عمراً تكسوه بردته ... والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقاً ... من خوفه وملوك الروم تخشاه

لما خفنا الله خافت منا الأمم، وخاف منا الفجرة، وخاف منا المردة.

فلما لم نخف من الله خوفنا الله منهم سبحانه وتعالى.

لقد حاربنا الأمم بلا إله إلا الله ولم نحاربهم بغيرها، فلذلك انتصرنا عليهم ولم نخف منهم، لأننا جعلنا خوفنا محصوراً في الله تبارك وتعالى.

دخل ربعي بن عامر على رستم في القادسية، ورستم في وزارته وفي إمارته الذهب والفضة والإكليل والديباج والحرير وزخرف الدنيا.

فدخل ربعي وعليه ثياب ممزقة وفرس هزيل ورمح مثلّم، لكنه يخاف الله، لكنه يرجو رحمة الله، لكنه يتصل بالله.

فيضحك رستم.. يضحك من هذه الهيئة ويقول: جئتم تفتحون الدنيا بهذا الرمح المثلّم، وبهذه الثياب الممزقة، وبهذا الفرس المعقور.

فيقول: إي والله، إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع ... اسمك فوق هامات النجوم منارا
كنا جبالاً في الجبال وربما ... صرنا على موج البحار بحارا
بمعابد الإفرنج كان أذاننا ... قبل الكتائب يفتح الأمصارا

كنا نكبر فتهتز لنا قصور الأعداء، ولذلك من خوف سعد بن أبي وقاص لله ـ كما يروي الذهبي وابن كثير ـ أنه لما رأى قصر كسرى أنوشروان، كسرى الضلالة، وكسرى العمالة، وكسرى البطالة، وكسرى الصد عن الله.

لما رآه سعد بعد القادسية قال: الله أكبر.. فانصدع الإيوان.

فقال سعد ودموعه تهراق من فرحة النصر:

طفح السرور عليّ حتى أنني ... من عظم ما قد سرّني أبكاني

قال سعد: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩].

كان الصحابة أقربهم إلى الله أخوفهم منه سبحانه وتعالى.

ولذلك كان ابن عباس رضي الله عنهما إذا قرأ قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزُّمَر: ٩]، بكى وقال: ذلك عثمان بن عفان الذي من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً.

حتى يقول حسان رضي الله عنه وأرضاه وهو يتعجب من قتل عثمان محيي الليل، الشهيد العظيم يقول:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به ... يقطع الليل قرآناً وتسبيحا

ولذلك روى المروزي وذكره ابن حجر في الفتح في كتاب الوتر من الصحيح بسند صحيح: أن عثمان رضي الله عنه قام ليلة من الليالي بركعة واحدة من بعد صلاة العشاء إلى صلاة الفجر قرأ في هذه الركعة القرآن كاملاً.

فيا أمة الرسالة، نحن بحاجة إلى أن نراجع عبوديتنا مع الله، وأن نحاسب أنفسنا أين نحن من ذلك الجيل؟

أين نحن من ذلك الطراز الرفيع الذي ما عرفت الإنسانية ولا طرق البشرية مثلهم رضوان الله عليهم؟

هذا خوفهم مع أعمالهم الصالحة لله عز وجل، ونحن ماذا قدمنا؟ وماذا فعلنا؟

يقف ﷺ ـ كما تعلمون ـ قبل معركة تبوك على المنبر فيقول

للمسلمين وهم في المسجد: «**من يجهز جيش العسرة وله الجنة؟**»[(١)].

فيسكت الناس لأن التكاليف باهظة، ولا يجهز الجيش إلا رجل يريد الله والدار الآخرة.

فيقول رسول الله ثانية: «**من يجهز جيش العسرة وله الجنة**»، فيسكتون.

فيقول ثالثة: «**من يجهز جيش العسرة وأضمن له الجنة؟!**».

فيقوم عثمان من وسط الصفوف ويقول: أنا يا رسول الله أجهز جيش العسرة بماله وأقتابه وجماله وأحلاسه في سبيل الله.

فتدمع عيناه ﷺ فيقول: «**اللهم اغفر لعثمان ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض**»[(٢)].

وإنما نردد أخبار هؤلاء وسيرهم لأنها عبرة، ولأن الله جعلهم قدوة لنا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فمن أراد العبادة والاتصال فعليه بسير الصحابة.

كن كالصحابة في زهد وفي ورع   القوم هم ما لهم في الناس أشباه

وتربع الأمة بعلي رضي الله عنه وأرضاه، فيكون مثالاً للخليفة الزاهد العابد الخائف من الله.

---

(١) هذا ما حصل عندما خرج عثمان على الناس في الفتنة فناشدهم الله أما سمعوا الرسول عليه الصلاة والسلام يقول هذه المقالة «**من يجهز**» أخرجه البخاري برقم (٢٧٧٨)، وأحمد برقم (٥١٣)، والنسائي برقم (٣١٨٢، ٣٦٠٩)، والدارقطني في السنن برقم (٤٣٤٢).

(٢) بهذا اللفظ لم أجده، وإن الذي عند أحمد والترمذي: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»، أخرجه أحمد برقم (٢٠١٠٧)، والترمذي برقم (٣٧٠١)، وأحمد في فضائل الصحابة برقم (٧٤١)، وانظر: المشكاة برقم (٦٠٧٣).

ولذلك يقف على المنبر كما يقول ضرار بن الحارث الصدائي فيأخذ لحيته بيديه ويقول: يا دنيا يا دنية غري غيري، طلقتك ثلاثاً لا رجعة بعدها.. زادك حقير.. وسفرك طويل.. وعمرك قصير.. آه من وحشة السفر.. وبُعد الزاد.. ولقاء الموت.

إنهم خافوا من لقاء الله عز وجل فبلغهم الله ما أرادوا وأعطاهم سبحانه وتعالى ما تمنّوا.

والمسلم كل المسلم هو الذي يخاف من الله.

وأحسن من عرّف الخوف هو ابن تيمية شيخ الإسلام رحمه الله، الداعية الكبير الذي يقول: الخوف ما حجزك عن المعاصي، وما زاد فلا يحتاج إليه. وصدق وبر رحمه الله، فحد الخوف ما حجزك عن المعاصي، فما زاد فلا يحتاج إليه، أي لا خوف غلاة الصوفية الذين أداهم خوفهم إلى ترك الطعام والشراب والمنام والنكاح، وهذا ليس من الإسلام.

لكن حد الخوف ما حجزك عن المعاصي.

ومن كثرة رقابة عباد الله عز وجل الصالحين لربهم أثمر الخوف فيهم الاستقامة وترك المعاصي.

والخوف الذي لا يترك صاحبه المعصية ليس بخوف، إنما هو كلام باللسان.

ولذلك يقول الحسن كما في الموطأ موقوفاً: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

ولذلك يظهر الإيمان وآثار الخوف في الأعمال الصالحة.

يروي الذهبي في المجلد الثامن من سير أعلام النبلاء في قصة عبدالله بن وهب المصري العالم الكبير الزاهد أنه ألف كتابه: (أهوال يوم القيامة)، فقال له أصحابه: اقرأ علينا الكتاب.

قال: أما أنا فوالله ما أستطيع أن أقرأ الكتاب، لكن مروا أحدكم يقرأ الكتاب.

قالوا: ابنك يقرأ علينا الكتاب.

فاندفع ابنه يقرأ الكتاب الذي ما سمع الناس بمثله في بابه.

فغشي على عبدالله بن وهب.

قال الذهبي: بقي ثلاثة أيام مغمىً عليه ومات في اليوم الرابع.

وأثر عنه أنه كان يغتسل يوم الجمعة، فسمع ابنه الصغير يقرأ: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]، فأغمي عليه وسقط وهو يغتسل.

إن هؤلاء قوم اتصلت قلوبهم بالله فقلّلوا من المعاصي وأكثروا من التوبة والإنابة والرجوع إلى الله والعودة إليه، فأعطاهم الله ما تمنوا.

ولذلك يقول صاحب طبقات الحنابلة في ترجمة عبدالغني المقدسي المحدث الكبير الشهير صاحب كتاب «الكمال في أسماء الرجال»، الذي ما ألف في علم الرجال مثله.

قال عنه: بأنه سجن وسجن معه بعض الكفرة.

فقام عبدالغني المقدسي في الليل يتوضأ ويصلي ركعتين، فإذا جف وضوؤه عاد إلى الضوء مرة ثانية وصلى ركعتين وقرأ وبكى حتى الصباح.

وهؤلاء الكفرة ينظرون إلى هذا المشهد العظيم.

فلما أصبح الصباح ذهبوا إلى السجّان وقالوا: أطلقنا فإنّا قد آمنا بالله وشهدنا أن محمداً رسول الله.

قال السجّان: ولم؟

قالوا: لقد مرت علينا ليلة ما مرت علينا في حياتنا كلها، لقد تصورنا أن القيامة قامت لما رأينا هذا الرجل يصلي ويبكي.

لقد كنا ندعو الناس بأعمالنا قبل أقوالنا، وبزهدنا وبتقوانا وباتصالنا بالله عز وجل، فأثمرت جهودنا وأثمر علماؤنا ثمرة طيبة.

ولذلك كان الخوف دائماً أعظم المنازل عند أهل العلم.

يقول أحد تلاميذ ابن المبارك: سافرت مع عبدالله بن المبارك فرأيته في السفر فقلت: سبحان الله يصلي كصلاتنا، ويقرأ كقراءتنا، ويصوم كصيامنا، ورفع الله له الذكر الحسن في الناس، ورفع الله له مكانته في العالمين، فبماذا؟

قال: فدخلنا حجرة ونحن مسافرون فانطفأ السراج علينا، فذهبنا نلتمس سراجاً نستضيء به، فأتينا ابن المبارك بعد ساعة بالسراج فإذا هو في الظلام يبكي ودموعه تتحدر من رأس لحيته.

قلنا: ما لك يا أبا عبدالرحمن؟

قال: والله لقد ذكرت القبر بهذه الغرفة المظلمة الضيقة فكيف بالقبر؟ فعلم هذا التلميذ مصدر السر وراء هذه المنزلة العالية لابن المبارك.. إنها الخشية والخوف من الله.

إننا يا أيها المسلمون بحاجة إلى مراجعة أنفسنا في الرقابة مع الله، وفي تذكير أيام الله، وفي الاستعداد للقاء الله عز وجل قبل أن نصل إلى حفرة نستعتب فيها فلا نعتب، ونطلب العودة فلا نعاد، ونطلب الرجعة فلا نرجع أبداً.

كان ابن عمر فيما أثر عنه إذا قرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٥٤] يبكي ويقول: اللهم لا تحل بيني وبين ما أشتهي.

قالوا: تشتهي ماذا يا أبا عبدالرحمن؟

قال: أشتهي أن أقول: لا إله إلا الله في قبري فيحال بيني وبين لا إله إلا الله.

هل سمعتم بمقبور يقول لا إله إلا الله؟

هل سمعتم بميت يصلي في قبره؟

هل سمعتم بمدفون يصوم في قبره؟ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سَبَأ: ٥٤].

ولذلك في ترجمة علي رضي الله عنه أنه مر بمقابر الكوفة فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنتم سلفنا ونحن بالأثر، أما ظهور مقابركم فجميلة، لكن يا ليت شعري ما في بواطنها.. وما هي أخباركم؟

أما أخبارنا فالبيوت سكنت، والزوجات تزوجت، والأموال قسمت، هذه أخبارنا.. فما أخباركم؟ ثم بكى وقال: سكتوا ولو نطقوا لقالوا: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ولذلك ذكر ابن كثير في ترجمة الخليفة عمر بن عبدالعزيز الزاهد الشاب الذي قاد الأمة وهو لم يجاوز الأربعين لما علم الله صدقه وإخلاصه بلّغه الله ما تمنى، يقول ابن كثير أنه أثر عن عمر بن عبدالعزيز أنه صلى صلاة العيد ومعه أمراء بني أمية ووزراء بني أمية، فقربوا له المراكب والموكب ليركب، فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين، ثم مضى.

فلما مر بالمقبرة وقف عندها وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. الله أيتها القبور كم فيك من خد أسيل وطرف كحيل!

ثم قال: ما كأنهم ضحكوا مع من ضحك، ما كأنهم لعبوا مع من لعب، ما كأنهم تمنوا مع من تمنى.

ثم رفع صوته وقال: يا موت ماذا فعلت بالأحبة؟

فأجاب نفسه بنفسه، وقال: أكلت العينين، وزرّقت بالحدقتين، وفصلت الكفين عن الساعدين، والساعدين عن العضدين، والقدمين عن الساقين، والساقين عن الركبتين:

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشرٍّ خاب بانيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الموت نبنيها
فاعمل لدار غداً رضوان خازنها ... الجار أحمد والرحمن بانيها
قصورها ذهب والمسك تربتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

من أراد أن يعمل فليعمل لدار البقاء، دار الصفاء، دار الحياة التي لا هم، ولا حزن، ولا غم فيها.

ومن أراد ذلك فعليه بمركب الخوف.

ولذلك في مسند الإمام أحمد بسند حسن أن الجواري في الجنة ينشدن ويغنين ويقلن: **«نحن الناعمات فلا نبأس، نحن الخالدات فلا نبيد، طوبى لمن كنّ له وكان لنا»**[١].

إنهن يغنين بصوت جميل لمن ترك الغناء واللذات في الدنيا، أما من استمع هنا وتمنى هنا ولها هنا فلا يستمع هناك جزاء وفاقاً.

ولذلك يقول ابن القيم:

قال ابن عباس ويرسل ربنا ... ريحاً تهز ذوائب الأغصان
فتثير أصواتاً تلذ لمسمع الإ ... نسان كالنغمات بالأوزان
يا خيبة الآذان لا تتعوضي ... بلذاذة الأوتار والعيدان

يا أيتها الأذن التي تريد النعيم لا تستمعي إلى اللغو الأثيم.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٣٤٥)، والترمذي برقم (٢٥٦٤).

يأيها القلب الذي يريد أن يرضى عنه الله وينشرح برضوان الله لا تنغمس في الخطايا.

يا أيتها العين التي تريد أن تنظر في الجنة لا تنظري إلى الحرام.

لقد كان الخوف ومركب الخوف أقرب المراكب عند السلف الصالح وصولاً إلى الله سبحانه وتعالى، فهم أقرب الناس إلى الله بالخوف منه سبحانه وتعالى وطلب ما عنده، ولذلك كان ابن عباس رضي الله عنهما يقوم الليل بآية واحدة ليس إلا هي، وهي قوله سبحانه وتعالى في سورة النساء: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النِّساء: ١٢٣]، ويبكي حتى الصباح خوفاً من الله.

يقول عطاء بن أبي رباح تلميذه: والله لقد رأيت ابن عباس وعيناه أو جفناه كالشراكين البالبين من البكاء.

ولذلك ذكر عنه المترجمون أنه لما حضرته الوفاة في الطائف وأدرج في أكفانه وعرض للصلاة أتى طائر ووقع على أكفانه وسمع هاتف يقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفَجر: ٢٧-٣٠].

تدخل في عباد الله وتدخل في جنة الله لأنها رضيت بالله رباً وبمحمد نبيّاً وبالإسلام ديناً، فجزاؤها عند الله أن يرضى الله سبحانه وتعالى عن هذه النفس.

لقد كانوا أخوف الناس لله لأنهم أعرف الناس بالله، ولذلك في كتاب «الإيمان» في صحيح البخاري عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»[1]. وصدق ﷺ، فهو

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٠)، ومسلم برقم (١١١٠)، وأحمد برقم (٢٣٧٩٨)، وأبو داود برقم (٢٣٨٩).

أخوفنا لربه، وهو أخشانا لمولاه، وهو أقربنا منه سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول ابن مردويه بسنده عن بلال قال: مررت قبل صلاة الفجر أؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة فإذا هو يبكي.

فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله ما الذي يبكيك؟

قال: «**يا بلال أنزلت عليّ آيات ويل لمن قرأها ولم يتدبر:** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١][(١)].

إن وقاية عذاب النار وغضب الجبار بالخوف منه سبحانه وتعالى.

إن الملوك إذا شابت عبيدهم ... في رقهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا خالقي أولى بذا كرماً ... قد شبت في الرق فاعتقني من النار

فالعتق من النار بالخوف من الواحد الجبار ومراقبته سبحانه وتعالى.

لذلك أثر عن إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد أنه كان إذا جلس وحده في البيت تربع وجلس عليه السكينة والخشوع.. فإذا ظهر أمام الناس لا يرى عليه ذلك الخشوع، فسئل فقال: إن معي رقيباً يجالسني.

وصدق رحمه الله، فإن الله عز وجل كما في الحديث الصحيح

---

(١) رواه عبد بن حميد في تفسيره، وأخرجه القشيري في رسالته. انظر: تفسير ابن كثير (٤٤١/١) والترغيب والترهيب برقم (٢٢٥٥)، والبيان والتعريف برقم (٣٢٣).

يقول: «**أنا جليس من ذكرني**»[١]، وفي حديث أبي هريرة: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[٢].

إذن فالخوف واحد من أهم مقامات العبودية، ولذلك بدأت به قبل غيره.

وأما الرجاء فهو مقام آخر للعبودية، لكنه مبذول للجميع وليس الناس بحاجة إليه كحاجتهم إلى الخوف، فلذلك بدأت بالخوف.

وأما المقام الآخر الكبير من مقامات العبودية فهو (الإخلاص). فإننا من أحوج الناس إليه.

فلا ثواب ولا أجر ولا عاقبة إلا لمن أخلص لله عز وجل، ولذلك يقول عز من قائل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البَيِّنَة: ٥]، ويقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزُّمَر: ٣]، والخالص: النقي من شوائب الرياء والسمعة وقصد غير الله عز وجل: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [القَصَص: ٨٨].

فالله الله في الإخلاص، فإنه الطريق العامر، وهو الباب المفتوح لله عز وجل، فلا قبول إلا بإخلاص ومتابعة.

ولذلك يقول ﷺ لمعاذ: «**يا معاذ أخلص دينك يكفيك القليل من العمل**»[٣].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/٣٧، ٤٢)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (١٢٦٥، ٣٠٠٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٦٨٠)، وانظر: كشف الخفاء برقم (٦١١، ٦١٣)، وكنز العمال برقم (١٨٦٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٤٠٥)، ومسلم برقم (٢٦٧٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، والحاكم في المستدرك برقم (٧٩١٦)، انظر: جامع الأحاديث والمراسيل برقم (٧٣١)، والترغيب والترهيب برقم (٤)، والبيان والتعريف لابن حمزة الحسيني برقم (٧٩)، وكنز العمال برقم (٥٢٥٧).

فالكثير مع الرياء لا خير فيه ولا بركة.

والقليل مع الإخلاص كثير ومبارك بإذن الله.

ولذلك فقد ورد في صحيح مسلم أن أول ثلاثة تسعر بهم النار يوم القيامة: عالم وتاجر ومجاهد، لأنهم كانوا يراؤون الناس في الدنيا[١].

فلما أخبر معاوية بهذا الحديث بكى وقال: صدق الله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هُود: ١٥، ١٦].

فمن أراد الرياء راءى الله به كما في الصحيحين من حديث جندب بن عبدالله بن سفيان: **«من راءى راءى الله به، ومن سمع سمع الله به»**[٢]، ومن أراد الظهور منح الظهور، لكن لا حظ له عند الله. ومن أراد المنزلة عند الناس ولم يرد ثواب الله أعطاه الله ما تمنى في الدنيا وحرمه ثواب الآخرة جزاءً وفاقاً.

وعند أحمد عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله إن أبي كان يقري الضيف، ويحمل الكلّ، ويعين على نوائب الحق، فهل ينفعه ذلك عند الله شيئاً؟

فقال ﷺ: **«لا، إن أباك طلب شيئاً فأصابه»**[٣]، فلا حظ له عند الله لأنه طلب الذكر في الدنيا، وطلب المنزلة في الدنيا، وطلب

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٠٥)، وأحمد برقم (٨٠٧٨)، والترمذي برقم (٢٣٨٢)، والنسائي برقم (٣١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٤٩٩)، ومسلم برقم (٢٩٨٧)، وأخرجه مسلم برقم (٢٩٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد برقم (١٨٨٩٦)، وانظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢/٢١٣).

الصيت في الدنيا، فحصل عليه ولا زال اسمه إلى اليوم يذكر في عالم الكرماء.

وفي صحيح مسلم قالت عائشة: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان ينفق وكان كريماً فهل ينفعه ذلك عند الله؟

فقال ﷺ: «**لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً من الدهر ربي اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[1].

ولذلك كان الصدق والإخلاص هو الباب الأول من أبواب الدخول إلى العبودية الحقة، فهو يقترن مع مقامات كثيرة لكنه شرط أكيد في صحة الأعمال، ولا عمل بلا إخلاص، ولا إخلاص لمن لا متابعة له، فليعلم ذلك.

وواجبنا في الإخلاص أن نصدق النية مع الله عز وجل. يقول عز من قائل: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمَّد: ٢١].

وقد كان بعض الأعراب يأتي الرسول ﷺ ويبايع الرسول ﷺ، فتأتي الغنائم فيعطيه ﷺ من الغنائم فيقول الأعرابي: غفر الله لك يا رسول الله ما بايعتك على الغنائم ولا على أخذ شيء من المال، وإنما بايعتك على أن يأتيني سهم غرب (أي طائش) فيقع هنا ـ وأشار إلى صدره ـ ويخرج من هنا ـ وأشار إلى ظهره ـ.

فيقول ﷺ: «**إن تصدق الله يصدقك**»، فلما أتت المعركة قتل هذا الأعرابي، فرآه الرسول ﷺ فقال: «**صدق الله فصدقه الله**»[2].

فمنزلة الإخلاص لا بد للعبد أن يحققها ليقبل الله سبحانه وتعالى

---

(١) رواه مسلم برقم (٢١٤)، وأحمد برقم (٢٤١٠٠).

(٢) أخرجه النسائي برقم (١٩٥٣)، وأخرجه في الكبرى برقم (٢٠٨١)، وأخرجه البيهقي في السنن برقم (٦٨٥١)، والحاكم برقم (٦٥٨٢)، وانظر: صحيح النسائي برقم (١٨٤٥)، والبيان والتعريف برقم (٧٦٨).

طاعته، وليثيبه وليجعله من المقبولين عنده تبارك وتعالى.

ولذلك علم - بارك الله فيكم - أن من نوى نية ثم لم يستطع أن يعمل العمل الصالح كتب الله له سبحانه وتعالى الأجر على حد الأثر: «**نية المؤمن خير من عمله**»[١]، وهذا الأثر قبله ابن تيمية في مختصر الفتاوى.

ولذلك يقول ﷺ كما في صحيح مسلم عن سهل بن حنيف: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[٢].

وهذا من الصدق لأن من طلب الصدق وحققه حقق الله له ما تمنى.

وتعلمون أن عمر رضي الله عنه وأرضاه لما حج وقف في الأبطح ورفع يديه وقال: اللهم إنه ضاعت رعيتي، ورق عظمي، ودنا أجلي، فاقبضني إليك وارزقني شهادة في بلد رسولك.

فلما علم الله صدقه تقبّل دعاءه فرزقه الشهادة في المدينة المنورة على يد مجوسي خاسر.

فالصدق والإخلاص هو أول مقام من مقامات العبودية، ولا بد من مصاحبة متابعة رسول الله ﷺ، لأن العمل المقبول عند الله لا بد فيه من الإخلاص والمتابعة.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير برقم (٥٩٤٢/٦/١٨٥)، والشهاب في مسنده برقم (١٤٧)، وانظر: فتح الباري (٤/٢١٩)، ومجمع الزوائد برقم (٢١٢، ٤١٩)، والدرر المنتشرة برقم (٤٤٥)، وكشف الخفاء للعجلوني برقم (٢٨٣٦)، وكنز العمال برقم (٧٢٣٦، ٧٢٣٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩٠٩)، وأبو داود برقم (١٥٢٠)، والترمذي برقم (١٦٥٣)، والنسائي برقم (٣١٦٢).

فالله الله في قصد الله بالعمل وتصفية الأعمال من الرياء والسمعة فإنها عدوة الثواب، وإنها مطردة للأجر والمثوبة من الله عز وجل.

والرياء داء فتاك يدخل على العابد في عبادته، وعلى العالم في علمه، وعلى الداعية في دعوته، وعلى الكريم في بذله، وعلى المجاهد في جهاده.

ولا خلوص من هذا الرياء إلا بثلاثة أسباب:

أولها: أن يعتقد العبد أن النافع والضار هو الله عز وجل، فهو الذي يعطي ويمنع، ويحيي ويميت، ويرزق ويعدم، وهو الذي بيده مقاليد الأمور سبحانه وتعالى.

والسبب الثاني: أن يعتقد أن الدنيا زائلة، وأنه سوف يلقى الله فيوفيه عمله ويوفيه حسابه، إن أحسن فبالإحسان يجازى، وإن أساء فبالإساءة يعاقب.

والسبب الثالث: أن يستحضر دائماً عظمة الله ويدعو بالدعاء الخالص، بدعاء الاستغفار ودعاء المثوبة ودعاء الكفّارة، فيقول دائماً وأبداً كلما أصبح وأمسى: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»[1].

فحياة القلوب هي بالعبودية أيها الأخيار، وبالرجوع إلى الله عز وجل، فعليكم بتحقيق هذه المقامات السابقة بجد وحرص.

وفقني الله وإياكم للسير في مقامات عبوديته.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده برقم (٥٦)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٧٦٧٠، ١٧٦٧١)، وجامع الأحاديث والمراسيل برقم (٦٣٠)، والبيان والتعريف برقم (٣٧٣، ١٨٠١)، وكنز العمال برقم (٧٥٢٢، ٨٨٤٧).

يخافون ربهم من فوقهم

الحمد لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً، وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكوراً.

اللهم لك الحمد خيراً مما نقول، وفوق ما نقول، ومثل ما نقول، عز جاهك، وجل ثناؤك، وتقدست أسماؤك، ولا إله إلا أنت.

والصلاة والسلام على من بعثه ربه هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حتى أتاه اليقين. هدى الله به البشرية، وأنار به أفكار الإنسانية، وزعزع به كيان الوثنية.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

إن قلباً لا يخاف الله عز وجل ليس بقلب.

وحيّاً لا يرجو موعود الله عز وجل ليس بحي، وإنما هو ميت: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ومن يوم وقع رأس الإنسان في الأرض وهو مسؤول أمام الله عز وجل، وهو واقع في مشكلة أريبة معقدة لا يقطعها ولا يحلها إلا الخوف من الحي القيوم، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [الذّاريَات: ٥٠].

ولدتك أمك باكياً مستصرخاً

والناس حولك يضحكون سرورا

فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا

في يوم موتك ضاحكاً مسرورا

وأفضل ما يشرف هذا العبد الحي عبودية الواحد الأحد، فلا شرف له ولا خروج من المأزق إلا أن يكون عبداً لله تبارك وتعالى، ولذلك شرف الله رسوله ﷺ وذكره في أشرف المواطن بالعبودية فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفُرقان: ١].

وقال في حقه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۝١٩﴾ [الجنّ: ١٩].

وقال عنه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسرَاء: ١].

والذي لا يتشرف بهذه العبودية سوف يبقى ضالاً في الدنيا، ضالاً في الآخرة، محسوراً أعمى يوم يعرض الله الناس أولهم وآخرهم ليوم لا ريب فيه.

ولذلك طالبنا سبحانه وتعالى بالخوف منه وأخبرنا سبحانه وتعالى أنه أعد جنتين اثنتين لمن خافه: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦].

وقال جل ذكره: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النَّازِعَات: ٤٠].

ولذلك كان أهل العلم مجمعين على أن أفضل المنازل منزلة الخوف مع الإخلاص، من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، والذي يخاف الله عز وجل يعمل؛ لأن المؤمن يعمل ويحسن العمل ويخاف، والمنافق يسيء العمل ويرجو.

ولذلك كان أخوف الناس رسول الهدى ﷺ، فلا أخوف منه لربه تبارك وتعالى. ولذلك يقول للصحابة وهم يجتهدون في العبادة: «**إن أعلمكم بالله وأخشاكم أنا**»[1].

روى ابن مردويه عنه ﷺ أنه مر به بلال بن رباح ـ المؤذن داعي السماء، الذي خرج بأحدٍ أحد من أوضار الوثنية إلى نور الإسلام ـ، قبل صلاة الفجر فوجد الرسول ﷺ يبكي، فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ماذا يبكيك؟

فيقول له الرسول ﷺ: «**آيات أنزلت علي ويل لمن قرأها ولم يتدبر، آيات أنزلت علي ويل لمن قرأها ولم يتدبر**»، ثم تلا ﷺ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عِمرَان: ١٩٠، ١٩١][2].

والذي يتلو مثل هذه الآيات ولا يتدبر ولا يتفكر فقد طبع على قلبه إلا ما شاء الله، والطبع يصيب القلوب بسبب المعاصي والغفلة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٠)، وأحمد برقم (٢٣٧٩٨)، وأبو داود برقم (٢٣٨٩)، ومالك في الموطأ برقم (٦٤١).

(٢) سبق تخريجه ص: ١٥٧.

ولذلك يقول بعض الصحابة: ما بين نزول هذه الآيات المعاتبة وبين إسلامنا إلا أربع سنوات، يقول جل ذكره مخاطباً الصحابة ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

ثم يقول بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٧].

فكما يحيي الله سبحانه وتعالى الأرض بالماء وبالغيث من السماء فإنا نطمع منه سبحانه وتعالى أن يحيي قلوبنا.

روى الإمام ابن كثير في البداية والنهاية في المجلد الثاني عشر أن السلطان نور الدين محمود وهو من سلاطين الإسلام الذين كانوا يقومون الليل ويصومون النهار، ذكر ابن تيمية هذا السلطان فقال: رحم الله تلك العظام. لأن تقوى الله يوزعها على البشر سبحانه وتعالى لا تختص بغني ولا فقير، ولا كبير ولا صغير، ولا أحمر ولا أسود، إنما يوزعها سبحانه وتعالى لأنه يعلم القلوب التي تستأهل الهداية.

هذا السلطان أصابته فترة من فترات الذهول والغفلة عندما استعرض جيشه في دمشق، وعمل مهرجاناً ضخماً حضره الأمراء والوزراء والقواد، وحضره الناس وأهل دمشق في مقام بهيج وفي حفل مرعب، ولما اكتمل هذا الحفل دخل أحد علماء الإسلام اسمه ابن الواسطي، دخل ببردته ووقف أمام السلطان ثم قال له: استمع أيها السلطان لموعود سلطان السموات والأرض. فتوقف الناس وخمد المهرجان وانتظروا ماذا يقول هذا الواعظ، فقال لهذا السلطان وهو على سرير الملك:

مثّل لنفسك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور

إن قيل نور الدين جاء مسلماً فاحذر بأن تأتي وما لك نور
حرمت كاسات المدام تعففاً وعليك كاسات الحرام تدور

فبكى السلطان تأثراً.

يقول أبو ذر رضي الله عنه وأرضاه: بتُّ عند رسول الله ﷺ ليلة من الليالي فقام يصلي من الليل، فسمعته يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم بكى، ثم عاد فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم بكى ثم عاد ثالثاً فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم بكى ثم قال وهو في الصلاة النافلة: «**ويل لمن لم تدركه رحمة الله**»، إي والله ويل لمن لم تدركه رحمة الله تبارك وتعالى.

ويقول ابن مسعود: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليّ القرآن**».

فيقول: يا رسول الله كيف أقرأ القرآن عليك وعليك أنزل؟

فقال ﷺ: «**اقرأ فإني أحب أن أسمعه من غيري**».

قال: فاندفعت أقرأ في سورة النساء، فلما بلغت قوله تبارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النِّساء: ٤١] قال: «**حسبك الآن**»، قال: فنظرت فإذا عيناه تذرفان[١].

فعليه أفضل الصلاة والسلام ما كان أتقاه لله وما كان أخوفه من ربه تبارك وتعالى، حتى كان ﷺ إذا قام في النافلة كما يقول مطرف بن عبدالله بن الشخير: دخلت عليه ﷺ فسمعت لصدره أزيزاً كأزيز المرجل من البكاء[٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٥٨٢، ٥٠٤٩، ٥٠٥٠، ٥٠٥٥)، ومسلم برقم (٨٠٠).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٥٨٧٧)، وأبو داود برقم (٩٠٤)، والنسائي برقم (١٢١٤)، وابن خزيمة برقم (٩٠٢)، وانظر: المشكاة برقم (١٠٠٠).

والمرجل هو القدر إذا استجمع غلياناً.

فلننظر إلى أحوالنا اليوم: هل خلا أحدنا بنفسه فتباكى أو بكى؟

هل تذكَّر الحفرة الضيقة يوم لا يدخل معه مال ولا زوجة ولا قريب ولا حبيب؟

هل تذكَّر ذلك المصرع، وإنه والله لعجيب؟ ولو تذكرناه كل يوم لزهدنا ولتورعنا ولتبنا ولاستغفرنا.

قال ابن كثير في البداية: صلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله صلاة العيد بالناس، فلما انتهت الصلاة ذهب إلى بيته فاستعرض الناس وأتوا بالموكب فقال: باعدوه عني فما أنا إلا رجل من المسلمين.

فلما مر بالمقبرة التفت إليها وقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين ثم قال: آلله كم في هذه القبور من خد أسيل، ومن طرف كحيل، ثم قال للناس وللوزراء وللأمراء حوله وهو ينظر إليهم: ما كأنهم أكلوا مع من أكلوا، وما كأنهم شربوا مع من شربوا، وما كأنهم استأنسوا بالدور ولا عمّروا القصور، ثم رفع صوته وقال للمقابر: يا موت ماذا فعلت بالأحباب؟ يا موت ماذا فعلت بالأصحاب؟

فجاوب نفسه بنفسه وقال: أتدرون ماذا يقول الموت؟

قالوا: لا.

قال: زرقت بالعينين، وأكلت الحدقتين، وفصلت الكفين عن اليدين، وفصلت القدمين عن الساقين، والساقين عن الركبتين، ثم بكى حتى غشي عليه.

هذا الرجل العظيم الذي خاف الله وموعود الله أكرمه الله بأن جعله من السعداء في الدنيا والآخرة إن شاء الله، فما يُذكر إلا ونترحم عليه.

ولذلك لما حضرته الوفاة يوم عيد الفطر خرج الناس يلبسون الجديد يوم عيد الفطر إلا هو فقالوا: ما لك؟

قال: أرى أن مصرعي اليوم وأني ألتقي بربي اليوم.

فلما دخلت عليه زوجته والناس يصلون العيد قالت: ماذا ترى؟

قال: اخرجي من البيت فإني أرى نفراً وصلوا ليسوا بجن ولا إنس.

قال أهل العلم: هم ملائكة. فلما خرجت قبضت روحه رحمه الله.

ولذلك يقول ابن تيمية شيخ الإسلام عن الخوف المطلوب: ما حجزك عن المعاصي فهو الخوف المطلوب، وأما ما زاد على ذلك فلا يطلب في الإسلام. وصحابة الرسول ﷺ إنما امتازوا علينا بمخافتهم من الحي القيوم.

ولذلك ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد بسند جيد أن أبا بكر الصديق رحمه الله رحمة واسعة دخل هو وبعض الصحابة في مزرعة رجل من الأنصار في المدينة فكان النخل يانعاً بالثمار، وقد تدلت غصونه بالرطب وعليه الأطيار، فأما الصحابة فارتاحوا، وأما أبو بكر فجلس يبكي، فقالوا: ما لك يا خليفة رسول الله ﷺ؟

قال: أنظر لهذا الطائر، طوبى لهذا الطائر يرد الشجر ويأكل منها، ويرد الماء ويشرب منه، ثم يموت لا حساب ولا عذاب، يا ليتني كنت طائراً، يا ليت أمي لم تلدني. فبكى الصحابة.

فانظر إليه رضي الله عنه وأرضاه والرسول ﷺ بشره بالجنة وهو مع ذلك يخاف ويحاسب نفسه حتى يقول: والله لا آمن مكر الله حتى إن كانت إحدى قدميّ في الجنة والأخرى خارج الجنة، لأنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، والذي يأمن مكر الله وعذاب الله فقد

أضله الله على علم وقد طمس الله على بصيرته سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله: رب مصلِّيين اثنين وقفا في صف واحد كل بجانب صاحبه، بين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، لأن بعض الناس إذا قام للصلاة خاف موعود الله وخاف لقاء الله وخاف العرض على الله، وتذكر أنه سوف يقف مثل هذا الوقوف يوم القيامة، فإن الناس يقفون يوم القيامة عند الله كما يقفون في صلاتهم.

وصح في الحديث: «**لا يزال الله عز وجل مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت، فإذا التفت انصرف عنه**»[1]، فنعوذ بالله أن تنصرف قلوبنا في الصلاة فينصرف الله عنا.

ولذلك قال ابن الجوزي رحمه الله: المؤمن يتذكر بكل شيء يراه ما يحدث له يوم القيامة. إذا أتى ينام وتلحف تذكر القبر، وإذا رأى الخضروات والفواكه والنعم تذكر الجنة، وإذا رأى النار في الدنيا والمعذبين والمحبوسين تذكر جهنم، نعوذ بالله من جهنم، ولذلك لا يزال من فكرة إلى فكرة.

دخل المهدي الخليفة العباسي مسجد الرسول ﷺ وكان الناس مجتمعين فيه؛ طلبة العلم والمحدثون وأهل الفقه والتفسير ومنهم الزاهد العابد العالم ابن أبي ذئب، فلما دخل الخليفة ومعه قواده وحرسه قام الناس جميعاً له احتراماً، إلا هذا الرجل ابن أبي ذئب لم يقم ولم يتحرك، فاقترب منه الخليفة، فقال: لماذا لم تقم كما قام الناس جميعاً؟

قال: والله الذي لا إله إلا هو، لقد أردت أن أقوم لك فتذكرت

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٠٩٩٧)، وأبو داود برقم (٩٠٩)، والنسائي برقم (١١٩٥)، والدارمي برقم (١٤٢٣)، وانظر: المشكاة برقم (٩٩٥).

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: ٦]، فتركت القيام لذاك اليوم.

لأن من خاف من الله أمنه يوم الفزع الأكبر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣].

ثم يقول عز من قائل عن هذا اليوم: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ولقد كان وعداً عليه أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويجمعنا ليوم لا ريب فيه، ولذلك كما أسلفنا عن أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه ما كان خوفه مجرد خوف نظري ما قاده إلى العمل، لأن بعض الناس في المواعظ يخاف، ولكن إذا خرج نسي، نعوذ بالله من الغفلة، ويخاف إذا ذكّر، ولكن ما يمر عليه برهة أو ردح من الزمن إلا وقد نسي الموعظة، أما أبو بكر وأمثال أبي بكر فكان خوفهم معهم يصاحبهم أبداً ليل نهار.

ويأتي عمر فيكون من الخائفين لله، ولمخافته من الله أنه يوم خطب أول خطبة أعلن فيها المبادىء والأسس التي ينبغي أو يجب أن يسير عليها قطعها بالبكاء، فقالوا: ما لك يا أمير المؤمنين؟

قال: والله لوددت أن أمي لم تلدني. يا ليتني شجرة فأعضد، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم.

وهذا هو مقصود الخوف منه سبحانه وتعالى، ولا يكفي الخوف النظري كما قلت، بل صاحب ذلك أن كان في أعماله خائفاً من الله.

يذكر الذهبي عن عمر رضي الله عنه وأرضاه أنه خرج ذات ليلة من الليالي يطوف بسكك المدينة، فسمع امرأة تبكي من وراء الباب، فأنصت لها قليلاً فقال له مولاه أسلم: ما لك يا أمير المؤمنين؟ وعمر يبكي.

قال: اذهب بنا يا أسلم.

قال: فعدت معه إلى بيت مال المسلمين فحمل جراباً من شحم، وجراباً من زيت، وجراباً من دقيق، فقال: احمله على ظهري.

قلت: يا أميرالمؤمنين أنا أحمله عنك.

قال: أأنت تحمل أوزاري يوم القيامة؟

قال: فحمله، فوالله لقد رأيته يهرول أمامي ثم دخل البيت واستأذن وجلس في طرف البيت يصنع عشاء الأسرة، فتقول له المرأة: من أنت رحمك الله؟ والله لأنت خير من عمر بن الخطاب.

أنت بتواضعك وخدمتك وقيامك على شؤوننا خير من الخليفة عمر، ولا تدري أنه عمر.

قال أسلم: فلما انتهينا انطلقت معه وقد أذن لصلاة الفجر، فقام يصلي بنا، فلما بلغ قوله تبارك وتعالى في سورة الصافات: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصَّافات: ٢٤]، بكى حتى سمعنا بكاءه من آخر الصفوف، ثم مرض بعدها شهراً كاملاً من خوف الله عز وجل.

وما لنا حل ولا لنا صلاح ولا سعادة إلا أن نراجع حسابنا مع الله عز وجل، وأن نعود بسير هؤلاء وأمثالهم نستقرئها ونكررها في المجالس وفي المنتديات وفي المحافل، ونعيدها دائماً وأبداً، لأن الله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يُوسُف: ١١١]، ويقول جل ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعَام: ٩٠].

قال أبو حنيفة رحمه الله: سير الرجال أحب إلينا من كثير من الفقه؛ لأن الفقه أحكامه ميسرة يقوم بها طائفة من الناس، أما السير والرقائق والمواعظ فإنه ينبغي لكل عبد أن يكون خائفاً من الله، راجياً موعود الله، مخلصاً لله تبارك وتعالى، صادقاً فيما بينه وبين الله.

يقول ابن أبي حاتم في تفسيره: خرج رسول الله ﷺ ذات ليلة من الليالي، فمر ببيت امرأة من الأنصار، فسمعها تقرأ من وراء الباب تردد القرآن في الليل.

فأين نساء المسلمين، وأين الأمهات اللواتي كن يتربّين على كتاب الله عز وجل؟

فوقف ﷺ ووضع رأسه على الباب والمرأة تتلو قوله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغَاشِيَة: ١]، وتبكي، ثم تعود وتقول: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغَاشِيَة: ١]، فأخذ ﷺ بيده على رأسه يبكي ويقول: «**نعم أتاني نعم أتاني**»، لأن المخاطب هو الرسول ﷺ يقول الله له: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغَاشِيَة: ١].

يقول أحد التابعين: مررت بعائشة رضي الله عنها وأرضاها، الصادقة بنت الصديق، المطهرة المبرأة من فوق سبع سموات، زوجة رسولنا ﷺ، وهي تقرأ في صلاة الضحى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطُّور: ٢٧، ٢٨]، قال: فسمعت لبكائها نشيجاً، فذهبت والله إلى السوق وعدت وهي تقرأ مكانها في ركعة واحدة.

والمرأة المسلمة لا بد أن تعلم أن القرآن يخاطبها، وأن السنة تناديها، وأن الرسول ﷺ بعث للرجل والمرأة.

ولذلك يقول عز من قائل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ

عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ [آل عِمـرَان: ١٩٥]. فالأجر حاصل لها بجهادها في بيتها وصدقها مع ربها سبحانه وتعالى، وتربيتها لابنها على منهج كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

يقول أنس رضي الله عنه وأرضاه: ما سمعنا بمهر في الإسلام أعظم من مهر أم سليم ـ يعني أمه ـ، قال له الناس: وما مهرها؟ قال: كان مهرها الإسلام.

أتى لها رجل من الأنصار وهو مشرك فأراد أن يتزوج بها فقالت: أنت مشرك وأنا مسلمة، والله لا أتزوجك حتى تسلم فيكون مهري معك الإسلام، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

ثم أتت بابنها أنس وعمره عشر سنوات فقالت: يا رسول الله تفكرت في الدنيا فإذا هي ذاهبة، وأردت هدية أقدمها لك فما وجدت أغلى من ابني وفلذة كبدي، فخذه هدية لك يخدمك في الحياة الدنيا. ثم قالت: يا رسول الله ادع لابنك أنس ـ تعني ابنها ـ فقال ﷺ: **«اللهم أطل عمره، وكثّر ماله وولده، واغفر ذنبه»**(١)، رواه البخاري.

فأما عمره فطال حتى قارب المائة، وقيل نيف على المائة.

وأما أولاده فكثرت ذريته بعضها من بعض، يحفظون كتاب الله ويناجونه ليل نهار، حتى يقول عن نفسه كما في الإصابة وأسد الغابة وغيرها: دفنت من ولدي من صلبي ومن ولد أولادي يوم دخل الحجاج الكوفة مائة نفس.

وأما عمره فإنه صحَّ فما مرض وما سقم، وأجرى الله عليه رزقه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٣٤، ٦٣٤٤، ٦٣٧٨، ٦٣٨٠)، ومسلم برقم (٦٦٠).

وأما غفران الذنب فهذه سعادة الآخرة يوم يلقى الله.

ثم يقول ﷺ: «**دخلت الجنة فسمعت خشفة، فقلت: ما هذه الخشفة، فقيل: هذه الرميصاء بنت ملحان وهي أم أنس بن مالك**»[١].

لأنها صدقت مع الله عز وجل، ولأنها عرفت موعود الله فأخلصت للا إله إلا الله.

وتأتي الخنساء النخعية في معركة القادسية والناس قد صفوا للقتال، المسلمون في جهة.والكفار في جهة، حزب الله في ناحية وحزب الباطل في ناحية، ولا إله إلاّ الله ترتفع هنا وراية الباطل ترتفع هناك.

فالتفتت إلى القبلة ورفعت يدها وقالت: اللهم ما عندي اليوم أغلى من أبنائي الأربعة، اللهم إني أقدمهم لك، اللهم ارزقهم الشهادة هذا اليوم.

فتأتي إلى أبنائها الأربعة وليس لها عائل يعولها في الدنيا إلا هؤلاء الأبناء، وليس لها في الناس أحب إليها من هؤلاء الأبناء وأبوهم قد مات.

فقالت: يا أبنائي اذهبوا واغتسلوا فتحنطوا وتكفنوا.

فذهبوا واغتسلوا ثم لبسوا أكفانهم ثم أتوا، فقالت: والله ما خنت أباكم ولا خدعت خالكم، والله إنكم أبناء رجل واحد فإني أحتسبكم عند الله يوم العرض الأكبر وأقدمكم هذا اليوم، فإذا أتيتم فأخلصوا للا إله إلا الله ثم لا أراكم إلا يوم العرض الأكبر.

فلما انتهت المعركة أتى الناس يبشرونها فقالوا: قتل أبناؤك الأربعة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٥٦)، وأحمد برقم (١١٥٤٤، ١١٦٢٤، ١١٨٤٧، ١٣١٠٢).

فتبسمت، وهذا من فرح المؤمن.

طفح السرور عليّ حتى أنني من عظم ما قد سرني أبكاني

وقالت: الحمد لله الذي رفع منزلتي بشهادتهم، اللهم اجعلهم عندك: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨، ٨٩].

ويأتي معاذ بن جبل رضي الله عنه وأرضاه فيسافر إلى أرض اليمن، فيقول له ﷺ وهو يوصيه: «**يا معاذ، اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[١]، ثم قال رسول الله ﷺ: «**يا معاذ اذكر الله عند كل شجر وحجر ومدر، فإنك إذا ذكرت الله كان الله معك**»[٢].

ويقول ﷺ وهو يزود ابن عباس من زاد الآخرة كما في الترمذي: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١٤٨٢)، والترمذي برقم (١٩٨٧) عن معاذ رضي الله عنه، وأخرجه أحمد برقم (٢٠٨٤٧، ٢٠٨٩٤، ٢٠٩٧٦، ٢١٠٢٦)، والترمذي برقم (١٩٨٧)، والدارمي برقم (٢٧٩١) عن أبي ذر رضي الله عنه، وانظر: المشكاة برقم (٥٠٨٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة برقم (٣٠١١٤)، والبيهقي في الشعب برقم (٥٤٨)، وهنا في كتاب الزهد، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٦٧٥٣)، والبيان والتعريف برقم (٢٦٦).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٢٦٦٤، ٢٧٥٨، ٢٨٠٠)، والترمذي برقم (٢٥١٦)، وانظر: المشكاة برقم (٥٣٠٢).

وعند ابن ماجه من حديث ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**لأعلمن رجالاً يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيض يجعلها الله هباءً منثوراً**»، قال الصحابة: يا رسول الله أليسوا مسلمين؟

قال: «**بلى مسلمين يصلون كما تصلون، ويصومون كما تصومون، ولهم حظ في الليل، ولكن كانوا إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**»(١).

إن العجيب أن نخشى الله في بعض الأحيان والمطلوب أن نخشى الله في كل وقت وحين في السراء والضراء، في السر والعلن، أمام الناس وبعيداً عنهم، يوم يغفل عنك الناس ولا يغفل عنك سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول الأندلسي لابنه:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة
والنفس داعية إلى الطغيان

فاستحي من نظر الإله وقل لها
إن الذي خلق الظلام يراني

ولذلك يقول أهل العلم: إذا خلوت عن الناس ورأيت الكواكب فاسأل من كوكبها.

وإذا رأيت النجوم فاسأل من رفعها.

وإذا رأيت السماء فاسأل من سواها، فإنه معك سبحانه وتعالى أينما ذهبت، واعلم أنك إن لم تكن تراه فإنه يراك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٤٢٤٥)، وفي مسند الشاميين برقم (٦٨٨)، وانظر: مصباح الزجاجة برقم (١٥٢٥)، وتهذيب الكمال (ترجمة رقم ٣٨٩١).

لما حضرت معاذاً الوفاة قال وهو في سكرات الموت لابنه: اخرج انظر هل أصبح الصباح؟

فنظر ابنه فقال: لا ما أصبح.

فجلس قليلاً ثم رفع طرفه وقال: اللهم إنك تبارك في القليل وتكثر الصغير، اللهم بارك في هذا الجرح. وكان فيه جرح من الطاعون.

قال: كيف تدعو على نفسك بالموت؟

قال: مللت والله الحياة وسئمت والله البقاء.

فقال لابنه: اخرج فانظر هل أصبح الصباح؟

قال: أصبح.

قال: أعوذ بالله من صباح إلى النار، اللهم إنك تعلم أني لم أحب الحياة لغرس الأشجار ولا لجري الأنهار ولا لعمارة الدور ولا لرفع القصور.

ولكن كنت أحب الحياة لثلاث خصال: ظمأ الهواجر، ومزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر، وأن أعفر وجهي ساجداً لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ويقول الأعمش لما حضرته سكرات الموت ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ وقد بكى عليه أبناؤه، قال: يا أبنائي لا تبكوا، فوالله الذي لا إله إلا هو ما فاتتني تكبيرة الإحرام ستين سنة مع الإمام.

ما قالها تفاخراً ولا تكبراً، وإنما قالها ليدلل على أهمية تكبيرة الإحرام.

ويقول ابن إدريس الزاهد العابد ـ كما ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء ـ لابنه وهو يبكي عند رأسه: يا بني اتق الله عز وجل، لا

تعص الله في هذا البيت الذي سكنت أنا وإياك فيه، فوالله لقد ختمت القرآن فيه أربعة آلاف مرة.

فمن أراد أن يحفظه الله في أبنائه فليخف الله سبحانه وتعالى وليحفظ الله، فإن الله حفظ الكنز للغلامين كما ذكر في سورة الكهف فقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فكل من يتولى الله يتولاه الله في أهله وفي زوجته وفي أولاده وفي بناته، ويتولاه الله في رزقه ومدخله ومخرجه حتى يلقى الله.

في صحيح البخاري أن عمر رضي الله عنه دخل على الرسول ﷺ وهو في مشربة.

قال: فدخلت فوالله ما رأيت في المشربة ما يلفت النظر إلا شيئاً من شعير في قطف.

فدمعت عيناه.

فقال ﷺ: «**ما لك يا عمر؟**»، وكان جنب رسول الله ﷺ قد أثر فيه الحصير.

قلت: يا رسول الله هذا كسرى وقيصر يتمتعون في ما يتمتعون به وأنت رسول الله، والله فضّلك على الناس في هذا العيش.

فيقول ﷺ: «**أفي شك أنت يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»؟[1].

ولذلك ذكروا أن عثمان رضي الله عنه وأرضاه حضر المقبرة ورأى إنساناً يقبر، فبكى حتى غشي عليه وحمل إلى بيته صريعاً، فقالوا: نراك تقرأ القرآن ولا تبكي وتذكر الجنة والنار ولا تبكي، فإذا رأيت القبر

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٩١٣)، ومسلم برقم (١٤٧٩).

بكيت، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**القبر أول منازل الآخرة، فإن ينج منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد**» قال: وقال رسول الله ﷺ: «**ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه**»[1].

ولذلك يقول علي رضي الله عنه وأرضاه لأهل القبور: ما أحسن ظواهركم، ولكن ليت شعري ما في بواطنكم؟ ثم قال: أما أخبارنا فعدنا بعد أن دفناكم، فأما البيوت فسكنت، وأما الزوجات فتزوجت، وأما الأموال فقسمت، فما هي أخباركم؟ ثم بكى وقال: سكتوا ولو نطقوا والله لقالوا: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧].

- **أسباب الخوف:**

والأمور التي تحدث الخوف عند المؤمن أربعة أمور، إذا تذكرها وتدبرها أحدثت له رقة وذكرته موعود الله عز وجل ولقاء الله.

أولها: زيارة المقابر، فإن فيها الأولاد والأحفاد والأجداد، وفيها الأحباب والأصحاب والأصدقاء.

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب
متى حطّ ذا عن نعشه ذاك يركبُ
نؤمل آمالاً ونرجو نتاجها
وعلّ الردى مما نرجيه أقربُ
ونبني القصور المشمخرات في الهوا
وفي علمنا أنا نموت وتخربُ

ولذلك يقول ﷺ: «**زوروا القبور فإنها تذكر بالموت**» وفي لفظ

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٤٥٦)، والترمذي برقم (٢٣٠٨)، وابن ماجه برقم (٤٢٦٧)، والحاكم برقم (٨٠١٤)، وانظر: المشكاة برقم (١٣٢).

ابن ماجه «**فإنها تذكركم الآخرة**»[١].

ويقول ﷺ وهو يزور المقبرة: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين**»[٢] وفي رواية أخرى وفيها زيادة «**نسأل الله لنا ولكم العافية**»[٣].

وقد زار الصالحون المقابر كثيراً.

يقول مطرف بن عبدالله الشخير في سيرته ـ وهو من الصالحين الكبار ـ يقول: كنت آتي من بادية البصرة إلى البصرة لأصلي الجمعة بجامع البصرة، فكنت آتي قبل صلاة الجمعة بليلة، فإذا أتيت في الليل مررت بالمقابر فسلمت عليهم ودعوت لهم كثيراً، إلا ليلة من الليالي مررت وكان المطر نازلاً وكان الليل بارداً، فذهبت إلى بيتي وما وقفت على المقبرة ولا دعوت ولا سلمت.

ثم نمت تلك الليلة فرأيت رجلاً من أهل المقابر يكلمني ويقول: يا مطرف أحرمتنا هذه الليلة من الدعاء، والله الذي لا إله إلا هو إن الله ينور علينا مقابرنا أسبوعاً كاملاً بدعائك.

ولذلك يقول أحد الصالحين (محمد بن واسع): مررت بمقبرة فقلت: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فسمعت هاتفاً من المقابر يقول: يا محمد بن واسع تزوَّد منها، فوالله لو تعلم أجرها لأخرجتها مع أنفاسك، قد حيل بيننا وبين لا إله إلا الله فما نستطيع أن نقولها.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٧٦)، وأحمد برقم (٩٣٩٥)، وأبو داود برقم (٣٢٣٤)، والنسائي برقم (٢٠٣٤)، وابن ماجه برقم (١٥٧٢، ١٥٦٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٩٧٤)، وأحمد برقم (٢٥٣٢٧)، والنسائي برقم (٢٠٣٧).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٩٧٥)، وأحمد برقم (٢٢٤٧٦، ٢٢٥٣٠)، والنسائي برقم (٢٠٤٠).

من يصلي عنك إذا لم تصلِّ في الحياة؟

ومن يصوم عنك إذا لم تصم؟

ومن يتصدق عنك؟

ومن يحسن خلقه عنك؟

ومن يبذل الخير عنك؟

لقد انقطع العمل والأعمال التي تقرب منه سبحانه وتعالى.

والأمر الثاني: تذكر الموت دائماً وأبداً كلما أصبح العبد وكلما أمسى وكلما أوى إلى فراشه.

تقول فاطمة بنت عبدالملك زوجة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وأرضاه: كان عمر إذا أوى إلى فراشه تقلب كالطائر الخائف من البرد، فقلت: يا أمير المؤمنين لم لا تنام؟

قال: كيف أنام وقد ذكرني هذا الفراش بالقبر؟

وقال الذهبي عن سفيان الثوري رحمه الله: ثبت عنه أنه قرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التّكاثر: ١، ٢] من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر فإذا أتى لينام قال: كيف أنام والقبر أمامي.

والأمر الثالث مما يدعو إلى مخافته سبحانه وتعالى: تذكر أنه تعالى شديد العقاب، وأنه إذا أخذ لم يفلت، وأنه إذا انتقم انتقم انتقاماً شديداً سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول عمر وقد كتب لبعض عماله: اعلم أن الله شديد العقاب فهل نسيت ذلك؟

ويقول عمر بن عبدالعزيز لعدي بن أرطأة: يا سبحان الله، ما الذي حملك حتى ظلمت واعتديت؟ أما مررت على المقابر؟ أما علمت أن الله شديد العقاب؟

فهيبة الله وتذكرها هي العامل الثالث الذي يحدث المخافة منه سبحانه وتعالى.

والأمر الرابع: ملاحظة نظر الرب سبحانه وتعالى.

يقول ابن تيمية: القلب بيت الرب، ولا يمكن أن يصلح هذا البيت ولا أن يبقى ولا أن يصدق معه سبحانه وتعالى إلا إذا لاحظت أن الله ينظر إليك.

كان الإمام أحمد رحمه الله إذا دخل بيته تربع وهو وحده وجلس خائفاً متخشعاً، فقالوا: ما لك تجلس مع الناس ولا تخشع، وإذا جلست وحدك خشعت؟ قال: يقول الله: «**أنا جليس من ذكرني**»(١)، فكيف لا أتأدب معه تبارك وتعالى.

فهذا من أعظم ما يسبب مخافته سبحانه وتعالى أن يلاحظ المؤمن عين الله عز وجل ورقابة الله، «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٢).

● أسباب عدم الخوف من الله:

هي أمور أربعة ذكرها أهل العلم:

أول هذه الأربعة: الغفلة؛ فإن الغفلة إذا رانت على القلب لا يمكن أن يكون مستقيماً بل لا يعي الذكر ولا يفهم أبداً.

والله ذكر سبحانه وتعالى أن لبعض الناس قلوباً ولكن لا يفقهون بها، ولهم آذان ولكن لا يسمعون بها، ولهم أعين ولكن لا يبصرون بها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

---

(١) سبق تخريجه ص: ١٥٧.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم برقم (٩ ١٠).

والناس كلهم لهم قلوب لكن بعضهم لهم قلب حي، وبعضهم لهم قلب ميت، قال تعالى: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محَمَّد: ٢٤].

فالغفلة إذا رانت على القلب أنسته موعود الله وذكر الله.

تحدثه بالمواعظ فلا يفهم ولا يعي ولا يعقل أبداً، لأنه قد طمس على قلبه وطبع عليه فهو لا يستفيق.

والأمر الثاني: المعاصي، فإنها أعظم ما يحجب العبد عن مولاه سبحانه وتعالى: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: ٤٠]، وكلما كثرت المعاصي رانت على القلب، فأول ما تحدث الضيق، ثم تحدث الران، ثم تحدث الطبع.

فالطبع آخرها وهو الذي يصيب الكافر.

والران يصيب الفاسق.

والغين يصيب المؤمن.

ولذلك يقول ﷺ في صحيح مسلم: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إلى الله في اليوم أكثر من مائة مرة**»[1]، وفي رواية أكثر من سبعين مرة.

ويقول في حديث الأغر المزني: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنه يغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[2].

وأما الران فيقول سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطفّفِين: ١٤]، أي تراكم عليها، وهذا يشمل الفاسق والكافر.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢)، وأحمد برقم (١٧٣٩١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢)، وأحمد برقم (١٧٨٢٧)، وأبو داود برقم (١٥١٥).

وأما الأمر الثالث الذي يحدث قلة مخافة الله عز وجل وعدم خشيته: فكثرة المباحات. وهذه التي وقعنا فيها جميعاً كالتفاخر في الدنيا والتكاثر منها والتوسع فيها وتقديمها على الآخرة وأغراضها وعلى مطالب الآخرة ومطالب ما عند الله عز وجل.

والأمر الرابع: ضياع الوقت. ومن أعظم ما يمكن أن يحاسب عليه العبد يوم القيامة ضياع وقته عند الله عز وجل.

وكثير من المسلمين ما يحسبون للوقت حساباً بل يحسبون الدرهم والدينار، فتذهب الأيام والليالي فلا يتفكرون فيها أبداً.

ولذلك يقول جل ذكره: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وفي الترمذي قوله ﷺ: «**لن تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع**»[1].

ولذلك يقول ابن عباس كما في البخاري: يقول ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[2].

وأعظم ما يستغل الوقت فيه أداء الفرائض.

يقول ابن تيمية وقد سئل ما هو الحل لمرض الشبهات والشهوات، قال: أعظم ما يمكن أن يداوى به هذا المرض أن تصلح الفرائض ظاهراً وباطناً.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٤١٧)، والدارمي برقم (٥٣٧)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٨٣٧١)، والترغيب والترهيب برقم (٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٢)، وأحمد برقم (٢٣٣٦، ٣١٩٧)، والترمذي برقم (٢٣٠٤).

فأما إصلاحها في الباطن فأن تخلص قصدك وعملك لله عز وجل، وأنك إذا نصبت قدميك في الصلاة أن تتذكر وقوفك أمام الله سبحانه وتعالى، هذا إخلاصها في الباطن.

وأما إخلاصها في الظاهر فأن تكون على سنة المصطفى ﷺ.

وبعد الفرائض تزود بالنوافل، وما سجد عبد لله سجدة إلا رفعه بها درجة.

يقول ابن الجوزي في صيد الخاطر: يا عجباً لمن عرف أنه سوف يموت كيف لا يجعل كل نفس من أنفاسه طاعة لله.

ويقول: لقد صح في الحديث أنه ﷺ يقول: «**من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»(١)، فيقول: يا سبحان الله كم يفوتنا من النخلات لأننا لا نسبح الله.

سئل ابن تيمية في المجلد العاشر، سأله أبو القاسم المغربي: ما هو أعظم عمل تدلني عليه بعد الفرائض؟

قال رحمه الله: لا أعلم بعد الفرائض أعظم ولا أحسن ولا أفيد من ذكر الله عز وجل، وهو أسهل العبادات، وهو شبه إجماع بين أهل العلم.

ولذلك يقول جل ذكره: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] فإني أوصيكم ونفسي بحفظ الوقت بذكره سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٦٤، ٣٤٦٥)، والنسائي في الكبرى برقم (١٠٥٦١)، وابن حبان برقم (٨٠٣)، والحاكم برقم (١٨٨٣، ١٩٢٤)، وانظر: المشكاة برقم (٢٣٠٤).

• علامات الصدق في الخوف:

وعلامة الصدق في المخافة أربعة أمور أو أربع علامات:

أولاً: أن يستوي ظاهر العبد وباطنه، فلا يكون ظاهره خيراً من باطنه.

وفي الترمذي: أن الرسول ﷺ يقول: «**يقول الله سبحانه وتعالى: ليكونن أقوام يظهرون للناس التخشع يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر، فبي حلفت لأنزلن عليهم فتنة تدع الحليم حيران، أبي يغترون أم علي يجترئون**»؟[١] فنعوذ بالله أن تكون ظواهرنا جميلة وبواطننا خبيثة.

الأمر الثاني: أن يكون العبد صادقاً مع الله تبارك وتعالى في كلامه وأحواله وأفعاله، والصدق ليس في القول فحسب.

قال أهل العلم: الصدق على ثلاث مراتب: صدق في الحال، وصدق في الفعال، وصدق في المقال.

وعند الترمذي عن شفي الأصبحي قال: دخلت على أبي هريرة وهو في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة فقلت: أسألك بالله يا أبا هريرة أن تحدثني حديثاً سمعته أنت من رسول الله ﷺ.

فقال: والله لأحدثنك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، ثم بكى حتى نشج وغشي عليه، ثم استفاق فقال: سمعته ﷺ يقول: «**إن أول من تسعّر بهم النار يوم القيامة ثلاثة**» ثم ذكرهم ﷺ، وهم: عالم أو قارىء للقرآن، وتاجر، ومجاهد، عملوا الأعمال رياءً وسمعة ولم يخلصوها لله فأدخلهم الله النار قبل غيرهم.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٠٤) عن أبي هريرة، برقم (٢٤٠٥) عن ابن عمر: وانظر: المشكاة برقم (٥٣٢٣، ٥٣٢٤)، الترغيب والترهيب برقم (٤١).

قال شفي الأصبحي: فدخلت على معاوية فعلمته بهذا الحديث وكان على كرسي له وهو خليفة فوقع على الأرض وهو يبكي وقال: صدق الله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هُود: ١٥، ١٦][1].

والعلامة الثالثة: الندم على السيئة والفرح بالحسنة.

خطب عمر ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ الجيش فقال: أيها الناس من سرته حسنة وساءته سيئته فهو المؤمن.

فإن تصدقت بصدقة، أو صليت ركعتين، أو ذكرت الله كثيراً، فانشرح بالك وارتاحت نفسك فاعلم أنك المؤمن.

وبالمقابل إذا ندمت وحزنت على عصيانك لله، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝١٣٦﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥، ١٣٦].

والعلامة الرابعة: أن يكون يومك خيراً من أمسك، وغدك خيراً من يومك.

فمن ترقى في العبادة فهذا علامة الصدق والمخافة.

ومن كان أمسه خيراً من يومه ويومه خيراً من غده فإنما هو يمشي القهقرى وقد دخله كذب في العبادة.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٨٢)، وابن خزيمة برقم (٢٤٦٦)، وابن حبان برقم (٤٠٧)، والحاكم برقم (١٥٦٠) وعند الجميع فيه تسمية شفي الأصبحي. وأخرجه مسلم برقم (١٩٠٥)، وأحمد برقم (٨٠٧٨)، والنسائي برقم (٣١٣٧) وعندهم: قال قائل وبدون زيادة دخول شفي على معاوية.

فعلينا أن نصدق مع الله عز وجل بصدق الخوف منه.

يقول ابن تيمية: حد الخوف ما حجزك عن المعاصي، وما زاد فلا يحتاج إليه.

وقال بعض أهل العلم: الخوف من الله عز وجل: أنك إذا جلست وحدك تصورت كأن الله بارز للناس على عرشه.

وقال أحد الصالحين: الخوف أن تتخيل أنك تتلظى في نار جهنم، أو أنك أفلست حتى من لا إله إلا الله.

وقال غيره: الخوف أن تأتي بأعمالك وأنت قد خجلت من الله عز وجل وكأنها ردت عليك جميعاً لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٧].

قال ابن عمر: وددت والله لو أن الله تقبل مني مثقال ذرة.

قالوا: لماذا؟

قال: يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٧].

قالوا: أتخشى وأنت تعمل الصالحات؟

قال: والله ما أخاف من الصالحات، ولكن أن أعمل صالحاً فيقول الله: «وعزتي وجلالي لا أقبلها منك»، ولذلك يقول عز من قائل: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٧]، كانوا يحتسبون أعمالاً صالحة لكن داخلها الرياء والنفاق والسمعة فعادت إلى وجوههم وضرب بها وجه صاحبها، لأن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه، وما كان صواباً على سنة رسوله ﷺ.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

عبّاد ليلٍ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

قال البخاري رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم كتاب التهجد، (باب) التهجد بالليل وقوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسرَاء: ٧٩]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «**اللهم لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق والنار حق، والنبيون حق ومحمد ﷺ حق والساعة حق.**

اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما

أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»[١].

أما قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩]، فإنه تعالى يقول لنبيه ﷺ: تهجد بهذا القرآن في الليل لأن الله سيشرف مقامك في الآخرة.

ولذلك ورد في بعض الآثار: من أراد الله أن يخفف عليه قيام اليوم الآخر أو قيام العرصات في العرض الأكبر على الله فليقم الليل.

وفي حديث فيه ضعف عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**صلّ ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور، وتصدق بصدقة للموقف في النشور**»[٢]، أو كما قال.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

قال أهل العلم: النافلة فيها معنيان:

الأول: أنها خاصة بك مكتوبة عليك، ودل على ذلك حديث الطبراني بسند ضعيف قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: كتب قيام الليل على رسول الله ﷺ وجوباً وعلينا نحن نافلة.

فمعنى نافلة أي زيادة في الواجب على الصلوات الخمس في حقك أنت يا رسول الله.

فلذلك كان ﷺ لا يترك قيام الليل حضراً ولا سفراً حتى لقي الله تبارك وتعالى.

الثاني: نافلة، أي زيادة لك في الخير.

وأما غيرك فليس قيام الليل بنافلة لهم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥)، ومسلم برقم (٧٦٩).

(٢) انظر: إتحاف السادة المتقين (١٨٧/٥).

لأن قيام الليل في حقنا كفارة من السيئات لأننا أهل ذنوب وخطايا وسيئات ومعاص، وأما هو ﷺ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فأصبح القيام في حقه زيادة خير لقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفَتْح: ٢].

وقال عز من قائل: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذّاريَات: ١٧، ١٨].

يقول الأحنف بن قيس رضي الله عنه وأرضاه: عرضت نفسي على كتاب الله عز وجل فرأيت الصالحين قد بانوا بوناً بعيداً، فقد وصفهم الله عز وجل بأنهم: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذّاريَات: ١٧]، فلست منهم.

وعرضت نفسي على أوصاف الكفار فإذا هم قوم خبثاء فجرة مكذبون بالله واليوم الآخر، فلست منهم.

فعرضت نفسي فوجدت قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فوجدت نفسي منهم.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذّاريَات: ١٧]، قيل بأن (ما) نافية فمعناها إذاً: كانوا قليلاً من الليل يقومون.

وإن كانت مصدرية فمعناها: كانوا قليلاً من الليل ينامون وأكثر الليل لا ينامونه.

قال أهل العلم: لا بد من قيام ولو كحلب شاة.

وقالوا: أهل القيام ركعتين، فهذا القليل من القيام.

وقال أهل العلم من السلف الصالح: قم أول الليل أو قم وسطه أو قم آخره لتكون ممن قال الله فيهم: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذّاريَات: ١٧].

وقال جعفر الصادق وأنس بن مالك وقتادة بن دعامة السدوسي ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ [الذّاريات: ١٧]: يصلون من المغرب إلى العشاء.

وقال جعفر الصادق في رواية أخرى، ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ [الذّاريات: ١٧]: لا ينامون حتى يصلون العشاء.

والقول الآخر: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ [الذّاريات: ١٧] أن (ما) مصدرية والمعنى: كانوا قليلاً من الليل ينامون، وأكثر الليل يقومون كما سبق.

قال الحسن البصري: سهروا والله مع الله، فإن الله يقول: «**أنا جليس من ذكرني**»[١].

وقال الفضيل بن عياض: أما سمعت يا وكيع ماذا يقول الله؟

قال: لا أدري.

قال: «**يقول: ما صدق عبدي ادّعى محبتي فإذا ضمه الليل نام وتركني**»[٢]، أورده الذهبي في ترجمة. ووكيع هو أحد العلماء.

وقال الحسن البصري: سهروا والله مع الله مع أول الليل فلما اقترب السحر جلسوا يستغفرون.

وكأن الراجح وهو الذي يرجحه ابن القيم أن (ما) نافية، وأنهم كانوا قليلاً ما يقومون من الليل وأقلها قدر ركعتين أو ثلاث ركعات لمن لم يوتر في أول الليل، أو أربع ركعات أو ما يسّر الله ولو دقائق.

فهؤلاء يشملهم المدح والتشريف في هذه الآية.

---

(١) سبق تخريجه ص: ١٥٧.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (ترجمة محمد بن المسيب برقم ٢٧٥٣).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨﴾ [الذّاريَات: ١٨].

يالله العجب! سهروا مع الله في عبادة فلما أتى السحر جلسوا يستغفرون كأنهم باتوا على جريمة أو ذنب أو خطيئة.

فأين الذين يبيتون في الليالي الحمراء فلا يستغفرون في السحر؟

هؤلاء قوم يتبتلون ويستغفرون ويدعون الله، فلما أتى السحر جلسوا يقولون: (أستغفر الله)، وما قالوا: (الحمد لله)، وما قالوا: (سبحان الله)، وإنما (أستغفر الله) لما شعروا به من التقصير تجاه مولاهم.

فأين الذين أسرفوا لياليهم في المعصية وفي تعدي حدود الله وانتهاك حرمات الله؟

ولكن سوف يجمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٧] وهذا في آل عمران لما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾ [آل عِمرَان: ١٧]، وإنما خص وقت السحر لأنه وقت النزول الإلهي، يوم يتنزل الله عز وجل نزولاً يليق بجلاله إلى سماء الدنيا فيدعو بصوت سبحانه وتعالى فيقول: «**هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟**»[١]، متفق عليه.

وهو نزول يليق بجلاله لا نعرف كيفه ولا نشبهه ولا نمثله، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى: ١١].

ويستغفرون بالأسحار لأنه خاتمة الليل، فهم يستغفرون لأن المسلم يستغفر آخر العمل.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم برقم (٧٥٨).

لأن الله كثيراً ما يأمر بالاستغفار بعد العمل الصالح.

كالاستغفار بعد الصلاة، فقد كان ﷺ إذا سلم من الصلاة كما في حديث ثوبان في مسلم وغيره يقول: «**أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله**»[1].

وقال سبحانه وتعالى في آخر عمر الرسول ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النّصر: ١-٣]، أي اختم حياتك بالاستغفار لربك.

قال ابن تيمية: وإنما ختمت الأعمال الصالحة بالاستغفار لأنها لا تخلو من نقص، وقد يعجب العبد بعمله فيقول: عملت صالحاً فلماذا أستغفر؟

وقد كان السحَر هو وقت نشاط العلماء وعبادتهم وتبتلهم.

زار طاووس بن كيسان صديقاً له قبل صلاة الفجر فطرق عليه فخرجت ابنته وقالت: أبي نائم.

قال: يا سبحان الله، والله ما ظننت واحداً من أمة محمد ﷺ ينام قبل صلاة الفجر في هذه الساعة.

ظن رحمه الله أن الناس كلهم مثله.

وذكر أهل العلم أن رجلاً كانت له جارية، وكان هذا الرجل عابداً من العباد الصالحين الأتقياء الأولياء الذين يخافون الله عز وجل، فكان يقوم هو وأولاده وبناته وجواريه يصلون، فباع هذه الجارية لرجل، فلما انتصف الليل قامت الجارية عند الرجل الآخر وظنت أنه وأهله مثل الأول يقومون الليل.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٥٩١)، وأحمد برقم (٢١٩٠٢)، والترمذي برقم (٣٠٠).

فأيقظتهم.

فقال الرجل: أطلع الفجر؟

قالت: لا، أما تصلون الليل؟

قال: لا، لا نصلي إلا الفجر.

فعادت إلى سيدها في الصباح وقالت: ظلمتني وبعتني لرجل لا يصلي الليل.

ولذلك كان ﷺ إذا أراد أن يستمع القرآن في الليل فإنه يذهب إلى سكك المدينة التي تدوي فيها الآيات من أفواه الصحابة.

وفي تفسير ابن أبي حاتم بسند جيد قال: خرج ﷺ في الليل فمشى في سكة من سكك المدينة فسمع عجوزاً تقرأ وهي تبكي ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغَاشِيَة: ١]، ثم تردد هذه الآية وتبكي.

فوضع ﷺ رأسه على الباب وأخذ يبكي ويقول: «**نعم أتاني نعم أتاني**».

لأن الخطاب للرسول ﷺ، يقول الله عز وجل له: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغَاشِيَة: ١].

وكان عمر رضي الله عنه إذا أراد أن يستمع القرآن مضى في سكك المدينة يستمع.

ومر معنا في أكثر من موضع أن الرسول ﷺ قام بجانب النافذة التي تطل على مسجده وأبو موسى الأشعري يصلي، وقد كان من أجمل الناس صوتاً، ومن أندى الناس نغماً، آتاه الله مزماراً من مزامير آل داود.

فوقف ﷺ يستمع ويبكي.

وهو لا يدري أن الرسول ﷺ يستمع له.

فلما أصبح الصباح لقيه ﷺ وقال: «**لو رأيتني البارحة وأنا أستمع إلى قراءتك، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»[(١)].

قال: يا رسول الله أإنك تستمع لي؟

قال: «**إي والذي نفسي بيده**».

قال: والله لو أعلم أنك تستمع لي لحبرته لك تحبيراً[(٢)].

أي جودته وحسنته وجملته.

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السَّجدَة: ١٦].

يقول ابن رواحة رضي الله عنه وأرضاه يمدح الرسول الله ﷺ:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الليل ساطعُ
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

فهو ﷺ كان من هديه قيام الليل في الحضر والسفر إلا إذا حبس بمرض أو سفر فإنه يقضي وتره من النهار شفعاً ﷺ.

وكان أهل العلم لا يستطيعون النوم في الليل ومنهم سفيان الثوري.

يقول أحد الناس: نمت عنده فلما أتى لينام رأيته ينتفض على فراشه كما ينتفض العصفور.

فقلت: ما لك يا أبا سعيد؟

قال: والله لقد طيّر ذكر النار النوم عني.

(١) أخرجه البخاري ومسلم، وقد سبق تخريجه ص: ١٢.

(٢) سبق تخريج قول أبي موسى الأشعري ص: ١٢. فقوله ليس من رواية البخاري ومسلم فينظر.

وذكرت امرأة عمر بن عبدالعزيز الخليفة الزاهد أنه كان إذا أتى إلى فراشه لا يستطيع أن ينام.

قالت: والله لقد كنت أسمع لصوته أنيناً.

فقلت له: ما لك؟

قال: يا ويلتاه لقد توليت أمر أمة محمد ﷺ فيهم الضعيف والمسكين والطفل والأرملة.

ثم يقوم ويصلي ويبكي حتى الصباح.

ومعنى ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ [السَّجدَة: ١٦]، أي أنها لا تلصق بالفراش، أي لا يمكن أن تهدأ على الفراش.

أما قيامه ﷺ: فقال المغيرة بن شعبة: قام ﷺ حتى تفطرت قدماه، فقلنا: يا رسول الله ما لك؟ أما غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»؟[(١)] يعني: أفلا أشكر لله عز وجل؟

وأورد ابن إسحاق بسنده قال: خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف في بداية دعوته ﷺ لعلهم أن يستجيبوا له كما هو معلوم.

ولكنهم آذوه وأبعدوه من الطائف ولم يستجيبوا له، بل أغروا به الأطفال والموالي ليرجموه ويستهزئوا به.

فعاد حزيناً ﷺ من هذا الصدود وتلك الجفوة.

ولكن إلى من يلتجىء؟

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١)، ومسلم برقم (٢٨١٩).

لقد ضاقت الأمور واشتدت الأحوال أمام عينيه، فكان الملجأ هو المولى سبحانه.

فنزل ﷺ في الليل في وادٍ بين مكة والطائف.

فلما أتى لينام ذهب النوم عنه بسبب الهم والغم والكرب والخوف والمحن، فتوضأ ﷺ من ماء هناك وقام يصلي ويبكي ويناجي الله عز وجل.

فجمع الله له جن نصيبين من اليمن وقد ملؤوا الوادي حوله ﷺ.

لماذا؟

ليرفع من معنوياته ﷺ، كأن لسان الحال يقول: لا تظن أن سفرك قد ذهب سدى، فإنك مرسل إلى الجن والإنس، وإنك مبعوث للعالمين أجمعين.

يقول عز من قائل: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجنّ: ١].

أتوا من اليمن في لمح البصر بعد أن أعطاهم الله من قوة المشي ومن قوة الانتقال ما ذكره في سورة النمل حكاية عن العفريت الذي مع سليمان ﷺ.

فقام ﷺ يصلي فلصقوا به ﷺ وهو في الصلاة، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجنّ: ١٩].

فاستمعوا للقرآن حتى كان بعضهم يسكت بعضاً في الوادي.

يقول سبحانه وتعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا﴾ [الأحقاف: ٢٩].

ما أجمل الخطاب!

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا﴾ [الأحقاف: ٢٩] نحن وليسوا هم الذين أتوا، لكن

نحن صرفناهم إليك ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ [الأحقاف: ٢٩]، أسكت بعضهم بعضاً.

﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] رجعوا رسل هداية ورجعوا دعاة وكانوا قد أتوا عفاريتاً في أول الليل.

فرجعوا إلى جن أهل اليمن وقالوا: ﴿قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾ [الأحقاف: ٣٠-٣٢].

فعاد ﷺ إلى مكة وقد أخبره الله أن الجن حضروا وأنهم أسلموا وآمنوا، فارتفعت روحه وهشت نفسه وعادت له العزيمة مرة ثانية.

وكان يقول قبل الصلاة: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[١].

أما فضل قيام الليل: فيقول ﷺ ـ وهذا الحديث صحيح نص على تصحيحه كثير من أهل العلم ـ قال: «**عليكم بقيام الليل فإنه تكفير للخطايا**

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/٤٢٠)، وتفسير ابن كثير (الأحقاف: ٢٩)، وكنز العمال برقم (٣٦١٣، ٣٧٥٦)، وجامع الأحاديث والمراسيل برقم (٤٠٢٣).

والذنوب، ودأب الصالحين قبلكم، ومطردة للداء عن الجسم»[١].

«**مطردة للداء**»، أي أنه مصح بإذن الله للجسم.

ولذلك يقول كثير من أهل الفهم والعلم: إن من يداوم على قيام الليل يرزقه الله صحة وثباتاً وقوة في جسمه.

حتى يقول ابن القيم ما معناه: رأيت ابن تيمية وكان من أقوى الناس بسبب قيام الليل، إذا تكلم فكلامه من أقوى الكلام، وإذا تحرك وإذا مشى وإذا قاتل.

أما أكثر قيام الليل: فإنه لا حد له كما بين ذلك العلماء، فلذلك اشتهر عن بعض السلف عدد من الأخبار في مدى نشاطهم في الليل.

أورد الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة علي بن الحسين زين العابدين، أنه كان يصلي في الليلة الواحدة ألف ركعة.

ومن شاء فليعد إلى سير أعلام النبلاء وأسانيدها صحيحة.

وقد تكون ركعات خفيفة.

وذكروا أن عطاء بن أبي رباح كان يصلي حتى يسقط.

ولكن نحن مأمورون بالاقتداء بالرسول ﷺ الذي يقول الله له: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ١، ٢]، ويقول: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ [الأعلى: ٨]، ويقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ويقول: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٩)، والبيهقي في السنن برقم (٤٦٩١ ـ ٤٦٩٣)، وابن خزيمة برقم (١١٣٥)، والحاكم برقم (١١٩٠)، وانظر: المشكاة برقم (١٢٢٧)، والإرواء برقم (٤٥٢).

فالمطلوب من المسلم أن يقتصد في العبادة، ويداوم على قيام الليل ولو بركعات خفيفة قليلة، فهو أولى من أن يصلي في ليلة مائة ركعة أو مائتي ركعة ثم يترك الصلاة ثلاث سنوات!

وقد قال ﷺ: «**أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل**»[١].

وأما أقل قيام الليل: فهو ركعة لمن لم يوتر.

قال ابن حزم في المحلى: أوتر سعد بن أبي وقاص بركعة.

وأوتر معاوية بن أبي سفيان الخليفة بركعة، فقيل لابن عباس: رأينا معاوية يوتر بركعة.

قال: إنه فقيه.

أي: فاهم في الدين.

فلك أن تصلي ركعة واحدة بعد العشاء.

والأحسن والأولى أن تصلي ثلاث ركعات.

ومن أوتر في أول الليل وأراد أن يقوم آخره فأقل قيام الليل ركعتان بقدر ما تحلب الشاة.

ومن داوم على ذلك أسعده الله عز وجل وجعله من المقبولين عنده.

وأما ما يعين على قيام الليل فهي عدة أمور ذكرها العلماء، ومنها: التسبيح عند النوم ثلاثاً وثلاثين، وتحمد ثلاثاً وثلاثين، وتكبر أربعاً وثلاثين.

والدليل على ذلك أن فاطمة رضي الله عنها كما في الترمذي سألت رسول الله ﷺ خادماً يخدمها، أي جارية تخدمها.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٩٧٠، ٦٤٦٢، ٦٤٦٤)، ومسلم برقم (٧٨٢).

فقال: «**ألا أدلكما على خير لكما من خادم، إذا أخذتما مضجعكما تسبحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين، وتكبران أربعاً وثلاثين**»[١].

الأمر الثاني: أن ينام المسلم قيلولة في النهار إما قبل الظهر لمن لم يكن عنده عمل في تلك الفترة وإما بعد الغداء.

الأمر الثالث: قلة الذنوب والخطايا، فإنها سبب للإحباط وللكسل والفتور عن قيام الليل.

قيل للحسن البصري: لا نستطيع يا أبا سعيد أن نقوم في الليل.

قال: قيدتكم خطاياكم ورب الكعبة.

والأمر الرابع: ترك السهر، فإن كثير السهر لا مصلحة فيه ولا فائدة، بل هو مضرة على العبد.

قال أهل العلم: من سهر حتى فاتته صلاة الفجر فقد ارتكب أمراً محرماً ولو أنه سهر ليقرّأ القرآن.

لأن قراءة القرآن نافلة.

فكيف بالذي يسهر على الحديث، ويسهر حتى تفوته صلاة الفجر.

وأما دعاء قيام الليل: فهناك ثلاثة أدعية أذكرها ليحفظ المسلم منها ما شاء، وإذا لم يستطع حفظها فليدع بما تيسر فإن الله يقبل الدعاء من القلب الخاشع، فليست الفصاحة ولا البلاغة بمقربة من الله إذا كان القلب لاهياً.

١ - في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها وأرضاها قالت:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١١٣، ٣٧٠٥، ٥٣٦١)، ومسلم برقم (٢٧٢٧).

كان ﷺ إذا قام من الليل يقول: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[١].

٢ - وصح عنه ﷺ أنه كان يقول في قيام الليل: «**اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، ومن أمامي نوراً ومن خلفي نوراً، وعن يميني نوراً وعن يساري نوراً، ومن فوقي نوراً ومن تحتي نوراً، واجعل في عظمي نوراً، وفي لحمي نوراً، وفي دمي نوراً، وفي شعري نوراً، وفي بشري نوراً**»[٢].

فهو النور الذي يؤتيه الله من يشاء: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ﴾ [النُّور: ٣٥].

٣ - ما ورد في الحديث الذي سبق ذكره عن ابن عباس: «**اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض...**»[٣].

أما قيام الصالحين والسلف: فقد مضى طرف منه.

فقد كان هديهم قيام الليل والتهجد فيه.

يقول أحد تلاميذ ابن المبارك الزاهد المجاهد: ذهبنا مع ابن المبارك للجهاد في خراسان، فلما نمنا ليلة من الليالي قلت: لألمحن ابن المبارك ماذا يفعل؟

قال: فتركنا حتى إذا نمنا قام في ليلة شاتية فتوضأ بماء بارد،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٧٠)، وأحمد برقم (٢٤٦٩٩)، وأبو داود برقم (٧٦٧)، والترمذي برقم (٣٤٢٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٦٣)، وأحمد برقم (٣١٨٤).

(٣) سبق تخريجه ص: ١٩١.

فرأيته يصلي ويكرر ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝﴾ [التّكاثُر: ١، ٢] إلى الصباح.

وذكر ابن كثير والذهبي وغيرهما عن صلة بن أشيم، وكان في الجهاد على حدود كابول أنه كان يتململ في فراشه حتى يقوم يتهجد.

قال أحد مرافقيه أنه قام من فراشه إلى غابة هناك في ضواحي كابول.. قال: فصعدت شجرة لأنظر ماذا يفعل.

قال: فرأيته يصلي ويناجي الله ويبكي، وإذا بأسد قد خرج من الغابة وعمد إليه.

قال: فوالله ما تزلزل ولا التفت ولا تحرك في صلاته.

فاقترب منه حتى وقف بجانبه.

فلما سلم من ركعتين قال: يا حيدرة إن كنت أمرت بقتلي فتقدم فإني لا أغني عن نفسي الليلة من الله شيئاً، وإن كنت لم تؤمر فاذهب واطلب رزقك واتركني أصلي لله!

قال: فوالله لقد رأيته أرخى ذنبه وأرخى رأسه ثم زأر زأرة كاد ينخلع لها قلبي، ثم ذهب وواصل صلة صلاته إلى الصباح.

فلما أتى الصباح رأيته من أنشط الناس، ورأيتني أنا من أكسل الناس.

لأن هذا لم يعتد السهر فسهر معه يراقبه، وذاك تعود السهر مع الله عز وجل.

ولذلك قيل للحسن البصري: ما بال قوّام الليل وجوههم مضيئة؟

قال: خلوا بالله في الليل فآتاهم نوراً من نوره تبارك وتعالى.

وهذا من أحسن الأجوبة من الحسن البصري.

وأما الأخبار والأحاديث حول قيام الليل: فمنها ما ذكره ابن عمر عن نفسه حيث قال: كان الناس في عهد الرسول ﷺ يرون الرؤيا فإذا صلّى ﷺ صلاة الفجر التفت إلينا وقال: «**هل رأى أحد منكم رؤيا**»؟ وكنت أنام في المسجد.

قال: فرأيت في المنام كأن رجلين أتياني فأخذ هذا بيدي اليمنى وهذا بيدي اليسرى فذهبا بي، فإذا بئر مطوية لها قرنان وإذا فيها قوم يعذبون.

فقالا: لن ترعْ لن ترع (يعني لا تخف).

فأخذاني بيدي فعدت معهما، ثم ناولاني قطعة من إستبرق من حرير بيدي فما أشير بها إلى مكان إلا طارت بي إلى روضة خضراء.

فلما أصبح الصباح وصلى الفجر، أراد أن يعرض القصة على الرسول ﷺ لكنه استحيا لصغره فعرضها على أخته حفصة زوجة الرسول ﷺ لتعرضها عليه ﷺ.

فأخبرت الرسول ﷺ.

فتبسم وقال: «**نعْم العبد عبد الله لو كان يصلي من الليل**»[1]، فكان بعدها لا ينام رضي الله عنه.

وبعض أهل العلم يفسر هذه الرؤيا فيقول: أما البئر المطوية فهي النار نعوذ بالله من النار، وكأنه تحذير له.

وأما الرجلان فملكان.

وأما قطعة الإستبرق فهي العمل الصالح، فإن العمل الصالح ينقلك من درجة إلى درجة.

---

(١) رواه البخاري برقم (١١٢٢، ١١٥٨، ٣٧٣٩، ٧٠٢٩)، ومسلم برقم (٢٤٧٩).

أما معاني ألفاظ حديث ابن عباس الذي ذكرته في أول الرسالة فهي:

يقول ﷺ: «**اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض**»[1]، ووردت «**قيوم**» كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، ووردت بلفظ: «**قائم**».

لأنه القائم بنفسه سبحانه وتعالى المستغني عن غيره تبارك وتعالى.

وهو الذي قامت به السموات الأرض تبارك وتعالى.

ولذلك تقول للإنسان: أنت قيم البيت.

وكما قال سبحانه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: ٣٤]، أي قائمون بحوائجهم.

وتقول: هذا الرجل قيم هذا الحي.

قوله ﷺ: «**نور السموات والأرض**».

قال أهل العلم: أي منور السموات والأرض من نور وجهه تبارك وتعالى.

وقيل: المبرأ من كل عيب.

وقيل: الذي صلح على نوره كل شيء سبحانه وتعالى.

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النُّور: ٣٥].

قال ابن كثير: فيها معانٍ: منها أنه الهادي لمن في السموات والأرض.

---

(١) هذا حديث ابن عباس الذي مر معنا في ص: ١٩١.

وقيل: مدبر أمر السموات والأرض.

وقيل: يكسب غيره سبحانه وتعالى من أهل الهداية النور.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النُّور: **٣٥**] قالوا: النور الذي أعطاه للعبد المؤمن.

أو مثل نوره في قلب العبد المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النُّور: **٣٥**] الآية.

قال: «**ولك الحمد أنت الحق**».

أي: القائم سبحانه وتعالى بنفسه، الذي وجوده حق، وكلامه حق، وأفعاله حق، فهو حق سبحانه وتعالى وما سواه باطل.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل　　وكل نعيم لا محالة زائل

إلا نعيم الجنة كما علم.

قال: «**ووعدك الحق**»، أي: الوعد وعد الناس به وهو يوم القيامة، فهو حق لا كذب ولا مرية فيه.

فهو يبعث الناس أجمعين ليوم لا ريب فيه.

قال: «**ولقاؤك حق**»، أي يوم نلقاه سبحانه وتعالى، وهو من عطف الخاص على العام، لأنه عطفه على الوعد الذي هو أيضاً يدل على يوم القيامة.

قال: «**وقولك حق**»، أي: ليس فيه كذب جل الله سبحانه وتعالى.

فكلامه سبحانه وتعالى وهو القرآن حق لا مرية فيه، وهذا لا يحتاج إلى شرح.

قال: «**والجنة حق والنار حق**»، قال أهل العلم: فيه دليل على أن الجنة والنار موجودتان الآن مخلوقتان الآن، وأنه لا فناء لهما.

. قال الشيخ حافظ الحكمي:

والنار والجنة حق وهما موجودتان لا فناء لهما

لأن بعض أهل البدع كالمعتزلة ومن نحا نحوهم كالعلاّف والنظّام وهما معتزليان يقولان بفناء النار.

قوله: «**والنبيون حق**»، أي أن إرسالهم حق من الله عز وجل ليس من ذوات أنفسهم.

والإيمان بهم يكون مجملاً ومفصلاً.

فأما الإيمان المجمل فأن تؤمن بكل من أرسل الله، ولو لم يذكر في القرآن أو السنة.

وأما الإيمان المفصل فأن تؤمن بمن ذكره الله في كتابه وهم خمسة وعشرون.

قال: «**ومحمد ﷺ حق**» وهو من النبيين لكن ذكر تشريفاً وتنويهاً بفضله وأنه خاتم الأنبياء.

قال: «**اللهم لك أسلمت**»، أي: خضعت وانقدت ظاهراً وباطناً.

وهذا أن تسلم قيادك لأحكامه في الظاهر والباطن دون استنكاف أو حرج.

قال: «**وبك آمنت**» أي: صدقت بقلبي.

قال: «**وعليك توكلت**»، قال ابن حجر هنا: التوكل هو تفويض الأمر إلى الله وترك الأسباب.

وهذا تفسير خاطىء.

لأن معتقد أهل السنة والجماعة أن التوكل هو تفويض الأمر إلى الله عز وجل مع فعل الأسباب.

فلا بد من فعل الأسباب، لأن الرسول ﷺ فعل الأسباب، فقد قاتل برمحه ﷺ وتدرع في الحروب بدرعين اثنين، ولبس الخوذة على رأسه ﷺ.

وقال للرجل: «**اعقلها وتوكل**»(١)، فأمره بالسبب وأمره بتفويض الأمر إلى الله.

فلا بد من السبب ولا بد من التفويض إلى الله.

قوله: «**وإليك أنبت**»، أي رجعت.

فالتوكل بداية في الطريق، والإنابة نهاية.

وقوله: «**وبك خاصمت**»، أي أنت الذي يلقنني حجتي ويعطيني برهاني عند المخاصمة فيك.

فلا يعطي الحجة ولا يعطي البرهان إلا الله سبحانه وتعالى.

ولذلك ثبت في الحديث أنه كان يقول ﷺ: «**أنت عضدي ونصيري، بك أصول، وبك أجول، وبك أقاتل**»(٢).

قوله: «**وإليك حاكمت**»، أي: تحاكمت إليك مع من خاصمني فليس إلى غيرك المحاكمة لا إلى كاهن ولا رئيس قبيلة ولا غيرهما.

قوله: «**فاغفر لي ما قدمت وما أخرت**»، أليس الرسول ﷺ مغفور له ما قدم وما أخر كما أسلفنا؟ فلماذا يقول هنا فاغفر لي ما قدمت وما أخرت؟

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٧)، وابن حبان برقم (٧٠٨)، وانظر: الدرر المنتشرة برقم (٦٣)، والبيان والتعريف برقم (٢٨٢)، وكشف الخفاء برقم (٤١٨).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٧٨٩٢)، وأبو داود برقم (٢٦٣٢)، والترمذي برقم (٣٥٨٤)، وابن حبان برقم (٤٦٧١)، والنسائي في الكبرى برقم (٨٥٣٦)، وانظر: المشكاة برقم (٢٤٤٠).

قال أهل العلم: هو تواضع منه ﷺ لربه واعتراف بالذنب والتقصير.

وقيل: قاله ﷺ ليتأسى به الناس من أمته ﷺ.

وكلا المعنيين وارد.

قوله: «**وما أسررت**»، يعني ما أخفيت من الذنوب والخطايا ومن الأمور التي لم تظهر للناس.

«**وما أعلنت**»، أي ما ظهر منها.

«**أنت المقدم وأنت المؤخر**»، أي: أنت تقدم الأمور كما تريد وتؤخرها كما تريد، فهذا هو الأحسن في معنى المقدم والمؤخر.

ولكن ليس القديم من أسماء الله كما قال بعض الطوائف.

لأنه لم يرد في الكتاب ولا في السنة.

ويغني عنه اسم (الأول)، يقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]، فالأسماء والصفات توقيفية لا يزاد فيها.

ولا يخترع له سبحانه صفة أو اسم لم يرد في الكتاب والسنة.

ثم صفاته تعالى صفات كمال لا نقص فيها، وهي لا تشابه صفات المخلوقين.

ما ثبت للمخلوق من صفة كمال فلله أحسن منها سبحانه وتعالى، فإذا سمى أحد عباده (كريماً) أو (حليماً) فهو أكرم منه وأحلم.

لكن كرمه وحلمه ليس ككرم وكحلم العبد، بل هو يليق بجلاله.

أما عدد أسماء الله فقد صح في حديث أبي هريرة: «**إن لله تسعة**

وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»[١].

لكن السؤال: هل لله أسماء غيرها؟

نقول: نعم، فهي لا تحصر في التسعة والتسعين لما ثبت في حديث ابن مسعود بسند حسن كان ﷺ يقول: «**اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك»**[٢]، فدل على أن هناك أسماء لم يعلمها الناس ومنهم الأنبياء.

أخيراً.. متى يقول رسول الله ﷺ هذا الدعاء الوارد في حديث ابن عباس رضي الله عنهما؟

هل يقوله قبل التكبير أم بعده؟

الصحيح أنه يقوله بعد التكبير، ذكر ذلك ابن خزيمة بسند صحيح[٣].

أسأل الله أن يجعلنا من عبّاد الليل الذين يتهجدون له سبحانه في الأسحار، ويدعونه رغباً ورهباً كما قال الشاعر:

عبّاد الليل إذا جنّ الظلام بهم   كم عابد دمعه في الخد أجراه

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢)، ومسلم برقم (٢٦٧٧).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٣٧٠٤، ٤٣٠٦)، وابن حبان برقم (٩٤٨)، وانظر: المشكاة برقم (٢٤٥٢).

(٣) أخرجه برقم (١١٥٢).

الوصية التيمية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقدوة الناس أجمعين وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد:

في هذه الرسالة ستجدون أبا العباس ابن تيمية البطل المجاهد الزاهد العابد، العلامة، النحرير، الكاتب العبقري، يهدي لكم هدية، ويوصي لكل مسلم وصية.

ولسان حاله يقول:

أما والذي شق القلوب وأوجد الـ
ـمحبة فيها حيث لا تتصرم

وحملها جهد المحب وإنه
ليضعف عن حمل القميص ويألم

لأنتم على بعد الديار وقربها
أحبتنا إن غبتم أو حضرتم

وقصة هذه الوصية أن أحد الحجاج المغاربة واسمه (أبو القاسم المغربي) مر بدمشق لأنه يسمع بابن تيمية في بلاده، فكان متلهفاً لرؤيته، فلما رآه ذهل من شخصيته، وكتب له كتاباً أو سؤالاً يقول

فيه: [يتفضل الشيخ الإمام بقية السلف وقدوة الخلف، أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية بأن يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني ودنياي، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادي في علم الحديث، وكذلك غيره من العلوم الشرعية، وينبهني على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات، ويبين لي أرجح المكاسب، كل ذلك على قصد الإيماء والاختصار، والله تعالى يحفظه والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته][1].

فهو يريد وصية تنفعه في الدنيا والآخرة بشرط أن تكون مختصرة لأنه يعلم أن ابن تيمية إذا سل قلمه وملأه حبراً فإنه لا يقف حتى ينتهي المداد مرات عديدة، فتكون الوصية مجلداً كاملاً.

ففهم ابن تيمية مراده ومقصوده، فكتب له جواباً سوف أذكر بعضه بين الأقواس.

(الحمد لله رب العالمين).

فهو دائماً في أول إجاباته يبدأ بالحمد لله رب العالمين، ثم لأن الرسول ﷺ ورد عنه قول: «**كل أمر لا يبْدأ فيه بحمد الله فهو أبتر**». وفي لفظ: «**بذكر الله**»، وفي لفظ: «**ببسم الله**»، وقد ضعفت بعض الروايات[2]، لكنها في مجموعها تصل إلى درجة الحديث الحسن، فهو دائماً يستفتح بحديث الواحد الأحد، وهي مناسبة جداً، فإنه يحمد الله على نعمة العلم ونعمة الفهم، والفقه في الدين.

وكان من هديه ﷺ في الخطب أنه كان يستفتحها بالحمدلة،

---

(١) الفتاوى (١٠/٦٥٣).

(٢) الحديث عند أحمد برقم (٨٤٩٥) والدارقطني برقم (٨٦٨) بلفظ: «بذكر الله»، وعند أبي داود برقم (٤٨٤٠)، وابن ماجه برقم (١٨٩٤) بلفظ: «بالحمد»، وانظر: المشكاة برقم (١٣٥١)، والإرواء برقم (١).

والرسائل بالبسملة، فكأن ابن تيمية يخطب الآن بقلمه.

ثم قال: (أما الوصية فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: ١٣١]، هذه وصية الله التي أوصى بها في كتابه، وهكذا الرسول ﷺ، أوصى بها في السنة).

فلا وصية لله أعظم من وصيته بالتقوى سبحانه وتعالى، وهي وصية للأولين والآخرين.

قال ابن القيم في كتاب الفوائد: قال سليمان عليه السلام: تعلمنا مما تعلم الناس، ومما لم يتعلم الناس، فما وجدنا كتقوى الله، فإذا أردت أن توصي حبيبك أو ابنك أو صاحبك أو جارك فأوصه بتقوى الله.

قال طلق بن حبيب: التقوى هي أن تفعل الحسنة على نور من الله تخشى عقاب الله.

وابن تيمية نفسه يقول: تقوى الله هي العمل بالمأمور وترك المحذور.

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تقوى الله هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

فمن لم يخف الله فليس بمتقٍ. والعمل بالتنزيل أي بالكتاب والسنة، والرضا بالقليل من الدنيا والاستعداد ليوم الممات.

وعرفها بعض علماء السنة، فقالوا: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية.

ثم قال ابن تيمية: (ووصى النبي ﷺ معاذاً لما بعثه إلى اليمن فقال: «**يا معاذ، اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها،**

وخالق الناس بخلق حسن»[1])، وهذا الحديث حسن رواه الترمذي وغيره.

قال ابن تيمية: (أما بيان جمعها)، أي جمع هذه الوصية: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**».

(فلأن العبد عليه حقان: حق لله تبارك وتعالى، وحق لعباده). والحق الذي لله كأن يقصر فيه، فقال: «**اتق الله حيثما كنت**».

وقوله: «**حيثما كنت**»، أي في أي مكان كنت، وفي السر والعلن، فإنك تحتاج لتقوى الله أحوج من الماء البارد، أو من الهواء، والذي لا يتقي الله يصيبه الخذلان كثيراً وتضل أموره، حتى أنه لم يتعكر أمر ولم يمنع رزق، ولم تجف عين، ولم يقس قلب إلا بالمعصية وعدم التقوى.

يقول أحد السلف: أنا أنظر كل يوم في المرآة إلى وجهي هل اسود من الخطايا أم لا.

وهو من التابعين الكبار.

ويقول أبو سليمان الداراني: والله إني أحياناً أعصي الله فأجد ذلك في خلق دابتي وخلق امرأتي.

حتى الدابة لا توافقه.

ولكن من المعصوم منا؟

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٠٨٤٧، ٢٠٨٩٤)، والترمذي برقم (١٩٨٧)، والدارمي برقم (٢٧٩١) عن أبي ذر رضي الله عنه، وأخرجه أحمد برقم (٢١٤٨٢، ٢١٥٥٤)، والترمذي برقم (١٩٨٧) عن معاذ رضي الله عنه، وانظر: المشكاة برقم (٥٠٨٣)، وكتاب العلل للدارقطني برقم (٩٦٧).

لا أحد.

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وعند مسلم في الصحيح مرفوعاً: «**والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»[١].

وعند الترمذي بسند حسن: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»[٢]، فكلنا أهل خطيئة، ومن قال بأنه ما أذنب قط فقد كذب على الله.

يقول ابن تيمية: والذنب كالختم على العبد مكتوب عليه أن يذنب لكن ليستغفر ويعود إلى الله.

فلما علم عليه الصلاة والسلام أن العبد سوف يخطىء ويذنب لا محالة قال: «**وأتبع السيئة الحسنة**». فإذا فعلت سيئة فافعل حسنة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هُود: ١١٤].

سبب نزول هذه الآية كما في الصحيح: أن رجلاً من الأنصار نظر إلى امرأة مجرد نظر، وبعض الروايات تقول قبلها قبلة حرام فذهب يبكي ويولول ويصيح إلى محمد ﷺ.

انظر إلى الأبطال، وانظر إلى من عرفوا طريقهم إلى الله، عندما أخطأ أحدهم خطأً شكا حاله إلى الرسول ﷺ، وهو مستعد لأن يتحمل أي شيء من أجل هذه السيئة ليعود إيمانه وسعادته من جديد.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٤٩)، وأحمد برقم (٧٩٨٣، ٨٠٢١).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٢٦٣٧)، والترمذي برقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه برقم (٤٢٥١)، والدارمي برقم (٢٧٢٧)، والحاكم برقم (٧٦٩١)، وانظر: المشكاة برقم (٢٣٤١).

فأتى هذا الرجل إلى الرسول ﷺ يشكو قائلاً: قبلت امرأة لا تحل لي فماذا علي؟

قال ﷺ: «**لا أدري**»، أي لا يعلم ﷺ ما هي الكفارة.

والرسول ﷺ قال في حياته: «**لا أدري**»، ثلاث مرات كما بين ذلك بعض العلماء، وقيل أكثر من ذلك ولعله الأقرب.

يقول: «**لا أدري أتبع نبي أم لا؟**»[١]. والحديث صحيح.

«**ولا أدري هل ذو القرنين نبي أم لا؟**»[٢]، و «**لا أدري هل الحدود كفارات أم لا؟**»[٣].

قال علي بن أبي طالب: من فاتته لا أدري أصيبت مقاتله.

وقالوا: من أجاب الناس على كل سؤال فهو مجنون.

«**ولا أدري**»[٤] نصف العلم، ولا أدري نصف الجهل، فعليك بلا أدري، ولا عليك من غضب الناس.

فأنزل الله عليه ﷺ بعد ساعات: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤]. فدعا الرجل وتلاها عليه.

أي: صلِّ الفرائض، وقيل: تنفل في أول الليل وفي آخره. وقيل: في طرفي النهار فتذهب عنك السيئات.

قال: ألي هذه يا رسول الله خاصة؟

---

(١)(٢)(٣) أخرجه الحاكم برقم (١١٢)، وأخرجه أبو داود برقم (٤٦٧٤)، والبيهقي في السنن برقم (١٧٩٥٢)، والحاكم برقم (٢٢١٤) ولفظه: «أتبع لعيناً».

(٤) كما ورد في أثر عن الشعبي أخرجه الدارمي برقم (١٨٠).

قال ﷺ: «**بل لك ولكل من عمل بعملك من أمتي إلى يوم القيامة**»(١).

بشرى لنا معشر الإسلام أن لنا
من العناية ركناً غير منهدمِ
لما دعا الله داعينا لطاعته
بأكرم الرسل كنا أكرم الأممِ

لقد جئنا متأخرين عن الأمم، لكننا أول من يدخل الجنة، ونحن أهل التخفيف في التوبة، قال موسى لما سمع بفضل أمة محمد وأجورها: «يا رب اجعلني من أمة محمد».

وصح عند النسائي وعند أحمد أن الرسول ﷺ لما رأى التوراة بيد عمر غضب وقال: «**أمتهوّكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي، أما أتيت بها بيضاء؟**»(٢)، أي: إننا لا نحتاج إلى شرائع وثقافات، وعلم من غير الكتاب والسنة اللذين احتويا على أعلى الأمور وأقلها، من لا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق إلى كيفية الاستنجاء والاستجمار والاستنثار والمضمضة.

والشاهد أنه لا بد للعبد أن يذنب ولكن: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: ١١٤].

قال عليه الصلاة والسلام: «**وخالق الناس بخلق حسن**»، الخلق الحسن كما قال الإمام أحمد: أن لا تغضب.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢٦، ٤٦٨٧)، ومسلم برقم (٢٧٦٣)، وأحمد برقم (٣٦٤٥، ٤٠٨٣)، وأبو داود برقم (٤٤٦٨)، والترمذي برقم (٣١١٤).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٤٧٣٦)، والدارمي برقم (٤٣٥)، وابن أبي شيبة برقم (٢٢١٦٣)، وانظر: المشكاة برقم (١٧٧).

والصحيح أنه لا بد للإنسان أن يغضب.

يقول الشافعي: من استُغضب ولم يغضب فهو حمار!!

فإنسان مثلاً يرى المعاصي ويرى الفواحش ثم يبتسم.

فإذا قيل له ما لك؟

قال: لقد أعطاني الله حلماً!

نقول: بل هذه بلادة وغباوة، فإذا لم تغضب في هذا الموضع فمتى يكون الغضب؟

وقالوا عن الحسن: هو وجه طليق وكلام سهل.

وقالوا: هو بذل الندى، وكف الأذى.

وقالوا: هو أن تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وهذا يروى في حديث عنه ﷺ، لكن في سنده نظر: «**إن الله أمرني أن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني**»[1]، ولكنه عليه الصلاة والسلام فعله في حياته، فوصل من قطعه وعفا عمن ظلمه وأعطى من حرمه.

وفي الحديث الصحيح يقول ﷺ ـ كما عند البخاري ـ: «**ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**»[2].

أيها المسلمون: هذا جماع الخلق الحسن.

قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: ٤].

قال مجاهد: هو الدين العظيم.

---

(١) رواه رزين، وانظر: المشكاة برقم (٥٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩١)، وأحمد برقم (٦٤٨٨، ٦٧٤٦)، وأبو داود برقم (١٦٩٧)، والترمذي برقم (١٩٠٨).

فخلقه ﷺ عظيم في الدين، والمعاملة، والاعتقاد، والأحوال، والصفات.

ثم قال ابن تيمية: (وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات فإنه أبلغ في المحو).

وهذا مثل إنسان كان يستمع الغناء فكيف يكون المكفّر له إذا تاب؟

المكفر أن يكثر من سماع القرآن والأشرطة الإسلامية.

إنسان كان يجالس البطالين والعطالين والفجرة، فليكثر من مجالسة الصالحين، هذا مقصود ابن تيمية.

قال: (والذنوب يزول موجبها بأشياء.

أحدها: التوبة)، فإن التوبة كما صح عند مسلم تجبُّ ما قبلها[1]، ولا يتعاظم الله عز وجل ذنب أن يغفره أبداً.

والله عز وجل يغفر ذنوب العبد إذا تاب وأناب ولو كانت ذنوبه ملء السموات والأرض، بشرط أن يصدق في التوبة ويخلص: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عِمـرَان: ١٣٥]، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

ولكن من أصر على صغيرة فهي كبيرة ويخشى عليه.

وقد لام كثير العلماء ـ مثلاً ـ مجنون ليلى عندما قال في بيتين له:

(١) أخرجه مسلم برقم (١٢١)، ولفظه: «الإسلام يهدم ما كان قبله».

أتـــوب إلـــيـــك يـــا رحـــمـــن مـــمـــا
جـنـت نـفـسـي فـقـد كـثـرت ذنـوب
وأمـــا مـــن هـــوى لـــيـــلـــى وتـــركـــي
زيـــارتـــهـــا فـــإنـــي لا أتـــوب

يقول: كل شيء أتوب منه إلا حب ليلى.

فقالوا: إن ثبت عليه ما قال فهو من الذين أصروا على الذنب وهم يعلمون.

والثاني مما يمحو الذنوب والخطايا: (الاستغفار من غير توبة، فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب.

فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال).

فقد يغفر الله لك ولو لم تتب بقولك: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله.

والاستغفار له فوائد ثلاث:

أولها: ألا يقدم الله هلاكك في الدنيا.

يقول جعفر الصادق: لو نزلت صاعقة من السماء لأصابت كل عبد إلا المستغفر، لأن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

الثاني: أنها متاع حسن في الرزق والجسم والولد، قال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ [هُود: ٣].

والثالث: أنها زيادة في المال والولد، قال نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نُوح: ١٠-١٢].

قالوا لخالد بن معدان الزاهد العابد الكبير: كم تستغفر في اليوم؟

قال: مائة ألف إلا أن تخطىء الأصابع.

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**يا أيها الناس استغفروا الله وتوبوا إليه، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[١]، وفي رواية: «**مائة مرة**»[٢].

والثالث: من المكفرات التي تكفر الذنوب: الأعمال الصالحة. فوضوؤك كفارة، وصلاتك كفارة، وذكرك لله، واستغفارك، ودعاؤك، وحضورك مجالس العلم، واستفادتك من طلبة العلم، وحبك للصالحين، ودعاؤك بالسحر، وقيامك لليل، وصدقتك، كل هذه كفارات، ولن يهلك على الله إلا هالك، فأبواب الخير عدد الأنفاس، ولكن من يعمل بهذه المكفرات؟

قال: (وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض فإنه يختلف باختلاف الناس).

وصدق: فبعض الناس يناسبهم الذكر، وبعضهم الصيام، وبعضهم الجهاد، وبعضهم الإنفاق في سبيل الله، وبعضهم التعليم، وبعضهم نفع الناس، إلى غير ذلك من الأعمال.

ولذلك لا بد أن تعرف مستويات الناس وترشح كل إنسان لما يصلح له، كما فعل ﷺ.

جاءه ﷺ ـ كما في سنن الترمذي بسند صحيح عن عبدالله بن بسْر ـ شيخ كبير فوق السبعين من عمره، فقال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فدلني على شيء أتشبث به.

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٣٠٧)، وأحمد برقم (٧٧٣٤، ٨٢٨٨)، والترمذي برقم (٣٢٥٩).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٧٠٢)، وأحمد برقم (١٧٣٩١).

فماذا تتوقع أن يقول له الرسول ﷺ؟

هل يقول: عليك بقيام الليل؟

هل يقول: عليك بالجهاد في أفغانستان!

لا.. بل قال: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله**»(١).

وجاءه أبو سعيد الخدري، وإذا هو قوي البنية يسأله الوصية.

فقال له ﷺ: «**عليك بالجهاد في سبيل الله**»(٢).

وقال ﷺ لأبي أمامة: «**عليك بالصيام**»(٣).

وقال لأبي الدرداء: «**لا تغضب**»(٤).

وجاءه رجل من أهل اليمن يريد الجهاد، قال ﷺ: «**أعندك من والديك أحد**»؟

قال: نعم.

قال: «**ففيهما فجاهد**»(٥).

ولذلك لا بد للمسؤول إذا سئل عن مسألة أن يعرف حال السائل ليجيبه بما يهمه ويفيده.

ثم بين له ابن تيمية أن ذكر الله ـ عز وجل ـ دائماً هو أفضل ما

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٧٢٢٧، ١٧٢٤٥)، والترمذي برقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه برقم (٣٧٩٣)، وانظر: المشكاة برقم (٢٢٧٩).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١١٣٦٥)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (٧١١١).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٢١٦٣٦)، والنسائي برقم (٢٢٢٠ ـ ٢٢٢٣)، والبيهقي في السنن برقم (٨٤٩٢).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير، وقد أخرجه البخاري برقم (٦١١٦) «أن رجلاً قال له أوصني» ولم يسمه. انظر: البيان والتعريف برقم (١٧٣٥).

(٥) أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٤، ٥٩٧٢)، ومسلم برقم (٢٥٤٩).

شغل العبد به وقته بالجملة، وأن هذا شبه إجماع بين أهل العلم.

لأنه يشترك فيه الناس جميعاً، التاجر، والمسؤول، والموظف، والمزارع، والطالب، والأستاذ، والمرأة، يشتركون في ذكر الله لأنه ميسّر لكل أحد.

وقد صح عنه ﷺ من حديث أبي الدرداء أنه قال: «**ألا أنبئكم بأفضل أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**».

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «**ذكر الله عز وجل**»[1].

وصح عنه ﷺ عند مسلم أنه قال: «**سيروا، هذا جمدان** ـ وهو جبل ـ **سبق المفردون**».

قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟

قال: «**الذّاكرون الله كثيراً والذاكرات**»[2].

وصح عنه ﷺ عند البخاري من حديث أبي موسى أنه قال: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت**»[3].

وقال ﷺ كما عند مسلم: «**لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**»[4]، وفي لفظ: «**أو غربت**»، وقال ﷺ فيما صح عنه ـ وهذا الحديث عند

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١١٩٥، ٢٦٩٧٧)، والترمذي برقم (٣٣٧٧)، وابن ماجه برقم (٣٧٩٠)، ومالك في الموطأ برقم (٤٩٠)، وانظر: المشكاة برقم (٢٢٦٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٦)، وأحمد برقم (٨٠٩١، ٩٠٧٧).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٤٠٧).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٥).

الترمذي بسند صحيح وصححه الأئمة: «**من قال: سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»[١].

فأوصيكم بالذكر تسبيحاً وتحميداً وتهليلاً، أنت في المجلس أو في السيارة، أو في الطائرة، أو في المكتب، لعل الله أن يرفع درجتك في الجنة.

في حديث ضعيف عند الترمذي أن الرسول ﷺ لما عرج به مر بإبراهيم، فقال إبراهيم عليه السلام: «**يا محمد، أقرىء أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر**»[٢]، فالمطلوب من المسلم أن يحيي بيته بهذه الأذكار، وأن يدخل القرآن بيته، وأن يدخل الدعوة بيته، وأن يدخل الإيمان بيته، وأن يخرج كل ما يعرضه لغضب الله وعذاب الله، ليكون بيته من بيوت أهل الإيمان والاستقامة.

ثم انتقل ابن تيمية بعد ذلك ليبين أفضل المكاسب.

عند الحاكم والبزار بسند صحيح أنه ﷺ سئل: ما أطيب الكسب؟

قال ﷺ: «**عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور**»[٣].

واختلف أهل العلم في أشرف المكاسب:

فبعضهم قال: الزراعة، وهذا قول الشوافع.

وبعضهم قال: التجارة، فإن تسعة أعشار الرزق من التجارة.

وبعضهم قال: بل من عمل اليد لقوله ﷺ في الصحيح: «**ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٦٤، ٣٤٦٥)، وابن حبان برقم (٨٠٣)، والنسائي في الكبرى برقم (١٠٥٦١)، والحاكم برقم (١٩٢٤)، وانظر: المشكاة برقم (٢٣٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٦٢)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٦٨٦٣)، والمشكاة برقم (٢٣١٥).

(٣) أخرجه أحمد برقم (١٦٨١٤)، والحاكم برقم (٢١٩٩)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (٦٢١٠)، والمشكاة برقم (٢٧٨٣).

السلام كان يأكل من عمل يده»[1]، حيث كان حداداً.

ولذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سَبَأ: ١٠]. يقولون: كان الحديد في يد داود بقدرة الأحد مثل العجينة، فكان يعمل منه الدروع للحروب.

وكان آل داود وعددهم ستة وثلاثون ألفاً كلهم لا يأكلون إلا من كسب أيديهم.

وكان زكريا نجاراً عليه السلام.

وكان إدريس خياطاً، وكان لا يدْخل الإبرة ويخرجها إلا ويقول أربع كلمات: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

حتى قال الله له: يا إدريس أما تدري لماذا رفعتك مكاناً علياً؟

لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريَم: ٥٧].

قال: لا أدري يا رب.

قال: يرتفع إلي من عملك كل يوم مثل نصف أعمال أهل الدنيا من كثرة الذكر.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: ١٠].

وقال ابن حجر: وأرجح المكاسب وأحسنها هو الجهاد في سبيل الله والغنائم.

وأكثر رزق الرسول ﷺ من الغنائم في سبيل الله.

وعند أحمد بسند صحيح أنه ﷺ قال: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي**»، يعني في الجهاد «**وجعل الذل والصغار على من خالف أمري،**

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٠٧٢)، وأحمد برقم (١٦٧٢٩).

ومن تشبه بقوم فهو منهم»[١].

والشاهد: «**وجعل رزقي تحت ظل رمحي**»، فالجهاد أشرف ما يمكن أن تكسب به.

ولكن يقول ابن تيمية: أما أرجح المكاسب فالتوكل على الله.

وهذا جواب لأهل القلوب والتزكية.

قال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [العَنكبوت: ١٧]، فلا يرزق إلا الله.

قال ابن الجوزي في صفة الصفوة: رأى أحد العباد عصفوراً يقْبل بقطعة لحم كل يوم ويدخل بها في نخلة، فعجب لأن العصفور في العادة لا يعشعش في النخلة.

قال: فتسلقت النخلة فرأيت فيها حية عمياء، كلما اقترب العصفور أحدث لها صوتاً فتفتح فمها فيضع اللحم في فمها ويعود.

فمن الذي علم العصفور أن يعطي الحية رزقها؟

إنه الواحد الأحد، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هُود: ٦].

فأرجح المكاسب عند ابن تيمية هو: التوكل على الله والثقة بكفايته وحسن الظن به، ثم أتى بالحديث القدسي عن الله: «**كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم**»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٥٠٩٣، ٥٠٩٤، ٥٦٣٤)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (١٥١٥١)، وفي مسند الشاميين برقم (٢١٦)، وعبد بن حميد في المنتخب برقم (٨٤٨)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (٩٣٧٩)، والعلل للدارقطني برقم (١٨١١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧)، وأحمد برقم (٢٠٩١١).

ولئن شكرتم لأزيدنكم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الذين بدلوا نعمة الله كفراً هم قريش عندما جاء إليهم محمد ﷺ فكذبوه ولم يطيعوه.

وقال كثير من المفسرين أن كل من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار.

قال تعالى: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢١١] ولم يقل **(نعم) الله، لأن النعمة الواحدة إذا لم تشكر فكيف بالنعم كلها؟**

ولذلك قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ولم يقل نعم الله.

وعند أحمد في كتاب الزهد بسند مرفوع إلى رب العزة والجلال أنه قال: «**عجباً لك يا ابن آدم، خلقتك وتعبد غيري، ورزقتك وتشكر**

سواي، أتحبب إليك بالنعم وأنا غني عنك وتتبغض إلي بالمعاصي وأنت فقير إليّ، خيري إليك نازل وشرك إليّ صاعد)[١].

وهذا شأن العبد عندما يترك منهج الله تبارك وتعالى ويرتكس ويعرض عن الطريق المستقيم الذي أتى به محمد ﷺ.

ذكر أهل السير أن موسى بن عمران عليه السلام كان جريئاً شجاعاً في الأسئلة، فهو الذي يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعرَاف: **١٤٣**]، لم يقلها أحد من الناس، بل قالها موسى عليه السلام، يقول في سؤال: يا رب أسألك مسألة.

قال: ما هي يا موسى؟

قال: أن تمنع ألسنة الناس أن تتكلم فيّ عند غيابي.

فقال الله عز وجل: يا موسى ما اتخذت ذلك لنفسي، إني أرزقهم وقد خلقتهم، وأعافيهم، ويقولون أني اتخذت صاحبةً وولداً، وأنا الله لا إله إلا أنا لم أتخذ صاحبةً ولا ولداً.

وفي حديث عند البخاري «**يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذبني وما ينبغي له، أما شتمه فقوله: إن لي ولداً، وأما تكذيبه فقوله: ليس يعيدني كما بدأني**»[٢]، وفي حديث آخر: «**قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار**»[٣].

وعن عمر رضي الله عنه وأرضاه وسند الحديث إليه حسن أنه دخل على إبل الصدقة فرآها حمراً، فقال له أحد الناس: يا أمير

---

(١) أخرجه الديلمي عن علي رضي الله عنه، انظر: كنز العمال برقم (٤٣١٧٤)، وفيض القدير (٤/٤٩٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣١٩٣، ٤٩٧٤، ٤٩٧٥)، وأحمد برقم (٨٣٩٨، ٢٧٤٤٢).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٨٢٦، ٦١٨١، ٧٤٩١)، ومسلم برقم (٢٢٤٦).

المؤمنين صدق الله يوم يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يُونس: ٥٨].

قال عمر: أتظن أن الرحمة هي الإبل؟ لا والله، أتدري ما رحمة الله؟

قال: لا.

قال: هي العمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو رحمة الله، وتترك المعصية بنور من الله، تخاف عذاب الله.

فالرحمة والنعمة ليست الثياب ولا السيارات ولا القصور، لأننا رأينا الناس يوم كثرت فيهم النعم الدنيوية أعرضوا عن الله وعن المسجد وعن القرآن وعن الرسالة، وتحولوا إلى عصاة، وتحولت شواطئهم كما نرى ونشاهد إلى منتجعات للنساء ولممارسة الاختلاط والتهتك.

ولكن النعمة الحقيقية هي نعمة الإيمان، ونعمة الإسلام، ونعمة القرآن.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ [النّحل: ١١٢]، انظر إلى التعبير والروعة: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١١٢﴾ [النّحل: ١١٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: القرية الآمنة المطمئنة هي مكة، كانت آمنة مطمئنة يسوق الله لها أرزاقها من أنحاء الدنيا فكفرت برسالة محمد ﷺ، فجعلهم الله شذر مذر.

ونقول: يا ابن عباس لقد صدقت، ولكن يدخل في ذلك كل قرية أعرضت عن منهج الله، ولو كانت قريبة منا وحبيبة على قلوبنا.

يدخل في ذلك كل قرية أو مدينة لم تعرف نعمة الله، ولم تقدر لا إله إلا الله، ولم تنضوِ تحت مظلة الله أكبر، فهي قرية أعلنت فسوقها وعصيانها.

ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

قال أهل التفسير: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، أي كثرنا مترفيها من الرجال والنساء الذين من ترفهم أنهم ازدادوا فجوراً.

تخرج الفتاة بلا حجاب وتسفر عن وجهها وتضيع قرآنها وحجابها ودينها وعفافها وزوجها وبيتها، وتجوب الأسواق مع الخياطين والباعة وتصل إلى الشاطىء.

أحد العرب الأوائل من أصحاب الغيرة نظر إلى امرأته فرآها تنظر إلى رجل فقال: عجيب! أتنظرين إلى رجل، والله لا تحلي لي.

ونظم قصيدة رائعة يقول فيها:

إذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كنّ الكلاب ولغن فيه

فكيف لو رأى هذا الأعرابي شواطئنا وأسواقنا؟

كيف لو رأى الفتاة التي تخرج بلباس يستحي الرجل من لبسه؟

والشاهد قول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ [الإسراء: ١٦]، فإن الله يدمرها ويفنيها ويقسي قلوب أصحابها، ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

ويقول سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ [الحج: ٤٨]، وكأين عند النحاة للتكثير، أي: كم من قرية.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾ [الطلاق: ٨].

كحال لبنان عندما عاشت الظلال والبساتين، وعاشت الندى والظل، وعاشت الثلج والزهر، وعاشت الفجر والنسيم.

لكنها أعرضت عن منهج الله، فما كان يؤذن في مساجدها إلا قليلاً، وما كان هناك طلبة علم يبينون النهي والمنكر، فأصبحوا كحال من قيل فيهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

فغضب الله، وإذا غضب الله فإن غضبه أليم شديد: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، فأخذهم الله بحرب وسلب ونهب وتقتيل وخوف ومجاعة حتى سمع أطراف العالم بمآسي لبنان وبدموع لبنان وبجراح لبنان.

ويقول الله عن قرية في اليمن عاشت الخير والنعيم ولكنها بدلت النعمة كفراناً فحل بها البوار، يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

قال الشاعر:

زيادة المرء في دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران

وكل وجدان قوم لا ثبات له ... فإنما هو في التحقيق خسران

لقد أعرضوا عن منهج الله.

قال ابن كثير وغيره من المفسرين: أعطى الله كل رجل من سبأ بجانب بيته بستانين ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سَبَأ: ١٥]، بستان عن يمينه وبستان عن يساره، وشجر متدل، ونعيم خالد، وظل وارف، وماء بارد، وطيور ترفرف، وحياة رغيدة.

كحالنا الآن، شقق وقصور وفلل وسيارات ورغد ومطاعم ومشارب، لكن هناك من يفسد ويريد أن لا ينكر عليه، من يفجر ويريد أن يسكت عنه، ومن يفحش، ومن يخادع الدين، ومن يقيم المنكر، ومن يعارض الصالحين، ومن يستهزىء بالرسالة، ومن يعارض المسجد، ومن يقاطع لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال ابن كثير عن سبأ: كان الرجل يذهب بمكْتله على رأسه فيمتلىء المكتل من الثمار التي تسقط في المكتل.

ولكنهم ما قدروا هذه النعم، فأعرضوا تماماً وجاهروا بالمعاصي.

لأن بعض الناس يحارب الله جهاراً، فهو يقاطع المسجد ولا يعرف الصلاة ولا يسجد سجدة، لكن ليله ونهاره تطبيل.

متى يهديك قلبك وهو غاوٍ   إذا حسناته أضحت خطايا

ونحن نقول: ليت السيئة عليهم فتأخذهم وتتركنا، لكن الشر يعم والخير يخص.

نعم إذا لم ننه ولم نأمر ولم ندعُ ولم ننكر، فإن معنى ذلك أننا سوف نجتاح معهم كلنا، وسوف يغضب الله علينا جميعاً، نعوذ بالله من غضب الله.

فماذا فعل الله بقرى سبأ؟ هل حاربهم بجيش أو أنزل عليهم ملائكة؟

لا.. هم أحقر من ذلك.

قال بعض العلماء: يا مسكين العزم، يا فقير الإرادة، أتحارب الله؟

أتحارب الله الذي لما حاربه النمرود بن كنعان أرسل عليه بعوضة فقتلته.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

لقد غضب الله عليهم، فأرسل عليهم فأراً فتحت السد فهوى السد فاجتاحهم الماء فصاروا شذر مذر.

بكى الأطفال، وبكى الشيوخ، وبكى النساء، لكن ولات ساعة ندم.

كذلك من يخرج عن شريعة الله، ومن يتذمر من رسالة الله، ومن يغضب الله، يكون هلاكه بشيء ذليل حقير ليعرف قدر نفسه.

فيا إخوتي فى الله.. الله الله في نعم الله التي لا تحفظ إلا بالشكر.

يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

البرامكة أسرة عاشت في عهد العباسيين، كانوا يطلون قصورهم بماء الذهب، لكن أعرضوا عن الله فما عدلوا وما خافوا الله، بل جمعوا كأس الخمر والفتيات والغانيات في قصورهم.

فحذّرهم أحد العلماء وقال لهم: انتبهوا إن النعم لا تفيد إلا بالشكر.

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم
وحافظ عليها بتقوى الإله ... فإن الإله سريع النقم

لكن ما فعلوا.

وفي لحظة من اللحظات غضب الله عليهم فأهلكهم بأقرب الناس إليهم: هارون الرشيد، فاجتاحهم بالسيف فقتل شبابهم ضحى وأخذ شيوخهم وهم يتباكون إلى السجن فحبسهم.

فكان يحيى بن خالد البرمكي أحدهم يبكي في السجن سبع سنوات.

قال له أحد الناس وقد زاره في السجن: ما هذا البلاء يا يحيى؟

قال: عصينا الله فأصابتنا دعوة مظلوم سرت في ظلام الليل غفلنا عنها وما غفل الله عنها.

سبحان الله! دعوة المظلوم، دعوة الصالحين في ظلام الليل.

قيل لعلي بن أبي طالب: كم بين التراب والعرش؟

قال: دعوة مستجابة يرفعها الله على الغمام ويقول: «**وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٥].

قيل لأحد علماء السلف: ما هو الشكر؟

قال: شكر العين البكاء من خشية الله، لا بكاء الطرب، لأن بعض الناس إذا سمع الموسيقى بكى، لكنه لا يبكي عند سماع القرآن ولا عند تلاوة الذكر.

كان أبو بكر وعمر والصحابة تتبلل لحاهم بالدموع إذا سمعوا آيات الله تتلى.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٧٩٨٣، ٩٤٥٠)، والترمذي برقم (٢٥٢٥، ٣٥٩٨)، وابن ماجه برقم (١٧٥٢)، وابن خزيمة برقم (١٩٠٢)، وابن حبان برقم (٨٥٠)، وانظر: المشكاة برقم (٢٢٤٩).

قال: شكر العين البكاء، وشكر القلب الحياء من الواحد الأحد، إذا استجاب القلب لله فقد سعد في الدنيا والآخرة.

«**والحياء لا يأتي إلا بخير**»[١].

يقول الشافعي: والله لو علمت أن شرب الماء ينقص من حيائي ما شربته أمام الناس.

قلنا: يا شافعي، لله درُّك، والله لقد وجد من الجيل من تفسخ عن شريعة الله بلا حياء، وأدبر عن المسجد بلا حياء، ونقض عرى الإسلام بلا حياء، وكفر بالله بلا حياء، وسب الرسول بلا حياء، وهجر القرآن بلا حياء.

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستح فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

الحياء جلباب ومنعة من الله على وجه العبد ليستحي من الله إذا همَّ بمعصية.

فعينه تقول: انظر، والحياء يقول: لا تنظر.

أذنه تقول: اسمع، والحياء يقول: لا تسمع.

رجله تقول: امش، والحياء يقول: لا تمش في معصية الله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قال بعض العلماء: النعمة قسمان، نِعْمة ونَعْمة بالكسر والفتح.

فالنِّعْمة يدخل فيها ما قرب إلى الله الواحد الأحد.

---

(١) وذلك كما ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري برقم (٦١١٧)، ومسلم برقم (٣٧).

والنِّعْمة بالفتح هي نعمة يشترك فيها الناس، جميعاً، مسلمهم وكافرهم، إنسانهم وحيوانهم.

قال الله عن هذه النعمة: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ٣]، فالله عز وجل جعل لهؤلاء أكلاً وشرباً كغيرهم، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [الفُرقان: ٤٤]. كالأنعام في شربهم، وكالأنعام في أكلهم، وكالأنعام في خروجهم ودخولهم.

ولذلك لما وصفهم الله في موضع آخر أخبر أنه أعطاهم الإرادات والجوارح والأعضاء ولكنهم ما استعملوها في الخير، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩]، من هو الأعمى؟

الأعمى ليس هو الذي عميت عيناه.

الأعمى الذي عمي قلبه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحجّ: ٤٦].

وفي الرعد: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝١٩﴾ [الرّعد: ١٩].

أفمن يعلم أن المسجد خير من المقهى، وأن المصحف خير من المجلة الخليعة، وأن التلاوة خير من الأغنية الماجنة، وأن صحبة الأخيار خير من الأشرار... كمن ارتكس على رأسه، وأعرض عن طاعة الله، وأصبح شيطاناً يقول لسان حاله:

وكنت امرؤاً من جند إبليس فارتقى ... بي الحال حتى صار إبليس من جندي

يقول: كنت في فترة من الفترات أطيع إبليس، فقرّبني إبليس ثم مضى بي الحال فترقيت حتى أصبحت أنا الذي أسيّر إبليس! ولذلك يسمى هذا: المارد الإنسي.

والمارد الإنسي هو الذي يتعدى ضرره على الناس، فبعض الناس فاسد في نفسه، ولكن بعضهم يفسد نفسه ويفسد بيته ويفسد مجتمعه ويفسد إخوانه.

فهو أينما ذهب أفسد. بخلاف الذي أينما ذهب أصلح فهو مبارك، قال الله سبحانه عن أحد الصالحين من الأنبياء والمرسلين: ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريَم: ٣١]، قالوا: كلما حل في بلدة كان مباركاً.

قال المتنبي:

وكذا الكريم إذا أقام ببلدة   سال النضار بها وقام الماءُ

الكريم إذا حل في مجلس تحول المجلس إلى روضة من رياض الجنة، وإذا ما سافر معك أسعدك، وإذا صحبك آنسك، وإذا فارقك دعا لك، وإذا فارقته بكيت عليه.

وأما الفاسد فشؤم عليك، يحل معك فتحل معه الشياطين، وتحل معه المعصية والغضب من الله.

قال جعفر الصادق لابنه: لا تصاحب ثلاثة لأن الله غضب عليهم:

١ ـ لا تصاحب من عصى الله لأنه قطع الحبل بينه وبين الله.

٢ ـ ولا تصاحب عاقّ الوالدين فهو ملعون.

٣ ـ ولا تصاحب كذاباً، فإنه يقرب لك البعيد ويبعد منك القريب.

يا مسلمون، النعم التي آتاها الله للإنسان على قسمين كما سبق: نعمة يشترك فيها الناس جميعاً، ونعمة خاصة بالمسلمين دون غيرهم، وهي نعمة الإسلام والقرآن ونعمة الهداية.

ولذلك في الحديث الصحيح أن الدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب، وأما الدين فلا يعطيه الله إلا من يحب[(١)].

وفي الصحيحين: «**من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدين**»[(٢)].

لقد ارتفعت راية لا إله إلا الله من على الصفا.

يقول أحد العلماء: أذن مؤذن الفتح للقلوب على الصفا فأتى التوفيق يطفح، فقال أبو جهل: كفرت بلا إله إلا الله.

وقال أبو لهب: أعرضت عن لا إله إلا الله.

وقال سلمان الفارسي في أرض فارس: لبيك اللهم لبيك.

وأتى بلال من أرض الحبشة يقول: الله أكبر.

فقال له ﷺ: «**أقم الصلاة يا بلال، أرحنا بها يا بلال**»[(٣)].

وأتى صهيب فاشترى نفسه من الواحد الأحد فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٠٧].

وأتى خباب بن الأرت وهو يصلح السيوف يصقلها وكان مولى، فأعاده ليصقل القلوب حكمة بالغة.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٣٦٦٣)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٠٣٣٤، ٣٠٣٦٧)، والحاكم برقم (١٠٢)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٦٤، ١٧٦٩٧، ١٨١٠٤)، والمشكاة برقم (٤٩٩٤)، والعلل للدارقطني برقم (٨٧٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧١، ٣١١٦، ٧٣١٢)، ومسلم برقم (١٠٣٧).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٢٢٥٧٨، ٢٢٦٤٣)، وأبو داود برقم (٤٩٨٥، ٤٩٨٦)، وانظر: المشكاة برقم (١٢٥٣).

أبو جهل بأسرته يتدكدك في النار.

وبلال أنقذ نفسه، فقصره كالربابة في الجنة.

وقل لبلال العزم من قلب صادق أرحنا بها إن كنت حقاً مصلِّيا
توضأ بماء التوبة اليوم مخلصاً به تلق أبواب الجنان الثمانيا

دخل قيس بن حازم على سليمان بن عبدالملك الخليفة.

فقال سليمان لقيس بن حازم: ما لنا نكره الآخرة ونحب الدنيا؟

قال: لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم، فتكرهون الانتقال من العمار إلى الخراب.

نعم، فبعض الناس عمّر دنياه لكنه أخرب آخرته.

وبعض الناس لا يملك شيئاً، لكنه يملك في الدنيا إيماناً وصدقاً مع الله.

دخل هشام بن عبدالملك الحرم فرأى سالم بن عبدالله بن عمر العالم الكبير أحد الفقهاء السبعة يحمل حذاءه بيديه.. قيل: كانت عمامته وحذاؤه وثوبه بثلاثة عشر درهماً.

فرآه هشام الخليفة ومعه الأمراء والوزراء والحاشية فقال: يا سالم ألك إليّ حاجة؟

قال سالم: أما تستحي أن تقول لي هذا في بيت الله؟!

فلما خرج هشام انتظر سالماً حتى يخرج فقال له: سألتك يا سالم داخل الحرم فها نحن قد خرجنا: هل لك إليّ حاجة؟

قال: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟

قال: بل من حوائج الدنيا.

قال: والله الذي لا إله إلا هو، ما سألت الدنيا الذي يملكها فكيف أسألها منك أنت الفقير!!

مسكين.. يظن أن الإنسان إذا ملك الملايين أو القصور أو الدور أو البساتين أنه ملك الدنيا.

وما علم أن الغنى والثروة تكون في القلوب عندما تحيا بالإيمان.

خذوا كل دنياكم واتركوا فؤادي حرّاً طليقاً غريبا
فإني أعظمكم ثروةً وإن خلتموني وحيداً سليبا

الوليد بن المغيرة، قال أهل العلم: كان يكسر الذهب بالفؤوس، وكان يحلي الكعبة كل سنتين مرة.

وكان يمشي في الديباج وعنده عشرة أبناء.

لكن لما أتت لا إله إلا الله كفر بها وبدل نعمة الله كفراً.

فقال سبحانه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدَّثِّر: ١١-١٦].

فأهلكه الله شر هلكة، فلم تنفعه دوره ولا ثروته، لأنها قامت على معصية الله وكفران نعمه.

يا عامراً لخراب الدار مجتهداً بالله هل لخراب الدار عمران
ويا حريصاً على الأموال تجمعها أقصر فإن سرور المال أحزان

لقد خرج الصحابة من الجزيرة لا يملكون إلا ثيابهم وسلاحهم، فدخلوا قصور كسرى وقيصر والذهب يلوح.

فلما رأى سعد الذهب في قصر كسرى قال: الله أكبر (قيل في بعض الروايات أن الإيوان انصدع).

وقف سعد وعيونه تدمع من هذا النعيم الذي كفر أهله فأعرض عنه وقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدّخان: ٢٥-٢٩].

قال ابن كثير: لما فتح قتيبة بن مسلم المشرق أتي له بغنيمة كرأس الثور ذهباً خالصاً.

فقال للقادة حوله: أتدرون أن مسلماً يدفع له هذا الذهب فيقول: لا؟

قالوا: لا، ما نرى في الجيش أحداً يرفض هذا الذهب أبداً.

قال قتيبة وكان عبداً صادقاً مسلماً حنيفاً ولم يكن من المشركين: والله لأرينكم أناساً من أمة محمد ﷺ، الذهب عندهم كمثل التراب.

ثم أرسل إلى محمد بن واسع الأزدي العالم العابد الذي كان معه في الجيش الذي يقول فيه قتيبة وهو يبكي وقد سمع أنه يدعو الله للجيش: والله الذي لا إله إلا هو، لأصبع محمد بن واسع خير عندي من مائة ألف سيف شهير، ومائة ألف شاب طرير.

فأرسل بالذهب إلى محمد بن واسع، فلما رآه أخذه!!

فعادوا إلى قتيبة وقالوا: لقد أخذ محمد بن واسع الذهب.

قال: الله المستعان، اللهم لا تخيب ظني فيه.

فمرّ فقير بمحمد بن واسع يقول: من مال الله، من مال الله.

فأعطاه الذهب كله.

فقال قتيبة لما سمع بذلك: هكذا فلتكن الدنيا.

لما عظمنا الدين على الدنيا أذل الله لنا الدنيا، فلما عبدنا الدنيا ضاع منا الدين واستحوذ علينا أهل الدنيا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨]، والنِّعْمة بالكسر هي ما أعانك على طاعة الواحد الأحد، وهي ما ساعدك في طريقك إلى الجنة.

ولذلك جعل ﷺ المال مشتركاً وتألف به القلوب، لكن الإيمان جعله لناس من الناس لا يشركهم فيه أحد.

فتح الله على نبيه ﷺ في غزوة حنين، فلما أتت الغنائم ترك الأنصار فلم يعطهم شيئاً وهم الذين نصروه ببدر وأحد.

وأعطى الغنائم صناديد قبائل العرب الذين أسلموا قريباً ولم يشاركوا في الغزوات كما شارك الأنصار.

فوجد الأنصار في أنفسهم كشأن البشر وقالوا: غفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي الناس ويتركنا ونحن نصرناه وآويناه وحميناه.

فمضت المقالة وارتفعت إلى محمد ﷺ، فدعا سعد بن عبادة سيد الأنصار وقال: «**كيف مقالة سمعتها عنكم؟**».

قال: هي كما قيل ولم يقلها إلا فتياننا.

قال ﷺ: «**اجمع لي قومك**».

فجمعهم في قبّة.

فقال لهم ﷺ: «**يا أيها الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم؟**».

قالوا: هو كما سمعت يا رسول الله.

قال: «**يا معشر الأنصار، أما أتيتكم متفرقين فجمع الله شملكم بي**»؟

قالوا: المنة لله ولرسوله.

قال: «**أما أتيتكم فقراء فأغناكم الله بي**»؟

قالوا: المنة لله ولرسوله.

فرفع صوته وقال: «**يا معشر الأنصار، والذي نفسي بيده لو شئتم لقلتم ولصدقتم: أتيتنا طريداً فآويناك، وفقيراً فواسيناك، وشريداً فنصرناك**».

قالوا: المنة لله ولرسوله.

فرفع صوته وقال: «**يا معشر الأنصار، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله ﷺ، فوالله ما تذهبون به خير مما يذهب به الناس، غفر الله للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار، الناس شعار والأنصار دثار، لو سلك الناس شعباً أو وادياً لسلكت شعب الأنصار ووادي الأنصار**»[(١)].

فجاوبته دموع الأنصار حتى اخضلت لحاهم.

فبين لهم ﷺ أن الدنيا يعطيها الله لمن يحب ومن لا يحب، أما الدين فلا يعطيه إلا من يحب.

ويقول ﷺ في البخاري: «**يا أيها الناس، إني أعطي بعض الناس بما جبل الله في قلوبهم من الجزع والهلع، وأدع بعض الناس لما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى منهم عمرو بن تغلب**».

قال عمرو بن تغلب: كلمة ما أريد أن لي بها الدنيا وما فيها[(٢)].

يا شاباً مسلماً: أجزاء الشباب وصحة الأعضاء وسلامة البدن

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٣٧٧، ٣١٤٧، ٣٧٧٨، ٤٣٣١، ٤٣٣٢)، ومسلم برقم (١٠٥٩) عن أنس بن مالك، وأخرجه البخاري برقم (٤٣٣٠، ٧٢٤٥)، ومسلم برقم (١٠٦١) عن عبدالله بن زيد بن عاصم، وأخرجه البخاري برقم (٤٩٠٦)، ومسلم برقم (٢٢٥٠٦) عن زيد بن أرقم. وقد جمع المؤلف ما ساقه من جميع هذه الروايات.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٩٢٣، ٣١٤٥، ٧٥٣٥)، وأحمد برقم (٢٠١٤٩).

والأمن في الوطن أن تنقض عهدك بينك وبين الله، وأن تقطع حبل الصلة مع الله؟

يا فتاةً مسلمة كساها الله وحلاها وأنعم عليها وآواها ورعاها وحماها، ثم تخرج عن منهج الله لتفتن عباد الله.

أهذا جزاء النعم؟

أيها الإخوة: النعم كثيرة وهي على أقسام:

منها نعم ظاهرة كنعمة المال.

والمال نعمة أو نقمة، إن صرفته في مرضاة الله أسعدك الله به في الدنيا والآخرة.

فعبدالرحمن بن عوف دخل الجنة بماله.

ولذلك يخطىء من يظن من الشباب وغيرهم أن الإسلام حارب المال والاقتصاد.

لا.. بل الإسلام ضد الإسراف والترف والترهل.

أما إذا كان المال مسخراً لخدمة هذا الدين ومصروفاً في الطاعات فهو خير للعبد دنيا وآخرة.

قام ﷺ على المنبر فقال: «**من يجهز جيش العسرة وله الجنة؟**»[1]، هذا ضمان محمد ﷺ.

فقام عثمان من وسط الناس وقال: أنا أجهزه يا رسول الله بماله وأحلاسه وأقتابه وخيله.

---

(١) هذا ما حصل عندما فرج عثمان على الناس في الفتنة فقال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «**من يجهز..**» أخرجه البخاري برقم (٢٧٧٨)، وأخرجه أحمد برقم (٥١٣)، والنسائي برقم (٣١٨٢، ٣٦٠٩)، والدارقطني برقم (٤٣٤٢).

فدمعت عيناه ﷺ وقال: **«غفر الله لعثمان ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راضٍ، ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»**[(١)].

وهناك نعمة المنصب:

والمنصب قد يكون نصرة للإسلام، وقد يكون خصماً ضد الإسلام وعقبة كؤوداً في طريق الدعوة والدعاة الصالحين.

عمر بن عبدالعزيز تولى الخلافة، لكنه كان راشداً قاد الأمة إلى بر النجاة.

وأبو مسلم الخراساني تولى الإمرة فقتل من المسلمين ألف ألف، الحجاج قتل مئة ألف.

وأمرهم في كتاب عند ربي لا يضل ولا ينسى.

وفي الصحيحين عنه ﷺ أن ثلاثةً من بني إسرائيل أقرع وأبرص وأعمى أراد الله أن يبتليهم سبحانه وتعالى، فأرسل إليهم ملكاً، فذهب إلى الأقرع فقال: ماذا تريد؟

قال: أريد شعراً على رأسي يجمل رأسي فقد قذرني الناس.

فسأل الله أن يعطيه شعراً، فجمل الله رأسه بالشعر في لحظة، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

قال: ماذا تريد من العطايا؟

قال: أريد الإبل.

---

(١) بهذا اللفظ لم أجده والذي عند أحمد والترمذي القطعة الأخيرة منه «ما ضر عثمان» أخرجه أحمد برقم (٢٠١٠٧)، والترمذي برقم (٣٧٠١)، وأحمد في فضائل الصحابة برقم (٧٤١)، وانظر: المشكاة برقم (٦٠٧٣).

فدعا الله فأعطاه الله ناقةً فولدت حتى ملأت الوادي.

وذهب إلى الأبرص فقال: ماذا تريد؟

قال: أتمنى من الله أن يجمل جلدي ويذْهب هذا القذر عن جسدي والعيب لأكون جميلاً.

فسأل الله فرد الله عليه جلده الجميل في لحظة.

قال: ماذا تريد من المال؟

قال: أريد البقر.

فأعطاه الله بقرة فولدت حتى ملأت الوادي.

وذهب إلى الأعمى فقال: ماذا تريد؟

قال: أمنيتي أن يرد الله بصري لأرى.

قال: اللهم رد عليه بصره، فعاد البصر في لحظة.

قال: ماذا تريد؟

قال: الغنم.

فأعطاه الله شاة فولدت فملأت الوادي.

ثم عاد الملك إليهم في صورة فقير، ولله الحكمة البالغة.

فذهب إلى الأقرع فقال: أنا فقير منقطع انقطعت بي السبل والحبال ولا مأوى إلا الله ثم ما عندك، أعطني.

قال: الحقوق كثيرة والمال ورثته كابراً عن كابر، ما لك عندي شيء.

قال: كأنك كنت أقرع فقيراً قبل؟!

قال: لا، المال ورثته كابراً عن كابر.

قال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت.

فسلب الله نعمته فعاد إلى حاله الأولى.

وذهب إلى الأبرص فسأله وقال: أنا فقير قد انقطع بي الحال.

قال: ما عندي شيء الحقوق كثيرة.

قال: كأنك كنت قبل فقيراً أبرص؟

قال: لا.. ورثت المال كابراً عن كابر.

قال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت.

فردَّه الله إلى حاله.

وسار إلى الأعمى وكان الأعمى عاقلاً يؤمن بقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٦٠]، رأى نعم الواحد الأحد فشكرها.

إذا كان شكري نعمة الله نعمة فأين يطاق الشكر بل كيف يشكر

أتى رجل من الفقراء لينام فقال: يا ربي أفقرتني وأغنيت فلاناً، سلبتني وأعطيت فلاناً.

هذا الفقير مؤمن لكنه ينظر إلى الأموال والذهب والفضة حوله فيكاد قلبه يزيغ.

فرأى رجلاً صالحاً في المنام يقول له: يا فلان أتريد أن تبيعني بصرك بمئة ألف دينار؟

قال: لا.

قال: أتريد أن تبيعني سمعك بمئة ألف دينار؟

قال: لا.

قال: تبيعني يدك بمئة ألف دينار؟

قال: لا.

قال: تبيعني رجلك بمئة ألف دينار؟

قال: لا.

فأخذ يعدد له الأعضاء عضواً عضواً.

قال: سبحان الله! عندك مئات الألوف من الدنانير وما شكرت، وتتمنى أن يرزقك الله.

فهب من المنام يبكي ويقول: لك الحمد يا رب.

الشاهد أن الملك قال للأعمى: أنا رجل فقير منقطع الحال.

قال الأعمى: أما أنا فقد كنت أعمى فرد الله عليّ بصري، وقد كنت فقيراً فأغناني الله، فخذ ما شئت واترك ما شئت، والله لا أسألك اليوم شيئاً أخذته، ووالله لا أحمدك على شيء تركته.

قال: أنا ملك من السماء، أخبرك أن الله رضي عنك وسخط على صاحبيك[1].

فهذا دليل على أن عقوبة من شكر النعم أن يرضى الله عنه.

وأن من تسخط نعمة الله واستخدمها في الفجور وأصبح متمرداً جاحداً لآيات الله فإن الله يغضب عليه.

فهذه النعم تحتاج إلى شكر، وإلا فالأصل عند أهل العلم أن العبادة لا تكافىء النعم.

أورد بعضهم أن رجلاً من بني إسرائيل عبد الله في جزيرة من الجزر، فكان طول يومه في العبادة والعزلة، فلما توفاه الله بعد خمسمائة عام من تلك العبادة قال له: أتدخل الجنة بعملك أو

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٦٤)، ومسلم برقم (٢٩٦٤).

برحمتي؟

قال: بل بعملي لأنه تكاثر الخمسمائة عام.

فقال الله عز وجل: يا ملائكتي أحصوا عمله ونعمتي عنده، فأحصوها فوجدوا أن صلاته وعبادته وشكره في خمسمائة عام لا تعادل إلا نعمة البصر.

قال: خذوه إلى النار.

فصاح وقال: يا رب أدخلني الجنة برحمتك! فرحمه الله فأدخله الجنة ليعلمه أن نعم الله لا تحصى لو عدها العادّ.

ولذلك يقول ﷺ في الصحيحين: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله إلا برحمة الله**».

قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟

قال: «**حتى أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[١].

فكلنا فقراء ومخطئون، وكلنا مسيئون، وكلنا مقصرون.

فنسأل الله أن يرحمنا برحمته ويدخلنا جنته، فليس عندنا أعمال توصلنا الجنة إلا أن يرحمنا الله.

من شكر النعم أن يكون العبد صالحاً في نفسه وداعياً إلى الخير لغيره، لا أن يكون سلبياً في المجتمع، فإن المجتمعات الأخرى يقول المرء فيها: نفسي نفسي وليهلك الجميع!

ولكن الإسلام قد بين أن النجاة للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر دون غيرهم، أما الساكتين السلبيين فإنهم يهلكون كغيرهم من

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم برقم (٢٨١٦).

العصاة الجاحدين لنعم الله.

﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وفوائد الشكر عديدة، منها:

١ - أن يرضى الله عنك فيسعدك في الدارين الدنيا والآخرة.

٢ - كفاية سؤال التوبيخ في الآخرة عندما يسألك الله عن تلكم النعم، أما سؤال التقرير فلا بد منه للجميع، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٨].

٣ - أن يدعو الناس لك بخير عندما يرون شكرك لأنك ستكون من أسباب استقرار وأمن هذا المجتمع.

أسأل الله لي ولكم أن يجعلنا من الشاكرين لنعمه سبحانه، وأن يجنبنا الكفران والجحود.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



مع الذاكرين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

عنوان هذا الدرس (مع الذاكرين).

وأما عناصره فهي:

١ ـ فضل الذكر في القرآن.

٢ ـ فضله في السنة.

٣ ـ أخبار الذاكرين.

٤ ـ هديه ﷺ في الذكر.

٥ ـ أقسام الذكر.

٦ ـ مناسبات الذكر.

٧ ـ فوائد الذكر.

٨ ـ أوقات ذكر الله تبارك وتعالى.

٩ ـ الذكر الشرعي والذكر البدعي.

• **أما فضل الذكر** فيقول: شيخ الإسلام ابن تيمية في المجلد العاشر من فتاويه ما معناه: إن أفضل العبادات بعد الفرائض الذكر، وهو شبه إجماع بين أهل العلم.

فطريقتان موصلتان إلى رضوان الله تبارك وتعالى: طريقة الفكر، وطريقة الذكر.

الفكر في آلائه ونعمه سبحانه وتعالى.

والذكر لأسمائه وصفاته، وذكره الشرعي.

• الذكر في القرآن:

قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٩٠، ١٩١].

الصالحون إذا اجتمعوا ذكروا الله، والفجرة إذا اجتمعوا تذاكروا بما يقربهم من الشيطان.

ذكر الصالحين تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل، وذكر المعرضين غناء ومجون وغيبة ونميمة وفحش.

يقول الأول:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم
ونترك الذكر أحياناً فننتكس

يقول: يا رب قلوبنا إذا مرضت تداوت بذكرك فصحت، أما قلوب اللاغين فتمرض بذكر اللغو فلا تحيا ولا تصح أبداً.

قال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨]،

والقلوب مهما علقتها بلذائذ الدنيا فإنها لن تطمئن أبداً.

تعلق بعض الناس بالمناصب وبعضهم بالقصور وبعضهم بالأموال وبعضهم بالأولاد، ولكن ما صحت قلوبهم وما طابت وما انشرحت صدورهم أبداً، لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

لكن متى يكون الإنسان من الذاكرين الله كثيراً؟

يقول ابن الصلاح: من ذكر الله في الصباح والمساء بالأذكار الشرعية المأثورة عن معلم الخير فهو من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذكر الله كثيراً أن تذكره في الليل والنهار، وفي الحلّ والترحال، وفي الضراء والسراء.

وقال ابن تيمية: من داوم على الأذكار الشرعية التي علمها معلم الخير ﷺ وذكرها عند دخول المسجد والخروج منه، ودخول الخلاء والخروج منه، والاستيقاظ والنوم، والبدء بالطعام والانتهاء منه، ولبس الثوب وغيرها، فهو من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

وقال بعض العلماء: ذكر الله كثيراً ألا يجف لسانك من ذكره، والدليل على ذلك حديث عبدالله بن بسر في الترمذي وأحمد بسند صحيح: قال: قلت: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به.

قال: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله**»(١).

قالوا لأحد الصالحين وهو في سكرات الموت: اذكر الله.

قال: ما نسيته لأذكره.

وكان الجنيد بن محمد رحمه الله ـ وهو من أولياء الله الصالحين ـ يقرأ القرآن في سكرات الموت فقالوا: أنت مشغول بالموت عن القرآن.

قال: ومن أحوج الناس بالعمل الصالح إلا أنا؟

وقال سبحانه في كتابه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢].

يقول أحد الصالحين: والله إني أعلم متى يذكرني ربي.

قالوا: متى يذكرك ربك؟

قال: إذا ذكرتُه، يقول سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢].

اذكرونا مثل ذكرنا لكم
قلوب ذكرى فرّجت من نزحا
واذكروا حباً إذا هادى بكم
واشرب الدمع وعاف النزحا

أيها الإخوة الأبرار: ذكر الله في الكتاب يشمل التسبيح والتهليل والتحميد.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٧٢٢٧، ١٧٤٥)، والترمذي برقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه برقم (٣٧٩٣)، وانظر: المشكاة برقم (٢٢٧٩).

● الذكر في السنة:

يا شيخاً كبيراً شاب شعره وشابت لحيته ورق عظمه، ألا أدلك على أحسن الأعمال؟ عليك بذكر الله.

يا شاباً قوي البنية بهي الصورة، ألا أدلك على عمل يكفل لك أفضل الأعمال؟ عليك بذكر الله.

لن تجد أبداً في الإسلام أفضل من الذكر.

في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال للصحابة: «**سيروا، هذا جمدان** (جبل رآه في طريقه) **سبق المفردون**».

قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟

قال: «**الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**»[1].

والمفرد هو الرجل الذي قطع عمره بالعمل الصالح.

وقيل: المفرد هو الرجل الذي امتاز بالعلم، وامتاز بالذكر من بين إخوانه في المجالس، لأن كل إنسان يتكلم دائماً بما يحب.

يقول الغزالي صاحب الإحياء: إذا دخل مجموعة على مجلس تكلم كل منهم بما يحب.

فالنجار إذا دخل المجلس تجده يتكلم في الخشب وفي الأبواب وكيف ركبت.

أما الحداد فيتكلم في الحديد.

وأما البنّاء فيتكلم في روعة البناء.

وأما البزاز (صاحب القماش) فيتكلم في الأقمشة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٦)، وأحمد برقم (٨٠٩١، ٩٠٧٧).

ولكن أولياء الله يذكرون الله.

يقولون: كان يوسف عليه السلام ـ وناقل هذه القصة ابن رجب في جامع العلوم والحكم ـ يقول أنه لما نزل الجبّ وهو بئر فيه صخرة وبقية ما حول الصخرة ماء، نزل على الصخرة في الليل، لا رفيق إلا الله، ولا صاحب إلا الله، ولا مؤنس إلا الله.

فأخذ يذكر الله حتى يقول ابن عباس: كانت الحيتان تهدأ في البحر، ولا يهدأ هو من التسبيح، وكانت الضفادع تسكن من النقنقة ولا يسكن هو من ذكر الله؛ فحفظه الله لأنه حفظ الله.

ويقول سبحانه ليونس بن متى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصَّافات: ١٤٣، ١٤٤]، والمسبحون هم الذين يجري ذكر الله على ألسنتهم في الضراء والسراء.

يقول ﷺ في حديث صحيح عند الترمذي وغيره: «**ألا أدلكم على أفضل الأعمال وأزكاها عند مليككم، وخير من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم**»؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «**ذكر الله**»[1].

فذكر الله أعظم من نوافل الجهاد، وأعظم من نوافل الصدقة، وأعظم من نوافل الصيام.

● الذكر عند الصالحين:

أما أخبار الصالحين في ذلك فقد كان خالد بن معدان يذكر الله في اليوم أربعين ألف مرة.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١١٩٥، ٢٦٩٧٧)، والترمذي برقم (٣٣٧٧)، وابن ماجه برقم (٣٧٩٠)، ومالك برقم (٤٩٠)، وانظر: المشكاة برقم (٢٢٦٩).

أما يوسف بن أسباط فقالوا: كان يذكر الله مائة ألف مرة، يسبح الله ويهلله.

لأنهم قوم قضوا أنفاسهم مع الله ولا إله إلا الله.

فكم نتحدث؟

وكم نلغو؟

وكم نلهو؟

فأي نصيب جعلناه للذكر؟

وأي وقت صرفناه في الذكر؟

يقول ﷺ عن الذكر والذاكرين في صحيح البخاري: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»[1]، فالذين لا يذكرون الله هم أموات.. يأكلون ويشربون ويغنون ويطبلون ويسرحون ويمرحون ولكنهم ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢١].

والميت حقيقة هو الذي ما عاش مع الإيمان والقرآن والمسجد وطاعة الله عز وجل.

والميت حقيقة هو الذي ما أنس بنور محمد ﷺ.

والميت حقيقة هو الذي ما عرف معنى الحياة ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

والظلمات هي ظلمات المعصية، وظلمات الشهوة، وظلمات البعد عن الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٠٧).

ويقول ﷺ كما عند مسلم في الصحيح: «**لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**»[1]، وفي رواية: «**أو غربت**».

الدنيا سهلة.. ذهبها رخيص.. فضتها رخيصة.. ويوم تفرغ من الأعمال الصالحة فلا قيمة لها.

سبحان الله والحمد لله والله أكبر، أحب إلى محمد ﷺ مما طلعت عليه الشمس أو غربت.

وعند الترمذي بسند صحيح: «**من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»[2].

فانظر كم يفوتنا من النخلات.

فاعمل لدارٍ غداً رضوان خازنها
الجار أحمد والرحمن بانيها
قصورها ذهب والمسك طينتها
والزعفران حشيش نابت فيها

يقول ابن القيم رحمه الله: كان الرسول ﷺ يذكر الله دائماً، فنفسه ذكر، وكلامه ذكر، وأفعاله ذكر.

يذكر ربّه في الليل والنهار، فقلبه معلق مع الله وهو مع الناس ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

كان ﷺ دائماً مع الله، وميزة له وخصيصة له ﷺ أنه لا ينام قلبه دائماً.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٦٤، ٣٤٦٥)، والنسائي في الكبرى برقم (١٠٥٦١)، وابن حبان برقم (٨٠٣)، والحاكم برقم (١٨٨٣، ١٩٢٤)، وانظر: المشكاة برقم (٢٣٠٤).

فإذا نام في الليل لا ينام قلبه، أما نحن فقلوبنا تنام إذا نمنا.

ولذلك لا ينتقض وضوؤه إذا نام ﷺ.

وفي الصحيح أنه قام مرة لصلاة الفجر وقدم له وضوء.

فقال: «**يا عائشة إنها تنام عيناي ولا ينام قلبي**»[١]، فهذه من خصائصه ﷺ أن قلبه معلق بالله سواء نام أو لم ينمْ.

نامت الأعين إلا مقلة ... تذرف الدمع وترعى مضجعك

فهو ﷺ ذاكر لله دائماً وأبداً، فحري بالمسلم أن يقتدي به.

● أقسام الذكر:

ذكر الله يقسمه أهل العلم ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

ذكر بالقلب واللسان وهو أعظم الذكر بأن تذكر الله بقلبك ولسانك.

تسبح باللسان وأنت تتفكر في معنى التسبيح.

تستغفر باللسان وأنت تتفكر في معنى الاستغفار.

وتصلي على الرسول ﷺ وأنت تعيش بقلبك معنى الصلاة.. فهذا أرفعها.

القسم الثاني:

ذكر الله بالقلب بلا لسان.

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٤٧، ٢٠١٣، ٣٥٦٩)، ومسلم برقم (٧٣٨).

فمن الناس من يذكر الله بقلبه ولكنه لا يحرك اللسان، وهذا في الدرجة الثانية.

القسم الثالث:

ذكر الله باللسان دون القلب، وهذا مأجور عليه العبد.

والدليل على ذلك ما رواه الترمذي بسند صحيح أن الرسول ﷺ قال: قال الله عز وجلَ: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**»[1].

وقوله ﷺ عند الترمذي لرجل كما في حديث عبدالله بن بسر: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله**»[2].

فدل على أن ذكر اللسان بغير قلب يؤجر عليه العبد.

كان أبو مسلم الخولاني أحد التابعين الكبار لا يفتر لسانه من ذكر الله.

أخذه الأسود العنسي مدَّعي النبوة في صنعاء اليمن وأحد الكذابين الذين زعموا أنهم أنبياء.

فقال الأسود: أتشهد أن محمداً رسول الله؟

قال: نعم.

قال: أتشهد أني رسول الله؟

قال: لا أسمع شيئاً.

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب (باب رقم ٤٣)، وأحمد برقم (١٠٥٩٢، ١٠٥٩٣)، وابن ماجه برقم (٣٧٩٢)، وابن حبان برقم (٧٩٢)، وانظر: المشكاة برقم (٢٢٨٥).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٧٢٢٧، ١٧٢٤٥)، والترمذي برقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه برقم (٣٧٩٣)، وانظر: المشكاة برقم (٢٢٧٩).

فجمع له حطباً وأوقد ناراً وأتى لهذا الرجل الصالح فألقاه في النار، فجعلها الله برداً وسلاماً عليه.

فلما قدم على أبي بكر عانقه أبو بكر وعمر وقالا: مرحباً بمن فعل به كما فعل بالخليل عليه السلام.

هذا العبد ـ يقولون ـ كان لا يفتر عن ذكر الله تعالى صباح ومساء، وكان لا ينام إلا قليلاً من كثرة ذكره لربه تبارك وتعالى(١).

● طلب العلم من أقسام الذكر:

طلب العلم، ومجلس العلم، ومدارسة العلم، هو من أعظم الذكر عند العلماء.

فجلوسك لمعرفة الصلاة، ومعرفة الصيام، ومعرفة البيع والشراء، ومعرفة أبواب الفقه، ومعرفة الحديث، من أعظم أنواع الذكر عند الله عز وجل، وهي مجالس الجنة ومجالس الإيمان.

● مناسبات الذكر:

لكل ذكر مناسبة، فمن عبوديتك لله أن تقوم لله بهذا الذكر في هذه المناسبات، وأن تتقيد بهذه الأذكار في موضعها لأن خلاف ذلك يعني عدم المتابعة.

فبعد الصلوات سنَّ لك رسول الهدى ﷺ التسبيح ثلاثاً وثلاثين، والتحميد ثلاثاً وثلاثين، والتكبير ثلاثاً وثلاثين، والتهليل تكمل المائة، ثم آية الكرسي وقل هو الله أحد والمعوذات.

---

(١) انظر قصة أبي مسلم الخولاني في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ترجمته برقم ٢١٨٣)، وأسد الغابة (ترجمته برقم ٦٢٤٠)، وسير أعلام النبلاء (ترجمته برقم ٣٦٩).

فلكل ذكر مناسبة.

فمثلاً صعود الجبال وحمل الأثقال المرهقة يناسبها قول: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**».

يقول أبو موسى رضي الله عنه: كنا نصعد ثنية مع النبي ﷺ وكان الناس يرفعون أصواتهم بالتكبير، وأنا أقول في نفسي: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**».

فقال لي ﷺ: «**يا أبا موسى ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟**».

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»[1].

ويناسب التفكر في آيات الله وفي بديع صنعه سبحانه وتعالى قول: «**سبحان الله**».

ويناسب ذكر المعصية والخطيئة والذنب قول: «**أستغفر الله وأتوب إليه**».

وعند ذكر الرسول ﷺ الصلاة عليه.

وهكذا عند الطعام: «**بسم الله**»، وعند الفراغ: «**الحمد لله**».

فكل ذكر ورد في السنة هو مناسب لحاله ولموضعه لمن تأمل وتدبّر.

● فوائد الذكر:

وقد أوصلها بعض العلماء إلى مائة فائدة، منها أنه:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٢٠٥، ٦٣٨٤، ٦٤٠٩، ٧٣٨٦)، ومسلم برقم (٢٧٠٤).

١ ـ يطرد الشيطان.

٢ ـ يرضي الرحمن.

٣ ـ يؤنس الجليس.

٤ ـ يعظم الأجر.

٥ ـ يزيل الخطايا والذنوب.

٦ ـ يوجد بهاءً في الوجه.

٧ ـ يشرح الصدر.

٨ ـ يوجد أنساً بين العبد وبين الله.

٩ ـ يحفظ العمر.

١٠ ـ يعود على أشرف الطاعات.

١١ ـ يمنع من السيئات والخطايا كالغيبة والنميمة.

١٢ ـ يرد القلب إلى مولاه ويراجع حسابه مع الله ويتوب ويندم.

١٣ ـ يكافىء بعض الأعمال الصالحة بل يزيد عليها.

١٤ ـ أن الملائكة تذكر الذاكر.

١٥ ـ أعظمها أن الله يذكر من ذكره؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢].

١٦ ـ أن الذاكر لا يزال في حفظ من الله وفي معية خاصة.

١٧ ـ أن الذاكر لا تأتيه الوساوس والواردات والهواجس السيئة.

١٨ ـ أنه يزيل القلق والهم والغم والحزن وتكدير الحياة والعيش.

١٩ ـ أنه يمد في العمر ويزيد فيه ويبارك في ساعاته.

٢٠ ـ أنه يثلج صدر المؤمن.

٢١ ـ أنه قوة على أعمال أخرى، فيفتح على المؤمن أعمالاً أخرى.

٢٢ ـ ومن أعظم فوائده كما يقول ابن القيم أنه ينفي النفاق عنك؛ لأن المنافق لا يذكر الله إلا قليلاً، والله عز وجل ذكر المنافقين فقال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّساء: ١٤٢]، فلا يداوم على ذكر الله منافق.

فلا تجد المنافق يذكر الله في السوق ولا في السيارة ولا في الطائرة ولا في المسجد، فلا يفعل هذا إلا المؤمن.

وأنت إذا أردت أن ترى هل أنت مؤمن أم منافق فاسأل نفسك: هل أذكر الله دائماً وأبداً؟ هل أذكر الله وأنا مع الناس؟ وعند الخروج للسوق وفي الطائرة وفي السيارة؟

فإذا كنت تفعل ذلك فأبشر ثم أبشر بالإيمان، وإلا فنحْ على نفسك إن كنت تنوح.

● أوقات الذكر:

أحسن أوقات الذكر المطلق من بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس.

ومن بعد العصر إلى غروب الشمس: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الرُّوم: ١٧، ١٨].

كان ﷺ يذكر ربه حتى طلوع الشمس، وفي حديث يروى: «**من صلى الفجر ثم جلس في مصلاه يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت كعدل حجة وعمرة تامة تامة تامة**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٥٨٦)، وانظر: المشكاة برقم (٩٧١).

وكان ﷺ يفعل ذلك.

يقولون: كان ابن تيمية يجلس في مصلاه يذكر الله حتى يطلع النهار، فيقول: هذه غدوتي ولو لم أتغدَّها لسقطت قواي.

فهذا أحسن أوقات الذكر: بعد الفجر إلى طلوع الشمس وهو وقت تفتح القلوب ووقت تفتح الأزهار وتغريد الأطيار وحلول البركات من الواحد الغفار، ووقت تنزل الأرزاق والفتوحات الربانية من الله سبحانه وتعالى.

فعليك أن تكون فيه من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

وهكذا بعد العصر إلى غروب الشمس، أو بعد الغروب بسويعات، أو بساعة أو بنصف ساعة، أو ما يشابهها.

• الذكر الشرعي والذكر البدعي:

هناك ذكر شرعي عن معلم الخير ﷺ، وذكر بدعي.

ونحن أمة تقف مع الوحي فتتلقى أوامرها من الله ومن الكتاب والسنة: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[١]، «**اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم**»[٢].

فالذكر الشرعي هو الذي ورد عنه ﷺ مثل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.. إلى غيرها.

أما الذكر البدعي فهو الذي أحدثه المبتدعة وما أنزل الله به من سلطان.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٩٧)، ومسلم برقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه الدارمي برقم (٢٠٥) موقوفاً على ابن مسعود، وانظر: مجمع الزوائد برقم (٨٥٣).

مثل: أنهم يقولون: أعظم الذكر الاسم الأعظم، ويجعلون الاسم الأعظم (هو).

فترى هؤلاء المبتدعة يجلسون في الزوايا ويقولون: (هو.. هو.. هو)، بدل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله.

يقف أحدهم من صلاة العصر إلى المغرب وهو يقول: (هو.. هو).

قال أهل السنة: هذا ليس بذكر وإنما نباح كلاب! ثم جاء ابن عربي الصوفي فقال: إن الدرجة الثانية في الذكر هو الذكر بالاسم المجرد (الله.. الله.. الله).

قال ابن تيمية: لم يأت به نص عنه ﷺ بأنه كان يردد لفظ الجلالة لوحده.

ومن هؤلاء المبتدعة من يذكره سبحانه بالاسم من أسمائه المجرد، كأن يقول: (يا لطيف.. يا لطيف) وهذا ليس من الذكر المأثور أنه يقتصر على الاسم لوحده.

فتخيل أن يأتيك أحد ويطرق عليك الباب ويقول: يا محمد.. يا محمد.

فتقول: نعم.

فيقول: يا محمد.. يا محمد!!

فهل هذا إلا عبث؟

يا لطيف.. ماذا؟

الطف بنا.. اجبر كسرنا.. وهكذا ليستبين مقصدك.

وبعضهم يأتي بأذكار طويلة عريضة لم ترد في المأثورات

عنه ﷺ، فيتعب نفسه بها وهو مأجور إن خلص قصده، ولكن فوّت على نفسه أذكاره ﷺ واتباع طريقته.

أسأل الله أن يجعلني وإياكم من الذاكرين الله كثيراً.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



فاذكروني أذكركم

الحمد لله الذي شرح صدور أهل الإسلام للسنة فانقادت لاتباعها وأصاخت لسماعها، وأمات نفوس أهل الباطل بالبدعة بعد أن تمادت في ابتداعها.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اتصلت به أنوار الهدى بعد انقطاعها، وارتفعت به حصون التوحيد في سموها واتساعها، صلى الله وسلم عليه وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

أيها الناس: اعلموا أن أحلى ساعات العمر، وأسعد أيام الحياة، وأرغد دقائق العصر، هي معايشة رسول الهدى ﷺ في أقواله وفي أعماله وفي أحواله.

من زار بابك لم تبرح جوارحه ... تروي أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة ... والقلب عن جابر والسمع عن حسن

وأي حياة يعيشها الذين يعيشون في منابذته ﷺ؟

وأي لذة يجدها الذين يتلذذون بمعصيته ﷺ؟

وأي سمو وأي ارتفاع يناله الذين يتنكبون سيرته وهديه ﷺ؟

إن أعظم ما يقود المسلم في الحياة ويمرغه في مرضاة الله هو ذاك الأسوة العظيمة، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٦٤].

نسينا في ودادك كل غال ... فأنت اليوم أغلى ما لدينا
نُلام على محبتكم ويكفي ... لنا شرف نلام ولا علينا
ولما نلقكم لكن شوقاً ... يذكرنا فكيف إذا التقينا
تسلى الناس بالدنيا وإنا ... لعمْر الله بعدك ما سلينا

وجانب ذكر الله عز وجل في حياته ﷺ، جانب مشرق وكبير وفياض.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: كان هديه ﷺ في الذكر أنه كان ذاكراً لله دائماً، فكلامه وأنفاسه وأقواله وأحواله كلها كانت ذكراً منه لربه تبارك وتعالى.

وكان يذكر ربه قائماً وقاعداً وعلى جنبه.

وكان لا يتحرك إلا بذكر الله، ولا يسكن إلا بذكر الله.

إن خطب فبذكر الله.

وإن تحدث فبذكر الله.

ولذلك كان متمثلاً لأمر الله تبارك وتعالى الذي يقول: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعرَاف: ٢٠٥]، فانظر كيف قال: ﴿خِيفَةً﴾ [هُود: ٧٠] في الذكر، وقال في الدعاء ﴿خفية﴾ في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعرَاف: ٥٥].

قال الجهبذ النحرير شيخ الإسلام ابن تيمية: إنما ذكر الله الخوف مع الذكر، وذكر الإخفاء مع الدعاء، لأن الذكر يورث الانبساط والفرح، فربما أدى بالعبد للطغيان في حد العبودية فألزم الله الذاكر أن يخافه تبارك وتعالى.

أما الدعاء فكان نعمة جليلة ويخاف به الحسد على العبد فألزمه الله بإخفاء دعائه بينه وبين مولاه.

والله يقول: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢]، وهذا مصداق الحديث الصحيح الثابت عنه ﷺ أنه قال: «**يقول الله تبارك وتعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[(١)]، وفي الأثر القدسي أن الله سبحانه وتعالى يقول: «**أنا جليس من ذكرني**»[(٢)].

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحياناً فننتكس

قال أحد السلف: والله إني أعلم متى يذكرني ربي.

قالوا: متى؟

قال: إذا ذكرته، لأنه يقول: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢].

وقال جل من قائل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨]. وذكر الله هنا قيل: هو القرآن، وقيل: بل مطلق الذكر وهو الصحيح إن شاء الله، لأن به تطمئن القلوب من خوفها وفزعها، وتطمئن القلوب من هلعها وجزعها.

ولا تطمئن القلوب إلا إلى الحي القيوم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٠٥)، ومسلم برقم (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/٣٧، ٤٢)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (١٢٦٥، ٣٠٠٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٦٨٠)، وانظر: كشف الخفاء برقم (٦١١، ٦١٣)، وكنز العمال برقم (١٨٦٥).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قال ابن الصلاح: من حافظ على الأذكار صباح مساء وأدبار الصلوات وفي كل ميقات فهو من الذاكرين الله كثيراً.

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: الذاكر كثيراً من يذكر الله في قيامه وفي قعوده، وفي حله وفي ترحاله، وفي صحته ومرضه.

أما ابن تيمية فيرى أن الذاكر كثيراً هو أن لا يفتر لسانك عن ذكر الله على حد حديث عبدالله بن بسر عند الترمذي عندما قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به.

قال: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله**»(١).

والله يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وأكثرْ ذكره في الأرض دأبا لتذكر في السماء إذا ذكرتا

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال ابن تيمية: هذه الآية أخطأ فيها جم غفير من المفسرين، ومقصود الآية أن للصلاة فائدتين ومقصودين.

أولهما: أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وثانيهما: أن الصلاة فيها يقام ذكر الله.

---

(١) سبق تخريجه.

قال: وإقامة ذكر الله في الصلاة أعظم من نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر.

وفي ليلة بطيئة النجوم، هادئة السحر، باردة النسيم، عاشها ابن عباس رضي الله عنهما مع رسول الهدى ﷺ.

قام ﷺ في الليل وابن عباس يشاهد الحدث أولاً بأول، لأنه قد عاش تفاصيله في بيت خالته ميمونة زوج النبي ﷺ.

فلما قام ﷺ إلى صلاة الليل قال: «**اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، ومحمد ﷺ حق، والنبيون حق.**

اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت»[1]. ثم قال: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[2]. وهذا امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

ويقول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥)، ومسلم برقم (٧٦٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٧٠)، وأحمد برقم (٢٤٦٩٩)، وأبو داود برقم (٧٦٧)، والترمذي برقم (٣٤٢٠).

والله عز وجل طلب من رسوله ﷺ أن يسبحه بالغدو والآصال، أي من أنسام الفجر وإطلالة الصباح.

وفي وقت الأصيل.

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»[1].

وعند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقال لنا: «**سيروا، هذا جمدان** (جبل) **سبق المفردون**».

قالوا: يا رسول الله وما المفردون؟

قال: «**الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**»[2].

وعند البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال في يوم سبحان الله وبحمده، مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر**»[3].

فانظر إلى قلة الجهد المبذول وإلى عظم الأجر الحاصل.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرّة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٠٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٦)، وأحمد برقم (٨٠٩١، ٩٠٧٧).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٤٠٥)، ومسلم برقم (٢٦٩١).

بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل أكثر من ذلك»[١].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**»[٢].

وعند الترمذي بسند حسن: «**من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»[٣].

وعند البخاري من حديث أبي موسى قال: كنا نصعد ثنية مع رسول الله ﷺ، والناس يرفعون أصواتهم بالتكبير، فلحقهم ﷺ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فقال: «**يا عبدالله بن قيس**».

قلت: لبيك وسعديك يا رسول الله.

قال: «**أتدري أن لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة**»؟[٤].

أو كما قال ﷺ.

وعند ابن حبان بسند صحيح قال أبو ذر: «**أوصاني خليلي ﷺ، بثمان ـ وذكر منها: ـ وأن أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها من كنوز الجنة**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٩٣، ٦٤٠٣)، ومسلم برقم (٢٦٩١).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٥).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) أخرجه ابن حبان برقم (٤٤٨)، والنسائي في الكبرى برقم (١٠٠٨٩)، وانظر: الترغيب والترهيب برقم (٣٨٠٢).

وقال ابن تيمية شيخ الإسلام في المجلد العاشر يوم سأله أبو القاسم المغربي عن أفضل عمل بعد الفرائض يتقرب به إلى الله.

قال رحمه الله: لا أعلم بعض الفرائض أعظم من ذكر الله عز وجل.

وهو شبه إجماع بين أهل العلم أن الذكر أفضل عمل بعد الفرائض.

والذاكرون الله كثيراً من الصحابة والسلف جم كبير لا يأتي المقام على ذكرهم.

ذكر ابن رجب في جامع العلوم والحكم أن أبا مسلم الخولاني كان لسانه لا يفتر عن ذكر الله، فدخل على معاوية وهو يتمتم بالذكر، فقال معاوية: أجنون هذا يا أبا مسلم؟

قال: بل حنون يا معاوية.

حنون إلى رضوان الله.

حنون إلى عطاء الله.

حنون إلى الاتصال بالله.

فلذلك أنقذه الله سبحانه عندما ألقاه الأسود العنسي في النار.

لأنه كان لا يفتر عن الذكر والالتجاء إلى الله سبحانه.

فقال وهو في الجو: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣].

وهي كلمة إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار، وكلمة محمد ﷺ لما قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣].

فلما وقع في النار حوّلها الله برداً وسلاماً، وذلك في خلافة أبي بكر الصديق.

فارتحل من اليمن فاستقبله الخليفة الراشد الصديق أبو بكر رضي الله عنه وعمر والصحابة.

فقال عمر: مرحباً بالذي جعله الله في أمة محمد كالخليل إبراهيم عليه السلام.

أيها الناس: أوصيكم ونفسي بكثرة الذكر، فإن فوائده جليلة، وقد أوصلها ابن القيم إلى ما يقارب الثمانين، وقال: لا يأتي الحصر عليها، منها:

- طرد الشيطان.
- وإرضاء الرحمن.
- والرضا بمقدور الله سبحانه وتعالى.
- والاطمئنان.
- والقضاء على الفراغ والهم والغم والحزن.
- وجمع الجهد.
- والقوة.
- والأجر.
- وتكفير السيئات.
- وأن يسكن القلب إليه سبحانه وتعالى.

فاذكروا الله أيها الناس قياماً وقعوداً، وعلى جنوبكم، وفي

بيوتكم، وفي طرقاتكم، وفي مراكبكم، وفي سياراتكم، وفي مكاتبكم.

واتصلوا به سبحانه وتعالى، فإنه سبحانه وتعالى يوصل من وصله، ويهدي من استهداه، ويرزق من استرزقه.

أسأل الله أن يجعلني وإياكم من الذاكرين الله كثيراً.

والله أعلم، وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



إنه كان غفّاراً

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تبارك وتعالى: يا ابْن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي.**

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي.

يا ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً للقيتك بقرابها مغفرة»[1]، هذا الحديث رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٠٩٦١، ٢٠٩٩٤)، والدارمي برقم (٢٧٨٨) عن أبي ذر، ورواه الترمذي برقم (٣٥٤٠) عن أنس بن مالك، وانظر: المشكاة برقم (٢٣٣٦).

وهو حديث قدسي، أي أن لفظه من الرسول ﷺ ومعناه من الله الواحد القهار.

وهو حديث تقشعر له جلود الذين آمنوا ثم تلين قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله، وهذا الحديث هو عبارة عن بشرى تزف لكل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر.

والرسول ﷺ كان كلما أرسل داعية أو أرسل معلماً أو مربّياً قال له ولأصحابه: «**بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا**»[1].

وأنا كطالب علم أو طويلب علم أرى أن من الحكمة أن يقرن الرجاء بالخوف من الله دائماً.

وأظن أن تخصيص جلسات للخوف مطلقاً إنما هو إرهاب للفكر المسلم.

بل لا بد من قرن الخوف بالرجاء.

دخل الفرنسيون الجزائر وحطموا منارات الإسلام في الجزائر.

فقام أحد علماء الجزائر (عبدالحميد بن باديس) فخوّف الشعب الجزائري من عقوبة المعاصي حتى يتركوا الخمور والزنا والربا.

فلما سمعوا هذا الكلام يئسوا من رحمة الله عز وجل وقنطوا وزادوا في المعاصي.

فعاد فدعا الله عز وجل أن يدله على المفتاح الذي يصلح لقلوب الجزائريين حتى يعيدهم إلى الله.

فتذكر أن لا مفتاح إلا الرجاء في رحمة الله، فقال كلمته المشهورة من على المنبر في جنوب الجزائر:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٩، ٦١٢٥)، ومسلم برقم (١٧٣٤)، وأحمد برقم (١١٩٢٤، ١٢٧٦٣).

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال قد هدّدته غلب الحقيقة أو كذب

أو كما قال.

ثم قال: إن شعب الجزائر لا يعود إلى الله إلا بالرجاء.

فأتى بأحاديث التوبة وأحاديث الرجاء والفضل الذي أعده الله للتائبين.

فلما سمع الناس أن هناك رباً رحيماً غفوراً، وأنه يقبل توبة العبد، وأنه يغفر للعبد، دخلوا في دين الله أفواجاً.

وما هي إلا سنة واحدة حتى قدموا مليوناً من الشهداء إن شاء الله، وسحقوا فرنسا بكبريائها وعتوها وغطرستها، وداسوها في الأرض وأخرجوا المستعمر من بلادهم.

فالمقصود أن الرجاء باب عظيم، وأنه مفتاح للدخول على الله عز وجل.

قال ابن القيم عن الرجاء ما معناه: هو الباب الذي يجنح بالعبد إلى الله.

والعجيب أن النووي في رياض الصالحين أتى بكتاب الخوف فيما يقارب أربع صفحات، ثم أتى بكتاب الرجاء في ثمان صفحات، ثم أتى بفضل الرجاء في ست صفحات.

لماذا؟

لتعود القلوب إلى الله عز وجل.

قال ابن القيم في مدارج السالكين: العاقل لا يبني قصراً ويهدم مصراً.

ثم قال: هناك رجل اسمه الحارث المحاسبي ألّف كتاب الرعاية، فلما قرأه الناس تركوا المساجد.

والرعاية هو كتاب يركز على جانب الخوف والتزهيد في الدنيا، وهذا الجانب لا ترتاح له النفس البشرية كثيراً ولا تهش لسماعه، فقنّط الناس في الرحمة وصرفهم عن الدنيا برغم أنه ينوي ويريد تقريبهم من الخير، ولكن كم من مريد للخير لم يدركه!

يقول ابن الوزير في (العواصم والقواصم): إن الخوف إذا كثر على النفوس كلّت وملت.

يقول ﷺ: «**يقول الله عز وجل: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي**».

إن الله حليم سبحانه وتعالى، ولذلك يحلم سبحانه وتعالى على الكافر والفاجر برغم أنه يقتل المسلمين ويسحق المدن ويقتل الأطفال والنساء ويعذب ويشنق ويربط وينصب الزنزانات.

والله يسمع ذلك ويراه، ولكنه يمهل هذا الظالم ويحلم.

فهو القائل سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، يقول: لا تحسب أن الله غافل عنهم إنما هو من ورائهم بالمرصاد، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

يقول أحد المفسرين في سورة البروج: إن الحياة ليست طويلة حتى ينتقم الله من أهل الفجور وأهل الظلم، بل هي قصيرة، فلا تكفي ستون سنة مثلاً ليعذب الله فيها هذا المجرم.

فلذلك يدّخر الله له العذاب آلاف السنين.

فالله عز وجل حليم سبحانه وتعالى على الفجرة، فكيف إذا كان هذا المخطىء مسلماً يحب الله عز وجل، ثم عاد فحاسب نفسه في أول العمر فرجع إلى الله عز وجل؟

ومعلوم لديكم كما ورد في الحديث أن الله عز وجل أفرح بتوبة العبد من أحدكم ضلت منه راحلته عليها طعامه وشرابه، فبحث عنها فلما وجدها وقد أيس منها قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح[1].

فالله أفرح بالعبد إذا عاد إليه سبحانه وتعالى من هذا بناقته.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه: آية في كتاب الله والله ما أريد أن لي بها الدنيا بما فيها.

قالوا: وما هي؟

قال: قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ [النِّساء: ٣١].

قال بعض أهل العلم: من اجتنب الكبائر كفّر الله عنه الصغائر.

ويقول عز من قائل في كتابه: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

وقال جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝١٣٦﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥، ١٣٦].

أورد ابن القيم وابن كثير أن الله سبحانه وتعالى لما أنزل كلمات إلى يحيى عليه السلام ليبلغها قومه ـ والحديث في المسند وفي الترمذي ـ تأخر فما بلغها عليه السلام لبني إسرائيل.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٨)، ومسلم برقم (٢٧٤٤) عن عبدالله بن مسعود، وأخرجه البخاري برقم (٦٣٠٩)، ومسلم برقم (٢٧٤٧) عن أنس بن مالك.

فقال عيسى عليه السلام: إما أن تبلغ ما أنزل الله إليك، وإلا فاتركني أبلغ أنا.

فقال يحيى: أبلغ.

فجمع يحيى بني إسرائيل وقام فيهم خطيباً فوعظهم.

فأوحى الله عز وجل إلى يحيى: يا يحيى طريقتك خير من طريقة عيسى.

قال أهل العلم: كان عيسى عليه السلام ـ من زهده وتذكره للقاء الله ـ دائم العبوس لا يبتسم.

وكان يحيى كلما لقي أحداً تبسم له.

ولذلك كان بنو إسرائيل يميلون إلى يحيى كثيراً.

فأخذ ﷺ من هذا أنه كان يقول للصحابة إذا أرسلهم: «**بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا**».

وأخوف الناس وأعلم الناس بالله هو رسول الله ﷺ، ولذلك كان بساماً.

قال جرير بن عبدالله: والله ما لقيني ﷺ إلا تبسم في وجهي.

قال أهل العلم في ترجمة ابن سيرين رحمه الله: كنا نلقاه في النهار بساماً ضحاكاً، فإذا أظلم عليه الليل سمع جيرانه بكاءه من خشية الله.

كان رحمه الله يبيع ويشتري في الزيت، وورد أنه أتت له جرار زيت، فوقع فأر في جرة منها وقيمة الجرار مائة ألف درهم. فلم يدر أيتهن وقع الفأر فيها.

فأمر بإهدار هذه الجرار وهذه التجارة حتى لا يغش مسلماً.

فعوضه الله عز وجل صبراً وإيماناً ورفع منزلته.

ولذلك كان يسمى التاجر الأمين.

فلا يظن بعض الناس أن العبادة فقط ليست إلا الذكر والصلاة.

لا.. بل هناك عباد يدخلون الجنة ويفتح الله لهم الجنة من باب الإنفاق والصدقة، وهم التجار.

يقول الله عز وجل: «**يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني إلا غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء**»، والعنان هو الغمام. فلو بلغت ذنوب العبد من الأرض إلى الغمام فتزاحمت وتراكمت حتى بلغت هناك ثم لقي الله عز وجل لا يشرك به واستغفر، لغفر الله له، لأن الله لا يريد تعذيب العبد.

لكن الله عز وجل يريد من العبد أن يذل وأن يخضع، وأن يعود إليه سبحانه وتعالى ليغفر له تبارك وتعالى.

كان ﷺ قد عاهد قريش زمن الحديبية أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه سنين عدداً، وأن لا يعينوا حلفاءهم من القبائل الأخرى على حلفائه.

فصلى ﷺ العصر يوماً فإذا براكب يقدم على جمله المدينة وهو عجلان.

فتخطى الصفوف حتى وقف أمام الرسول ﷺ فقال:

يا ربّ إني ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا

فانصر هداك الله نصراً أعتدا[1] ... وادع عباد الله يأتوا مددا

إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

(١) أعتدا: أي نصراً حاضراً.

وكان من قبيلة خزاعة التي حالفها ﷺ وحالفته، وقد ساعدت قريش عليها قبيلة بكر الذين كانوا حلفاء لقريش.

فغضب الرسول ﷺ ودعا الله أن ينصره على قريش.

فمر الغمام والسحاب من قبلة المسجد يتقطع كأنه قذائف يمر جهة مكة.

فقال ﷺ: «**هذا العنان أبشروا بالنصر**».

ثم استقبل ﷺ القبلة وقال: «**اللهم عمِّ عليهم أخبارنا**».

ثم استنفر ﷺ أصحابه فكانوا عشرة آلاف مقاتل، وتوجه إلى قريش في مكة، ففتحها في عام الفتح كما هو معلوم[(١)].

وكان ﷺ في يوم من الأيام جالساً مع أصحابه فمر سحاب فوقهم.

فقال ﷺ: «**ما هذا؟**».

قالوا: هذا يا رسول الغمام.

قال: «**والمزن**».

قالوا: والمزن يا رسول الله.

قال: «**والعنان**».

قالوا: والعنان يا رسول الله[(٢)].

---

(١) أخرج الحادثة ابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٢٦٨٩)، وانظر: سيرة ابن هشام (٣٩٤/٢)، وفتح الباري (كتب المغازي /باب غزوة الفتح ٥٩٢/٧)، وكنز العمال برقم (٣٠٢٠٤).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٧٧٣)، وأبو داود برقم (٤٧٢٣)، والترمذي برقم (٣٣٢٠)، وابن ماجه برقم (١٩٣)، والحاكم برقم (٣٥٩٥)، وانظر: المشكاة برقم (٥٧٢٦).

فالعنان هو الغمام.

فيقول سبحانه وتعالى: لو بلغت ذنوبك أيها العبد عنان السماء ثم جئت لا تشرك بي شيئاً أو استغفرته لغفرها لك سبحانه وتعالى، **وهذه بعض أحاديث في الاستغفار والتوبة لعلها أن تعيد الأمل إلى قلوب المذنبين فيتعجلوا التوبة قبل فوات الأوان.**

يقول أبو بكر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ألَمَّ بذنب** - يعني من أصاب ذنباً سواءً كبيراً أو صغيراً - **فتوضأ وصلى ركعتين ثم استغفر الله من ذاك الذنب إلا غفر الله له**»، رواه الإمام أحمد، وهو حديث صحيح عند جماهير المحدثين.

ولذلك يقول علي بن أبي طالب لما رفعت له هذه البشرى: كان الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ إذا حدثني الحديث استحلفته، فإن حلف صدقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر: أن العبد إذا أذنب فتوضأ وصلى ركعتين غفر الله له ذاك الذنب[1].

وعن أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه وهذا في الصحيحين قال: قلت: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو الله عز وجل به في صلاتي.

ما أحسن هؤلاء الصحابة!

فانظر إلى روعة أسئلتهم وهممهم التي تعلقت بالجنة وغفران الذنوب، لا كغيرهم ممن خاض فيما لا يهمه.

فدله ﷺ على دعاء فقال: «**قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢، ٤٧، ٥٧)، وأبو داود برقم (١٥٢١)، والترمذي برقم (٤٠٦، ٣٠٠٦)، وابن ماجه برقم (١٣٩٥)، والطيالسي برقم (١)، وأبو يعلى برقم (١٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٨)، ومسلم برقم (٢٧٠٥).

فكان أبو بكر يقولها دائماً.

هذا وهو أبو بكر الذي قد علمت مكانته في الإسلام، وفي الزهد، وفي الخوف من الله.

تقول عائشة رضي الله عنها وأرضاها في صحيح البخاري لما قال ﷺ: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»[(١)]، قالت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف ـ أي حزين ـ لا يملك عينيه من البكاء، وإذا قام يصلي بالناس لا يفقه الناس من قراءته شيئاً، فكان رضي الله عنه قد اشتهر بذلك عندهم.

فهذا الدعاء السابق من الدعاء الذي ينبغي على المسلم أن يحفظه وأن يستغفر الله ويوحده سبحانه وتعالى.

ولذلك يقرن الله عز وجل التوحيد كثيراً بالاستغفار.

يقول جل ذكره: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محَمَّد: ١٩].

وعند أبي يعلى في المسند قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الشيطان: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار**»[(٢)].

وورد أنه قال ﷺ: «**جددوا إيمانكم**».

قالوا: ماذا نقول يا رسول الله؟

قال: «**أكثروا من قول لا إله إلا الله**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦٤، ٦٧٩، ٦٨٢)، ومسلم برقم (٤١٨).

(٢) أخرجه أبو يعلى برقم (١٣٤)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٧٥٧٤).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٨٤٩٣)، والحاكم برقم (٧٧٣٢)، وعبد بن حميد في المنتخب برقم (١٤٢٤)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٥٩، ٣٢٧٨، ١٦٧٩٩)، والضعيفة للألباني برقم (٨٩٦).

فتجديد الإيمان بلا إله إلا الله، وتصفيته بالاستغفار.

ولذلك يقول يونس بن متى عليه السلام لما وقع في ظلمات ثلاث: ظلمة البحر، وظلمة الحوت، وظلمة الليل، قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ولذلك أيضاً في صحيح البخاري عند شداد بن أوس: قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[1].

ومعنى أبوء أي أرجع.

أي: أرجع لك يا رب بأمرين: شر ما صنعت، ونعمتك عليّ.

فأنا صاحب الذنب والخطيئة، وأنت صاحب الجميل والمعروف.

وما دام أنك أنعمت عليّ وكرمتني وخلقتني ورزقتني فأكمل إكرامك وإنعامك بمغفرة ذنوبي.

يقول ابن تيمية رحمه الله ما معناه: السائر إلى الله يسير بنظرين: نظر إلى جلال النعمة من الله عز وجل، ونظر في عيب النفس وتقصيرها.

وقد ورد كثيراً في كتاب الزهد للإمام أحمد أن رسول الله ﷺ يقول: «**يقول الله تبارك وتعالى: عجباً لك يا ابن آدم ما أنصفتني، خلقتك وتعبد غيري، ورزقتك وتشكر سواي، أتحبب إليك بالنعم وأنا**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٦، ٦٣٢٣)، وأحمد برقم (١٦٦٦٢، ١٦٦٨١).

غني عنك، وتتبغض إليّ بالمعاصي وأنت فقير إليّ، خيري إليك نازل وشرك إليّ صاعد»[١].

فهذا مفهوم العبد المسلم يوم يعرض نفسه على الكتاب والسنة فإنه يجد أن ما عنده حول ولا طول، ولا قدّم إلا التقصير والذنب والخطيئة.

قال عمر رضي الله عنه وأرضاه: اجلسوا إلى أفواه التائبين فإنهم أرق أفئدة.

وإذا أراد الله أن يكسر العبد ويكسر قلبه وكبره وعتوه وجبروته كتب عليه الذنب، فيذنب، فيذهب عنه الغرور والغطرسة والكبر والعتو والجبروت، ويعود ذليلاً ينطرح على باب ربه وعلى عتبات مولاه.

وإذا أراد الله أن يخذل العبد تركه وهواه، أو أنه جعله يعجب بطاعته ويزهو بها حتى يهلك وهو يتهم غيره بالتقصير والهلكة.

يقول ﷺ كما في صحيح مسلم: **«من قال قد هلك الناس فهو أهلكُهم»**[٢].

أي: من قال: أن الناس قد هلكوا وكثرت فيهم المعاصي، وأنهم شردوا عن الله، فعلامة ذلك أنه معجب بنفسه وأنه مغرور، فهو أهلك الناس.

وروي: «**فهو أهلكَهم**»، يعني أنه هو الذي أهلكهم بهذا الكلام، لأن بعض الناس كلما سمع بفاحشة، أو حد أقيم، أو إنسان تناول حبوباً مخدرة مثلاً، أو أن إنساناً ـ نسأل الله العافية ـ زنا، فإنه يجلس

---

(١) أخرجه أحمد في كتاب الزهد، انظر: فيض القدير (٤/٤٩٤)، وكنز العمال برقم (٤٣١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٣)، وأحمد برقم (٨٣٠٩، ٩٦٧٨، ١٠٣١٩)، وأبو داود برقم (٤٩٨٣).

في المجالس العديدة ويقول: أما سمعتم أن فلان بن فلان من آل فلان ارتكب فاحشة! وهكذا.. حتى يهوّن الفواحش في قلوب الناس فيرتكبوها فيهلكون بسببه.

ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النُّور: ١٩].

ولذلك كان من الحكمة ألا يتحدث الإنسان كثيراً عن الفواحش.

بل يخبر بها أصحاب الاختصاص من رجال الحسبة أو أولي الأمر ليتخذوا الإجراء حولها.

وقال رسول الله ﷺ كما في البخاري: «**إني لأستغفر الله وأتوب إليه أكثر من سبعين مرة**»[١].

وورد عن الأغر المزني أنه ﷺ قال: «**إنه ليغانّ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم أكثر من مائة مرة**»[٢]، أو كما قال ﷺ.

قال ابن عمر رضي الله عنه وأرضاه وهو يجلس مع رسول الله ﷺ: عددت لرسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة وهو يقول: «**رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور**»[٣].

إذا علم هذا فإنه ينبغي علينا أن نكثر من الاستغفار وأن نلتجىء إلى الله عز وجل، وأن نطرح قلوبنا عنده، وأن نعلن عجزنا وتقصيرنا عنده سبحانه وتعالى.

كان ﷺ يقيم الحدود في المدينة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٧)، وأحمد برقم (٧٧٣٤، ٨٢٨٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢)، وأحمد برقم (١٧٨٢٧)، وأبو داود برقم (١٥١٥)، والغين: هو ما يتغشى القلب من الغفلة عن ذكر الله تعالى.

(٣) أخرجه أحمد برقم (٤٧١٢)، وأبو داود برقم (١٥١٦)، والترمذي برقم (٣٢٣٤)، وابن ماجه برقم (٣٨١٤)، وانظر: المشكاة برقم (٢٣٥٢).

وما كان مقصود الحدود أن تنهي المعاصي، فإنها مقدَّرة من الله، لكن قصده أن يقوّم سلوك الناس وأن يطهرهم من أدرانهم.

وأن يخبرهم بأن الله غفور رحيم.

فالعبد مهما فعل من معاصٍ وكبائر فلا ييأس من روْح الله سبحانه.

أتي إليه ﷺ بشارب خمر قد شربه مرات عديدة.

فقال أحد الصحابة للشارب: أخزاك الله ما أكثر ما يؤتى بك إلى رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «**لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم**»[(١)].

وفي رواية: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**»[(٢)].

فانظر إلى الحب كيف بقي مع المعصية؟

وانظر إلى فضائل الله ورحمته التي أراد ﷺ أن يخبرها للناس مهما تكررت عليهم المعاصي.

وجاءته امرأة حامل من الزنا ـ والعياذ بالله ـ لتعترف بزناها أمامه ﷺ ليطهرها بالحد من درنها.

ولكنه كان ﷺ يعرض عنها ولا يرد عليها الخطاب رغبة في أن تستتر بستر الله وأن تتوب.

ولكنها صممت على التطهير، لأن التأنيب، كان يقلق قلبها فلا تكاد تستقر إلا بهذا التطهير.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧٧٧، ٦٧٨١)، وأحمد برقم (٧٩٢٦)، وأبو داود برقم (٤٤٧٧).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٧٨٠).

فأخذت تقول: يا رسول الله تريد أن تردَّني كما رددت (ماعزاً) ـ رجل قد زنا ـ ثم حلفت بالله أنها وقعت في الفاحشة.

فقال ﷺ: «**ارجعي حتى تضعي حملك**».

فعادت والإيمان مرتفع عندها وتقوى الله عز وجل في قلبها، فلما وضعت أتت بابنها في لفائف وعرضته عند الرسول ﷺ.

فقال ﷺ: «**عودي حتى تفطميه**».

فعادت حتى فطمته بعد سنتين، وجاءت بالطفل وبيده كسرة خبز وعرضته عند رسول الله ﷺ، فنفذ فيها الرسول ﷺ الحد.

فسبها خالد رضي الله عنه.

فقال ﷺ: «**مهلاً يا خالد، لقد تابت توبة لو وزعت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم**»(١)، أي سبعين من العصاة المردة، وليس سبعين من الصحابة. وفي لفظ: «**لو تابها صاحب مكس لغفر الله له**»(٢).

ثم قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لقد رأيتها تنغمس في أنهار الجنة**»(٣)، لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٦٩٦)، وأحمد برقم (١٩٣٦٠، ١٩٤٠٢، ١٩٤٢٤)، وأبو داود برقم (٤٤٤٠)، والترمذي برقم (١٤٣٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٦٩٥)، وأحمد برقم (٢٢٤٤٠)، وأبو داود برقم (٤٤٤٢)، والدارمي برقم (٢٣٢٠).

(٣) هذا القول أورده المؤلف أنه قيل للغامدية والذي وجدته بين يدي أنه قيل لماعز كما ورد عند أبي داود برقم (٤٤٢٨)، والنسائي في الكبرى برقم (٧١٠٠، ٧١٣٦)، وابن حبان برقم (٤٣١٧)، والبيهقي في السنن برقم (١٧٣٣٨)، وانظر: المشكاة برقم (٣٦٢٧).

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

فما جزاء المذنب إلا أن يستغفر ويعود إلى الله عز وجل.

والمقصود أن هذه النماذج التي عاشت مع الرسول ﷺ ما منعهم عظم جرمهم أن يتوبوا ويستغفروا الله الواحد الأحد سبحانه وتعالى، لأن الرسول ﷺ كان قد مهّد لهم طريق التوبة والاستغفار وإحسان الظن برحمة الله بما يردده على سمعهم من الأحاديث والقصص التي تعين التائبين على التوبة لما فيها من سعة رحمة الله تبارك وتعالى.. كقصة الذي قتل مائة نفس وغيرها من القصص.

نعود إلى حديثنا الأول: (**يا ابن آدم إنك ما دعوتني...** الحديث).

هذا الحديث يدور على قضيتين كما سبق:

قضية التوبة والاستغفار كما مضى.

وقضية الدعاء.

والدعاء له آداب، وهو من أفضل العبادة.

قال ﷺ في حديث فيه بعض المقال في الترمذي: «**الدعاء مخ العبادة**»[١]، والذي يصح هو لفظ: «**الدعاء هو العبادة**»[٢].

فإذا رأيت العبد يكثر من الدعاء فاعرف أنه متجه إلى الله، وأنه كثير الإيمان.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٧١)، وانظر: المشكاة برقم (٢٢٣١).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٧٨٨٨، ١٧٩١٩، ١٧٩٢٤)، وأبو داود برقم (١٤٧٩)، والترمذي برقم (٢٩٦٩، ٣٢٤٧، ٣٣٧٢)، والنسائي في الكبرى برقم (١١٣٦٠)، وابن ماجه برقم (٣٨٢٨)، والحاكم برقم (١٨٣٨)، وانظر: المشكاة برقم (٢٢٣٠).

حدثني أحد الناس فقال: نزلت بأرض مقفرة أنا وأهلي فانقطع عنا الماء، فذهبت لألتمس الماء في الوديان الأخرى فما وجدت شيئاً.

فالتمست في مكاني يمنة ويسرة فما وجدت شيئاً.

فعدت إلى أهلي فوجدت أطفالي وقد كادوا يتلفون من الظمأ، وقد أشرفوا على الموت.

قال: فتفكرت ثم تذكرت أن الحي القيوم بيده خزائن السموات والأرض، وقد أمرنا سبحانه بالدعاء بقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال: فانقطعت كل الحيل التي التمست بها الماء في الوديان، فتيممت وصليت ركعتين، ثم رفعت يدي ودمعت عيناي وتضرعت إلى المولى سبحانه.

قال: فوالله ما غادرت مكاني إلا وأتت غمامة ـ وما كان في السماء من غمام ـ ثم أمطرت على الوادي الذي كنت فيه حتى شربنا وسقينا ولله الحمد.

وهذا لا يحتاج إلى إثبات، فالقرآن والسنة والآثار فيها أكثر من قصة مشابهة لهذه.

منها: قصة الرجل الصالح الذي خرج في تجارة فعرض له لص مجرم في الطريق فقال: أوصلني إلى ذاك المكان بالأجرة.

فصدّقه فأركبه معه.

فأخرجه هذا المجرم خارج الطريق متعذراً بعذر، ثم قال: والله لأقتلنك الآن، لكن ادفع ما معك من مال.

قال: أسألك بالله ليس لأهلي إلا أنا.

قال: حلفت أن أقتلك.

لأنه لو تركه وأخذ المال لأخبر الناس.

فقال: إذن دعني أصلي ركعتين.

قال: صلِّ واستعجل.

قال: فقمت فتوضأت في ذاك الوادي لأصلي ركعتين.

قال: والله لقد نسيت كل آية في القرآن إلا قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النَّمل: ٦٢]، فكررتها، فلما انتهيت من الركعتين وإذا بفارس على فرس يقبل من آخر الوادي وبيده كالرمح معه.

قال: فأطلقه على هذا اللص فوقع في لبته، فإذا هو يتردى على قفاه مقتولاً.

قلت: أسألك بالله أنت من؟

قال: أنا رسول ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النَّمل: ٦٢].

ولما دعوت الدعوة الأولى كنت في السماء السابعة، فدعوت الثانية فكنت في الرابعة، فدعوت الثالثة فكنت في الأرض.

وفي القرآن ما هو أعظم من هذا، كقصة إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار من المنجنيق.

قال سبحانه: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبيَاء: ٦٩]، فكانت برداً وسلاماً.

وصاحب الحوت نجاه الله من البحر، وأنبت عليه شجرة من يقطين، فخرج للدنيا بعد أن دخل في بطن الحوت لأنه قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ

إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٨٧].

فكلما رأيت العبد يكثر الدعاء فاعرف أنه قريب من الله.

وأحسن أوقات الدعاء: أدبار الصلوات.

سئل ﷺ كما عند الترمذي: أي الدعاء أسمع؟

قال: «**جوف الليل الآخر، وأدبار الصلوات**»(١).

ويقول ﷺ لمعاذ: «**لا تدعن أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(٢).

ثم في السجود، ففي الصحيح عنه ﷺ قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء**»(٣)، وفي رواية: «**فقمن أن يستجاب لكم**»(٤). فإذا وضعت رأسك في الأرض ساجداً بعد أن تقول: سبحان ربي الأعلى، فعليك أن تدعو بما تيسر.

يقول الأندلسي وهو يوصي ابنه:

ونادِ إذا سجدت له اعترافاً ... بما ناداه ذو النون بن متّى
وأكثر ذكره في الأرض دأباً ... لتُذكر في السماء إذا ذكرتَ

قال أحد الصالحين: جلست عند أحد الصالحين فسمعته يقول في مجلسه: واغوثاه، واغوثاه، واغوثاه.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٩٩)، والنسائي في الكبرى برقم (٩٨٤٠)، وانظر: المشكاة برقم (٩٦٨، ١٢٣١).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢١٦١٤، ١٢٦٢١)، وأبو داود برقم (١٥٢٢)، والنسائي برقم (١٣٠٣)، وانظر: المشكاة برقم (٩٤٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٤٨٢)، وأحمد برقم (٩١٦٥)، وأبو داود برقم (٨٧٥)، والنسائي برقم (١١٣٧).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٤٧٩)، وأحمد برقم (١٩٠٣)، وأبو داود برقم (٨٧٦)، والنسائي برقم (١٠٤٥، ١١٢٠).

قلت: ما معنى واغوثاه؟

قال: أستغيث بالله، أما سمعته يقول في القرآن: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]؟

فالإنسان في الحياة كالغريق كما يقول الحسن البصري.

فهو يتشبث بأي شيء ينقذه.

فنحن كالغرقى، فما علينا إلا أن نتمسك بشيء من ذكر، وشيء من صلاة، وشيء من دعاء، وشيء من استغفار.

يقول سلمان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله حييٌ كريم يستحي من أحدكم إذا رفع يديه أن يردهما صفراً**»[1].

ما أكرم الله عز وجل!

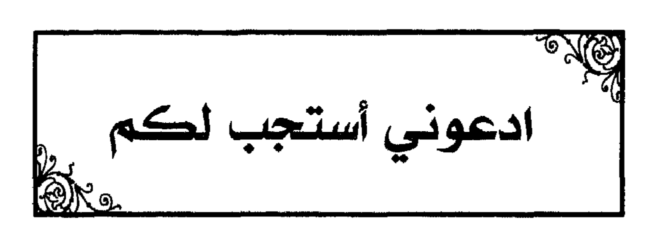
فهو سبحانه يستحي حياء يليق به أن يردك خائباً إذا دعوته.

وللدعاء آداب ومسائل كثيرة ذكرتها في عدة رسائل من هذا المجموع.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



(١) أخرجه أبو داود برقم (١٤٨٨)، ٣٥٥٦)، وابن ماجه برقم (٣٨٦٥)، والبيهقي في السنن برقم (٣٢١٣)، والحاكم برقم (١٨٦٧)، وانظر: المشكاة برقم (٢٢٤٤).



ادعوني أستجب لكم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

عناصر هذا الدرس خمسة:

أولاً: فضل الدعاء وما ورد فيه.

ثانياً: آداب الدعاء.

ثالثاً: دعاء الأنبياء.

رابعاً: دعاء الصالحين.

خامساً: فوائد الدعاء.

اعلموا يا مسلمون، أن الدعاء حبل بين العبد وبين الله، ولا يصدق العبد في الدعاء إلا إذا صدق مع الله.

ولا تأتي حاجة الدعاء عند كثير من الناس إلا في العزمات: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فيوم تشتد العزمات فلا تجد إلا الله، ويوم تضيق بك الكوارث فلا تجد معيناً ولا ناصراً ولا هادياً إلا الله.

يـا حـافـظ الآمـال أنـت حـفـظـتـنـي ومـنـعـتـنـي
وعـدا الـظـلـوم عـلـيّ كـي يـجـتـاحـنـي فـنـصـرتـنـي
فـانـقـاد لـي مـتـخـشـعـاً لـمـا رآك مـنـعـتـنـي

خرج سليمان عليه السلام يستسقي بالناس، فمر في الطريق بنملة، وإذا هي قد انقلبت على ظهرها ورفعت يديها إلى الحق القيوم.

من أخبر النملة أن الله خلقها؟

من أخبر النملة أن الذي يحيي ويميت، ويضر وينفع، ويشافي ويعافي، هو الله؟

أتدرون ماذا تقول النملة؟

تقول: يا حي يا قيوم أغثنا برحمتك.

فبكى سليمان وقال لقومه: عودوا فقد سقيتم بدعاء غيركم.

وورد أن عيسى عليه السلام مر ببقرة وهي في الولادة وقد اعترض ابنها في بطنها، فأخذت البقرة تنظر إلى السماء وتطلب العون من الله، فأنطقها الله الذي أنطق كل شيء وجعلها الله داعية متكلمة تقول: يا حي يا قيوم يسِّر عليّ.

ثم قالت: يا عيسى، يا روح الله أسألك أن تدعو الله أن يسهل عليّ، فبكى عيسى ودعا الله فسهل الله عليها.

كل الكائنات تلتجيء إلى الله سبحانه وتعالى. وقد أخبرنا شيخ جليل لا يزال في أبها حي يرزق، يقول: سافرت في سفينة في البحر الأحمر قريباً من باب المندب الذي يشرف على عدن، فلما حانت صلاة المغرب وأنا وسط البحر بالسفينة قمت أؤذن، فكان هناك ثعبان في البحر كلما قلت: الله أكبر رفع نصفه من البحر، فإذا سكت عاد، فما قلت كلمة ولا جملة من الأذان إلا رفع جسمه ثم نزل بعد أن أسكت.

أما فضل الدعاء فحدِّث ولا حرج، فقد صح عنه ﷺ أنه قال، كما في السنن وعند الحاكم بسند صحيح: «**الدعاء هو العبادة**»[١].

ويوم ترى العبد كثير الدعاء، فاعلم أنه عابد وقريب من الله، وبخلافه الذي لا يدعو كثيراً تجده مبعداً عن الله.

وقف حبيبنا ورسولنا ومعلمنا ﷺ في معركة بدر يدعو في الفجر حتى سقطت بردته من أعلى كتفيه[٢].

ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦].

إذا قالوا لك: أين الله هل هو قريب أو بعيد؟ إذا سألك العباد عن قدرة ربك وعن سماع ربك وعن علم ربك؟ فقل: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، وترك الفصل لشدة الوصل.. أي لم يقل (فقل إني قريب)، فيفصلها ثم قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]. وسبب نزول هذه الآية: أن الصحابة قالوا للرسول ﷺ: أربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت الآية.

ولذلك يقول ابن مسعود: كنت مستتراً بالكعبة، فمر بي مشركان كثير شحم بطونهما قليل فقه قلوبهما، فسمعت أحدهما يقول للآخر: أيسمع رب محمد إذا تكلمنا؟

فيقول أخوه الأعمى: إذا رفعنا سمعنا، وإذا خفضنا لا يسمعنا!! فنزلت آية: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ...﴾ [المجَادلة: ٧] الآية.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) كما ورد في صحيح مسلم برقم (١٧٦٣)، وأحمد برقم (٢٠٨)، والترمذي برقم (٣٠٨١).

وورد في حديث: «**لن يهلك مع الدعاء أحد**»[1]، كيف تهلك والدعاء معك؟ كيف تموت والدعاء معك؟ كيف تخزى في الدنيا والدعاء معك؟

قال علي بن أبي طالب أبو الحسن: عجباً لكم، معكم الدواء ومعكم الداء، داؤكم الذنوب، ودواؤكم الدعاء والاستغفار فأكثروا من الدعاء وألحوا في الدعاء.

ذكر الله إبراهيم عليه السلام فوصفه بأنه كان ﴿أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هُود: ٧٥]، وأهل التفسير لهم اختلاف في كلمة «أواه».

قال بعضهم: كان يقول: أواه من ذنوبي، أواه من خطاياي، أواه من معاصيّ، أواه من تقصيري.

وبعضهم قال: كان كثير الدعاء وكثير المسألة وكثير الإلحاح، فألحوا في الدعاء، فإن الله مهما أكثر الإنسان في الدعاء فإنه يحب ذلك.

الله يغضب إن تركت سؤاله
وترى ابن آدم حين يُسْأل يغضب

لو سألت الإنسان، ولو طرقت على باب الإنسان، ولو ألححت على الإنسان، لغضب منك، أما الله تعالى فكلما سألته كلما أحبك لأنك لجأت إليه.

يقول سبحانه عن زكريا والأنبياء: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٩٠].

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم (٨٤٧)، والحاكم برقم (١٨٥٤)، وانظر: فيض القدير (٥٣٣/٦).

أما العنصر الثاني: آداب الدعاء.

فمنها: دعاؤه سبحانه وتعالى بالأسماء الحسنى.

فالله اختار لنفسه أسماء كالحكيم، والكريم، والعليم، والحليم، والحي القيوم، وذو الجلال والإكرام، وأمثالها.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، كالصوفية الذين لهم دعاء عجيب.

يقول ابن عربي الصوفي الغالي: من أفضل الأسماء (هو هو)، أي الضمير المنفصل هو أفضل الأسماء عندهم.

وهذا ليس دعاء، بل هذا نبح الكلاب (هو هو)!!

وبعضهم قال: الله.. الله.. الله.. الله.

وبعضهم يردد فقط الاسم بلا دعاء (يا لطيف.. يا لطيف.. يا لطيف.. يا لطيف) ماذا فعل اللطيف؟ ماذا تريد من اللطيف؟

لو أتاك رجل عند الباب واسمك محمد فقال: يا محمد يا محمد يا محمد يا محمد.

فقلت: نعم.

فيقول: يا محمد.

فتقول: نعم.

فيقول: يا محمد!

أليس هذا جاهلاً؟ أو مغفلاً؟ بلى لأنه لم يذكر حاجته.

وأسماء الله توقيفية لا يزاد فيها ويخترع له أسماء أخرى غيرها كما يقول صاحب الإحياء: (يا دهر الدهارير)!

قال ﷺ عند أحمد في المسند: «**اللهم إني أسألك بكل اسم هو**

لك سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همي»(١).

وعند البخاري عنه ﷺ أنه قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة**»(٢).

قال أهل العلم: معنى (من أحصاها) على أحد معانٍ ثلاث:

١ ـ قيل: حفظها.

٢ ـ وقيل: عمل بمقتضاها.

٣ ـ وقيل: عرف معانيها.

والكل صحيح.

ومن آداب الدعاء: أن تثني على الله قبل أن تدعو؛ كما كان يفعل ﷺ، كان يقول في الليل: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(٣)، رواه مسلم.

ومن الآداب: الإلحاح في الدعاء، فلا تقل: دعوت دعوت فلم يستجب لي، بل تستمر.

يقول ﷺ: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم**

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٣٧٠٤، ٤٣٠٦)، وأبو يعلى برقم (٥٣٠٠)، وابن حبان برقم (٩٤٨)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (٢٥٠٥٤)، والحاكم برقم (١٩١٣)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٧١٢٩، ١٧٤٤٥)، والمشكاة برقم (٢٤٥٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٧٣٦، ٧٣٩٢)، ومسلم برقم (٢٦٧٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٧٧٠)، وأحمد برقم (٢٤٦٩٩)، وأبو داود برقم (٧٦٧)، والترمذي برقم (٣٤٢٠)، والنسائي برقم (١٦٢٥).

يستجب لي»[1]، وكل شيء عنده تعالى بمقدار. فهل تريد أن يلبي الله لك طلباً في أسبوع؟ موسى عليه السلام وقف داعياً يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يُونس: ٨٨]، فاستجيبت دعوته.

قال أهل العلم: كان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة.

يقول الشاعر:

لطائف الله وإن طال المدى
كلمحة الطرف إذا الطرف شجى
كم فرج بعد إياس قد أتى
وكم إياس قد أتى بعد النوى
سبحان من يعفو ونهفو دائماً
ولم يزل مهما هفا العبد عفا
يعطي الذي يخطي ولا يمنعه
جلاله عن العطا لذي الخطا

ومن آداب الدعاء: عدم التعدي في الدعاء، لأنه يخالف الشرع، مثل أن يدعو العبد بأن يكون نبياً من الأنبياء!

وكأن يدعو بأن يكون أفضل من أبي بكر الصديق، وقد صح بالنصوص أنه أفضل الأمة.

سمع عبدالله بن مغفل المجاهد العظيم الشجاع ابنه يدعو فيقول: (اللهم إني أسألك القصر الأبيض على يمين الجنة).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٤٠)، ومسلم برقم (٢٧٣٥).

فهو يشترط القصر والطريق ولم يبق إلا أن يحدد عدد الأبواب وألوانها!!

فقال عبدالله: يا بني، إني سمعت الرسول ﷺ يقول: «**ليكونن أقوام من أمتي يعتدون في الطهور والدعاء**»[1]، لكن ادع الله الجنة واستعذ بالله من النار.

يقول ابن الجوزي: أتى أعرابي فوقف بعرفة ثم نزل وبات بمزدلفة، وفي اليوم الأول رمى الجمرات وسبق الناس إلى الحرم ودخل الحرم مسرعاً ثم تعلق بأستار الكعبة فقال: اللهم اغفر لي قبل أن يكثر عليك الناس!

وهو سبحانه لا تختلف عليه اللهجات، ولا يضيق بتعدد الحاجات، ولا تختلط عليه النغمات ولا السمات، ولا الأعراف والقبائل والجهات.

لو اجتمع أهل الأرض: من خلق الله من ذرية آدم إلى قيام الساعة في صعيد واحد فأعطى كل واحد مسألته لما نقص ذلك من ملكه سبحانه، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، كما في الحديث الذي رواه مسلم[2].

ومن آداب الدعاء: توخّي أوقات الدعاء الفاضلة. وأعظم وقت يكون في السحر، فسبحان الله الذي جعل السحر من أحسن الأوقات.

قلت لليل هل بجوفك سر عامر بالحديث والأسرار
قال لم ألق في حياتي حديثاً كحديث الأحباب في الأسحار

وفي الصحيحين: «**ينزل ربنا سبحانه وتعالى إلى سماء الدنيا**

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٦٢٥٤، ١٦٣٥٩، ٢٠٠٣١)، وأبو داود برقم (٩٦)، وابن ماجه برقم (٣٨٦٤)، وابن حبان برقم (٦٦٤٩، ٦٦٥٠)، والحاكم برقم (٥٨٩)، وانظر: المشكاة برقم (٤١٨).

(٢) برقم (٢٥٧٧)، وأخرجه أحمد برقم (٢٠٩١١)، والترمذي برقم (٢٤٩٥).

فيقول: هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من داع فأجيبه»[١]، وقال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٨]، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

والسجود من الأماكن والحالات الفاضلة، يقول ﷺ: «**إني نهيت أن أقرأ القرآن وأنا راكع، فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم**»[٢]، أي جدير.

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد**»[٣].

يقولون: كان محمد بن جعفر الصادق إذا سجد عند المقام بكى حتى يبكي الناس، ويقول: مسكينك بين يديك، فقيرك بين يديك.

ومن الأوقات عصر الجمعة بعد صلاة العصر إلى المغرب من يوم الجمعة، لحديث في الصحيحين: «**إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يدعو الله عز وجل**» - أو يصلي كما في رواية أبي هريرة - «**ويسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ شيئاً إلا أعطاه**»[٤]، وهي عصر الجمعة.

ومن الأوقات يوم عرفة عندما يتجلى الله للناس يوم عرفة فيقول: «**يا ملائكة، انظروا لعبادي أتوني شعثاً غبراً ضاحين، أشهدكم أني غفرت لهم**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم برقم (٧٥٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٤٧٩)، وأحمد برقم (١٩٠٣)، وأبو داود برقم (٨٧٦)، والنسائي برقم (١٠٤٥، ١١٢٠).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٤٨٢)، وأحمد برقم (٩١٦٥)، وأبو داود برقم (٨٧٥)، والنسائي برقم (١١٣٧).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٩٣٥، ٥٢٩٥، ٦٤٠٠)، ومسلم برقم (٨٥٢)، وأحمد برقم (٧٦٣١، ٧٧١١).

(٥) أخرجه ابن خزيمة برقم (٢٨٢١)، وابن حبان برقم (٣٧٩٤)، وأبو يعلى برقم (٢٠٩١)، وانظر: الترغيب والترهيب برقم (١٧٩٠).

ومن آداب الدعاء:

ترك السجع والتكلف في الدعاء، وإنما يكون الدعاء غير متكلف بل يخرج من القلب مباشرة دون هذه التقعرات والتعقيدات التي ظهرت حديثاً.

ومن آداب الدعاء: الدعاء بجوامع الأدعية، تقول عائشة في الصحيح: كان ﷺ يتوخى في الدعاء بالجوامع.

فمن الجوامع مثلاً دعاء: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[1]، (اللهم إني أسألك العفو والعافية)[2]، (اللّهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)[3]، (اللهم اهدني وسددني)[4]، (اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي)[5]، (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[6]، (اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)[7]، ونحو ذلك مما ورد في السنة.

ومن آداب الدعاء: إخفاؤه.. قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٥٢٢، ٦٣٨٩)، ومسلم برقم (٢٦٨٨، ٢٦٩٠).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٤٧٧٠)، وأبو داود برقم (٥٠٧٤)، والنسائي في الكبرى برقم (١٠٣٠٢)، وابن ماجه برقم (٣٨٧١)، وابن حبان برقم (٩٣٧)، والحاكم برقم (١٩٣٨)، وانظر: المشكاة برقم (٢٣٩٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٧٢١)، وأحمد برقم (٣٦٨٤، ٣٨٩٤)، والترمذي برقم (٣٤٨٩).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٧٢٥)، وأحمد برقم (١٣٢٣)، وأبو داود برقم (٤٢٢٥).

(٥) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٨٣)، وانظر: المشكاة برقم (٢٤٧٦).

(٦) أخرجه أحمد برقم (١١٦٩٧، ١٣٢٨٤)، والترمذي برقم (٢١٤٠)، وابن ماجه برقم (٣٨٣٤)، والحاكم برقم (١٩٦٣)، وانظر: المشكاة برقم (١٠٢).

(٧) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٤)، وأحمد برقم (٦٥٣٣، ٦٥٧٣).

أما العنصر الثالث: فهو دعاء الأنبياء عليهم السلام.

يقول نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨]. فهو قد دعا لنا عليه السلام بهذا الدعاء لقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وإبراهيم عليه السلام له دعاء كثير في القرآن، فقد دعا لنا نحن أهل الجزيرة، أهل الفواكه والخضروات، أهل الفلل البهية، أهل القصور، أهل الصحراء.

لم يكن عندنا ماء ولا شجر ولا حدائق ولا بساتين، بل صحراء جرداء، مرداء، قاحلة، لا ظل وارف ولا ماء بارد، ولا شيء.

فقال إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فاستجاب الله دعوته على آلاف السنين.

وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠].

أما موسى عليه السلام فأمره عجيب ﷺ، فقد كان شجاعاً جريئاً، ما صلح لليهود إلا هو، فكانوا يتصورون صورته في الماء البارد حتى إذا غاب عبدوا العجل.

أرسله الله إلى فرعون فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ [طه: ٢٥، ٢٦]، فقال الله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، قال المفسرون: قال سؤلك ولم يقل: أسئلتك، لأنه تعالى اعتبرها سؤالاً واحداً، وهذا من كرمه سبحانه.

وأما يونس بن متى فله قصة مع الدعاء، عندما غاضب قومه

وخرج في السفينة فالتقمه الحوت في القصة المشهورة.

فقال كلمة من أورع الكلمات.

قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وارتفعت إلى الله، حية مع الهواء، مباشرة إلى الحي القيوم، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقيل في سيرته عليه السلام: سمعت الملائكة هذا الصوت فبكت، وقالت: يا ربنا صوت معروف من عبد معروف، لا ندري أين هو.

قال الله: أنا أدري أين عبدي وسوف أنجيه ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصَّافات: ١٤٣، ١٤٤]، فأنقذه الله بسبب هذا الدعاء الحار.

أما أبو القاسم حبيبنا ﷺ فله دعاء، لكن دعاءه له طعم خاص، ودعاؤه من أعجب الدعاء، ودعاؤه يصل إلى القلب مباشرة، في الصحيحين عن ابن عباس قال: بتُّ عند خالتي ميمونة زوجة محمد ﷺ، فقام ﷺ يصلي من الليل. فقال: «**اللهم لك الحمد أنت ربّ السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، والنار حق، والجنة حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[1]، أو كما قال ﷺ.

وعند مسلم عن عائشة كان ﷺ إذا قام من الليل يقول: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما**

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢)، ومسلم برقم (٧٦٩).

اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١).

أتاه رجلان من العرب يريدان قتله فقال: «**اللهم اكفنيهم بما شئت**»، فأما أحدهما فأصابه الله بغدة كغدة البعير قتلته في بيت عجوز سلولية، وأما الآخر فأرسل الله عليه صاعقة من السماء فأحرقته.

وأدعيته ﷺ كثيرة مشهورة تجدها منثورة في كتب السنة.

وأما العنصر الرابع: فدعاء الأولياء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يُونس: ٦٢، ٦٣].

أولياء الله أصحاب المسجد، وأهل الصف الأول، أهل الروضة، أهل المصحف، أهل القرآن، وأهل التسبيح، وأهل الصيام، وأهل قيام الليل، وأهل الذكر الخالد، وأهل الحجاب.

سافر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وأميرهم العلاء بن الحضرمي، فقطعوا صحراء الدهناء، فلما انتصفوا في الصحراء فقدوا الماء، فبحثوا فلم يجدوا.

فقالوا: يا علاء ادع الله أن يغيثنا.

فوقف العلاء واستقبل القبلة وقال: يا حكيم، يا عليم، يا علي، يا عظيم أغثنا هذا اليوم.

قالوا: والله ما انتهى من دعائه إلا والسحاب قد غطى المكان، فأمطرت السماء حتى سقوا واغتسلوا وشربوا.

سبحانك ما أسرع إجابتك!

---

(١) سبق تخريجه.

وكان البراء بن مالك أحد الصحابة مجاب الدعوة، فحضر مع المسلمين معركة بتستر فقال له المسلمون: يا براء نسألك بالله أن تقسم على الله أن ينصرنا.

فقال: انتظروني قليلاً، فاغتسل ولبس أكفانه وأتى بالسيف وقال: اللهم إني أقسم عليك أن تجعلني أول قتيل وأن تنصرنا.

فكان أول قتيل وانتصر المسلمون.

وسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ دعا له النبي ﷺ بإجابة الدعوة، فكان لا يدعو بدعوة إلا أصابت واستجاب الله لها.

ابتلاه رجل من أهل العراق عندما كان والياً عليها فقال بأنه لا يحسن أن يصلي، وأنه لا يعدل في حكمه، فدعا عليه بقوله: (اللهم أطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن).

فكان بعد سنين من تلك الدعوة يقف في طرقات الكوفة يسأل الناس ويغمز الجواري ويلاحقهن ويقول: شيخ مفتون أصابته دعوة سعد.

أما العنصر الخامس: فهو فوائد الدعاء:

أولاً: إعلان التوحيد، فأعظم الناس توحيداً أكثرهم دعاء، لأنه دليل على الاتصال بالله.

ثانياً: صدق العبودية، فبالدعاء تكون صادقاً في العبودية قريباً من الواحد الأحد، فإن الذي يدعو الله بلسان خفي دليل على ثقته به.

ثالثاً: التعرض لمحبة الله، فأحب العباد إلى الله أقربهم وأكثرهم دعاء.

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه

من جود كفيك ما علمتني الطلبا

فأحب الناس إلى الله يا مسلمون أكثرهم دعاء، فأرجو من نفسي ومنكم كثرة الدعاء والابتهال، وكثرة الإلحاح في السجود، وأدبار الصلوات، وبين الأذانين وفي السحر.

رابعاً: قرب العبد من الله، فإن العبد إذا أكثر من الدعاء استشعر القرب من الله، وهي درجة الإحسان، وهي أعظم درجة، وهي: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١].

خامساً: الثقة بموعود الله، فالواثق كثير الدعاء، والفاشل المهزوم المتردد قليل الدعاء.

سادساً: دحر الشيطان، فالشيطان يندحر من الداعي.

فيا أيها الإخوة أكثروا من الدعاء، وارفعوا أياديكم إذا دعوتم، واطلبوا من الله عز وجل العون والسداد، وادعوه بالأسماء الحسنى، وصلوا في دعائكم على الرسول ﷺ.

وأحسن الدعاء ما كان في الأوقات الفاضلة واستقبل به القبلة، وكان بعد ذكر وتسبيح وتهليل، ودعي فيه بأسماء الله الحسنى وبعد سواك، وكان على طهارة، وكان في مكان فاضل، في مسجد أو في مقعد ذكر أو عند الكعبة.

أسأل الله لي ولكم التوفيق والرشد والسداد.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



---

(١) كما جاء في حديث جبريل الطويل الذي أخرجه البخاري برقم (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم برقم (٩، ١٠).

تضرعاً وخفية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء المرسلين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

يقول تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعرَاف: ٥٥]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦].

وصح عنه ﷺ أنه قال: **«الدعاء هو العبادة»**[١]، رواه أحمد وأهل السنن والحاكم بسند صحيح. وعند الترمذي في سننه: **«الدعاء مخ العبادة»**[٢]، لكن فيه ضعفاً.

إذا علم هذا أيها الأخيار فموضوعنا هو: (الدعاء هو العبادة)، ويندرج فيه عناصر:

١ ـ الحث على الدعاء.

٢ ـ دعاء الأنبياء في القرآن عليهم الصلاة والسلام.

---

(١)(٢) سبق تخريجه.

٣ ـ أعظم الأدعية في السنة.

٤ ـ أدعية نبوية عامة صحت عنه ﷺ.

٥ ـ سيد الاستغفار وشرحه.

٦ ـ الاستعاذات من الهم والغم وما في حكمها.

٧ ـ نماذج من استجابة الله.

٨ ـ طلب الدعاء من الصالحين.

٩ ـ التعدي في الدعاء.

١٠ ـ الملل والسأم والضجر والانقطاع عن الدعاء واستبطاء الإجابة.

١١ ـ الأوقات الفاضلة للاستجابة.

١٢ ـ الدعاء والقضاء.

أما الحث على الدعاء فكما سمعتم قوله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»، وبعض الناس يجعل الدعاء باباً ثانوياً حتى يقول بعضهم: لا بأس أن تدعو، كأن الدعاء أمر سهل إن أتى أو ذهب، وما علموا أن الدعاء هو سهام الليل.

دخل أحد الصالحين على ظالم من الظلمة فقال السلطان: والله لأقتلنك قتلة ما قتلها أحد من الناس.

فقال هذا الرجل الصالح: أما أنت فعندك الجنود، وعندك البيوت، وعندك السيوف، وعندك الرماح، أما أنا فعندي سهام الليل.

قال: ما هي سهام الليل؟

قال: أوتار أمدها بخشوع، وأرسلها بدموع مع السهر فيرفعها الحي القيوم ويقول لها: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين.

فقال السلطان وهو يرتعد: ما دام أنك التجأت إلى الحي القيوم فلا أمسُك.

فمن الذي التجأ إليه فلم ينصره؟

دخل البرامكة السجن.. البرامكة الذين بطروا وأكلوا وشربوا وضحكوا وعمروا ورفعوا القصور حتى بلغ من إعجابهم بأنفسهم أن أخذوا ماء الذهب وطلوا به القصور.

وسفكوا الدم.. وكان هناك شيخ ظلموه كبير مسن فرفع يديه في السحر وقال: يا رافع الجبابرة خذ البرامكة.

فأخذهم العزيز المقتدر الذي يمهل ولا يهمل، وإذا أخذ فإن أخذه أليم شديد ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، أليم يصل إلى القلوب، وشديد لا يطاق على الأرواح.

فغضب عليهم الخليفة أقرب الأقرباء إليهم. لأن من تعلق بحبل غير حبل الله انقطع به هذا الحبل، ومن ركن إلى صديق وإلى صاحب ورضي به من غير الله لا تأتيه العثرة إلا من هذا الصاحب، فأخذهم الله فغضب عليهم هارون الرشيد فقتل شبابهم في النهار، وأتى إلى شيوخهم فأوقعهم في السجن، ثم أخذ قصورهم فسباها بالجنود.

فدخلوا على شيخ البرامكة وهو شيخ كبير سقط شعر حاجبيه على عينيه فقالوا له: كيف حالك؟

قال: لست بميت من أهل الآخرة، ولا حي من أهل الدنيا، ما رأيت الشمس ثماني سنوات.

قالوا: ما الذي أصابكم بهذا؟

قال: دعوة من مظلوم سرت في ظلام الليل غفلنا عنها وما غفل الله عنها.

ولذلك ليس الدعاء أمراً ثانوياً عند المسلم، بل هو أمر أكيد، وإنما يفعل ذلك الحمقى.

يقول ابن الجوزي في كتاب الحمقى: قالوا لأحمق أراد سفراً: ندعو لك؟

قال: لا أحتاج إلى دعاء، المكان قريب!

سبحان الله! قريب أو بعيد، فالله سبحانه وتعالى هو الحافظ وهو الذي يرعانا.

طلب الحجاج الحسن البصري ليقتله لأنه سبّه وشتمه أمام القراء وبيّن عيوبه ومخازيه، فأرسل إليه الجنود فقبضوا عليه وقالوا: الحجاج يريدك.

فقال الحسن: يا حي يا قيوم أسألك أن تسخر الحجاج لي هذا اليوم، ثم خرج معهم.

فلما وصل إلى الحجاج فإذا هو قد تغير وهدأ غضبه وزال، فلما دخل الحسن أخذ الحجاج الطيب وطيّبه به! خجلاً وهيبة منه.

فلما سألوا الحجاج: لماذا لم تبطش به؟

قال: والله إنني هبته اليوم كأشد هيبة مرت بي!

سبحان الله! ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفُرقان: ٥٨].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣، ١٧٤].

يقول الصحابة: يا رسول الله، أربُّنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٦] قال أهل العلم: اشترط الله عليهم شرطين.

الأول: الاستجابة المطلقة لله ولرسوله، فمن لم يستجب لله ولرسوله لا يستجيب الله له أبداً لأنه عطل طريق الإجابة.

الأمر الثاني: أن يكون مؤمناً عاملاً للصالحات. ومهما طال المدى فإن العبد بين نعمة الدعاء حتى يقول أحد الصالحين: والله إني أريد أن يتأخر قضاء حاجتي لما أجد من لذة الدعاء؛ يريد أن يفتح الله له باب الدعاء.

يقول موسى ﷺ وقد رفع يديه وعنده أخوه هارون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يُونس: ٨٨]، فقال هارون: آمين آمين آمين.

فأنزل الله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يُونس: ٨٩]، فجعل المؤمن والداعي داعيين.

قال أهل العلم: بعد أربعين سنة أجاب الله دعوته، وما قنط وهاب وما مل وما سئم.

ويعقوب بكى أربعين سنة عليه السلام على يوسف.

وعند الإمام أحمد في كتاب الزهد أن موسى عليه السلام لما عبر أرض مدين وكشف الصخرة وسقى تولّى إلى الظل ثم بكى لأنه فقير مطرود مسكين مريض جائع، فرفع يديه إلى السماء وقال: يا رب! فقير مريض جائع غريب.

فأوحى الله إليه: يا موسى، الجائع من لم أكن أنا مطعمه،

والغريب من لم أكن أنا مؤنسه، والفقير من لم أكن أنا مغنيه، والمريض من ألم أكن أنا طبيبه.

إذا علم هذا فقد طالبنا الله بالدعاء وقال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»، وإذا أردت أن تعرف قوة إيمان العبد فانظر إلى دعائه، فإذا رأيت العبد يبتهل في أدبار الصلوات، وبعد الفجر، وإذا قام من النوم، وقبل الصلوات، وبعد الصلوات، ويوم الجمعة، فاعرف أنه مؤمن.

وإذا رأيت العبد كالاً فاجراً لا يدعو إلا بسهو أو لهو فاعرف أن إيمانه على قدر دعائه.

قال عز من قائل: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال في الذكر سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] قال هنا (خيفة) وقال هناك (خفية).

ففي الذكر تكون الخيفة أفضل، لأنه من الخوف، فعلى الذاكر أن يكون خائفاً، وعلى الداعي أن يكون مخفياً.

فيخفي الداعي دعاءه لأمور:

أولها: لئلا يتشوش قلبه.

الأمر الثاني: أنه أخلص للعبادة وأبعد عن الرياء والسمعة.

الأمر الثالث: أنه أبعد عن عين الحاسد، لأن الحاسد ينقم على النعمة، وأفضل النعم أن تدعو الله.

يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه: كنا مع الرسول ﷺ فأخذ الصحابة يرفعون أصواتهم بالذكر والتكبير والتهليل والتحميد والتسبيح، فقال ﷺ: «**يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، وإنما تدعون سميعاً بصيراً أقرب**

لأحدكم من عنق راحلته»، ثم قال لأبي موسى: **«ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله»**(١).

فكان أبو موسى يقولها في نفسه، فدله ﷺ على ذلك.

يقول عز من قائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، وهو قرب العلم، وإلاّ فالله مستوٍ على عرشه بائن من خلقه استواء يليق بجلاله، ولذلك ذكر الله معية العلم فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجَادلة: ٧].

فهذا القرب بالعلم ما يكون اثنان إلا والله ثالثهما ـ تبارك وتعالى ـ بعلمه، وإلا فهو مستوٍ على عرشه قريب يسمع دعاء الداعي ويرى مخ النملة في عظمها الناحل، ويرى دبيب النملة ويسمعه وهي في الحندس على الصفاة السوداء في بقاع الأرض أو في قاع المعمورة: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعَام: ٥٩].

يقول سبحانه وتعالى عن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يمدحهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٩٠]، فوصفهم بكثرة الدعاء، وسوف نمر بنماذج من دعاء الأنبياء والرسل، فلا يستهين العبد بالدعاء ولو كان في أمر يسير.

الأمر الثاني: دعاء الأنبياء في القرآن وعلى رأسهم إبراهيم عليه السلام الذي أتى يدعو حتى وصل إلى الذنب والخطيئة، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٢٠٥، ٦٣٨٤، ٦٦١٠)، ومسلم برقم (٢٧٠٤).

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٢]، وهذا احترام ووجل وخوف. فلم يقل: والذي يغفر لي خطيئتي يوم الدين. مع أن الله غفر له، ومع أنه نبي، لكنه قال حياء من الله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٢]، ثم دعا بدعواته فقال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٣]، أمتني على لا إله إلا الله وعلى الدين الخالص، ﴿وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٖ فِى ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٤،٨٥]، ما هو لسان الصدق في الآخرين؟ الذكر الحسن. أن تموت ولك ذكر حسن في الناس.

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى

علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه أتاه رجل أعرابي فقال له: أريد منك حاجة يا أمير المؤمنين.

قال له: اكتب حاجتك في الأرض لكي لا تصب ماء الحياء وماء المروءة من وجهك.

يقول: ما أريد أن أحرجك أو أخجلك.

فكتب على الأرض حاجته.

فأعطاه علي حلة فقال الأعرابي:

كسوتني حلة تبلى محاسنها ... لأكسونك من حسن الثنا حللا

قال علي: ذلك خير.

أتى وفد غطفان إلى عمر وفيهم أبناء هرم بن سنان شيخ قبائل غطفان الذي أصلح بين عبس وذبيان في معركة استمرت أربعين سنة، والذي يقول فيه زهير الشاعر يمدحه ويمدح صاحبه لأنهما أصلحا بين القبيلتين ودفعا ديات القتلى، يقول زهير:

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

فقال عمر لأبناء هرم: ماذا أعطيتم زهير؟

قالوا: مدحنا فأعطيناه.

قال عمر: ذهب والله ما أعطيتموه وبقي والله ما أعطاكم، وهو الذكر الحسن. والذكر الحسن لا يتأتى إلا إلى المؤمن، فوالله لو حاول الفاجر أن يجمع الدنيا ويجعل الدنيا صحفاً ويجعلها مجلات ويجعلها دعايات ويجعلها لوائح ولافتات، والله لا تقبل عليه القلوب.

قال البخاري في الصحيح في كتاب الأدب (باب) المقة في الله تعالى عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبداً، نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبّوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض**»[1].

فالحب من الله تبارك وتعالى، وهو لسان الذكر في الخالدين، يحرص عليه المؤمن أن يحسن سريرته مع الله بالصدق مع الله تبارك وتعالى.

وأما نوح عليه السلام فإنه دعا بالأدعية القليلة ولكن كانت أدعيته مؤثرة، فإنه بعد أن حاول في قومه وحاول ولم يفد معهم شيئاً توجه إلى الله وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، يقول: يا رب حتى أولادهم خذهم معهم، ما يأتي الولد إلا مثل أبيه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٩، ٦٠٤٠، ٧٤٨٥)، ومسلم برقم (٢٦٣٧)، وأحمد برقم (٩٠٨٨، ١٠٢٣٧)، والترمذي برقم (٣١٦١).

إن العصا من هذه العصية لا تلد الحية إلا حية

ومن أدعيتهم: وينبغي للمسلم أن يجمعها ويحاول أن يتحفظها من القرآن لأن أحسن الدعاء دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل دعاء موسى عندما كان يرعى الغنم يهش على ضأنه بالعصا، وفجأة وهو في الصحراء فإذا بالله يناديه سبحانه وتعالى قال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤]، فضاق صدره من الخبر من فرعون ويذهب إلى فرعون فقال دعوةً من أحسن الدعاء، قال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه: ٢٥]، وعلينا أن نردد هذا دائماً: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٥-٢٨].

فالدعاء بانشراح الصدر من أعظم الأدعية، لذلك امتن الله به على رسولنا ﷺ فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: ١].

يقول أحد المفسرين معلقاً على الآية: فتش في جوانحك وابحث في خفاياك، أما شرحنا لك صدرك فكان واسعاً فسيحاً، وقد كان ضيقاً قبل أن تأتيك النبوة.

فشرح الصدر أعظم منّة يمنها الله على العبد.. تجد المسلم المؤمن في الزنزانة وصدره فسيح واسع، وتجد الفاسق في القصور وفي الدور وفي السيارات والعمارات وصدره ضيق حرج كأنما يتصعد للسماء، كأن اللعنة جمعت له.

لماذا؟ لأن الله أخذ على نفسه ميثاقاً وعهداً بيّنه في سورة طه، قال: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] في الدنيا ولا في الآخرة.. قاله ابن عباس، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]. وانظر إلى كلمة : ﴿ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] ما أشد حروفها وأثقلها، فهي تعبير حي عن حياة هذا المعْرض، ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ

كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

ومن الدعاء العظيم الذي وصفه ﷺ لأمته: دعاء يونس بن متّى، يقول ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت** : ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] **فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**»(١).

وفي هذا الدعاء ميزات ثلاث:

أولها: الاعتراف بالتوحيد.

الثانية: أنه اعتراف بالتقصير.

الثالثة: الاستغفار. فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فواجب على العبد إذا ضاقت به ضائقة، أو أتاه حادث، أو أتاه هم وغم أن يكرر هذا الدعاء، فإنه بإذن الله فتح عظيم.

يقول الأندلسي يوصي ابنه:

وناد إذا سجدت له اعترافاً ... بما ناداه ذو النون بن متى

وأكثر ذكره في الأرض دأباً ... لتذكر في السماء كما ذكرتا

ذكر أهل التفسير وأهل السير أن يونس عليه السلام غاضب قومه كما تعرفون وخرج في سفينة، فأوقعه الربان وأهل السفينة في البحر لأن القرعة وقعت عليه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصَّافات: ١٤١].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٤٦٥)، والترمذي برقم (٣٥٠٥)، والنسائي في الكبرى برقم (١٠٣٩١)، والحاكم برقم (١٨٩٨، ١٨٩٩، ٤١٧١)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١١١٧٦، ١٧٢٧١)، والمشكاة برقم (٢٢٩٢).

فأصبح في ظلمة البحر وظلمة الليل، وتلقفه حوت فابتلعه فأصبح في بطنه.

انظر إلى الموقف، من يسمعه؟ حتى لو كان هناك فرق إنذار أو سواحل أو طوارىء أو حرس ما سمعوه في بطن الحوت، لكن السميع المجيب الذي هو أقرب من حبل الوريد سمعه، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، فأتى بكلمة تنفجر لها القلوب، من أعظم الكلمات عند أهل التوحيد، قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٨٧] يقول أهل العلم: لما قالها عبرت بصوته إلى السموات السبع تخترقها، فسمعتها الملائكة فبكت وقالت: صوت معروف من عبد معروف.

فأنقذه الله، وأخرجه الله، ونجاه الله، لأنه التجأ إلى الله، فحق على المسلم إذا ضاقت به ضائقة أن يردد: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٨٧].

وعند البخاري في الصحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**دعاء الكرب: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم**»[1]، هذا دعاء الكرب الذي بإذن الله من دعا به استجيب له.

وذكروا عن العلاء الحضرمي أنه قال: يا علي يا عظيم، يا حكيم، يا عليم، فأغاثه الله وأغاث الصحابة معه.

ومن دعائهم دعاء سليمان عليه السلام، أراد أن يدعو الله في ملك لا يكون لأحد من قبله، فعلم أن الملك ينتهي وأن الملك زائل والجنود منتهون، وأن الدور تخرب والقصور تهدم، فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٤٥، ٧٤٢٦)، ومسلم برقم (٢٧٣٠).

لِي﴾ [الأعراف: ١٥١] أولاً، أعطاه الله ملكه واستعرض جيوشه حتى كان الطير يحجب شعاع الشمس في السماء، والبحار ممتلئة بالجن له، وأما الأرض فممتلئة بالجيوش، فسجد على الأرض وبكى وقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ [النَّمل: ٤٠].

وأما يوسف عليه السلام فقال في آخر حياته بعدما تملك مصر: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ [يُوسُف: ١٠١]. نبي مرسل ويقول: توفني مسلماً، لأن هذه الأمنية العذبة، وهذه الغاية المنشودة، وهذه غايتنا في الحياة يا معشر المسلمين.

والله الذي لا إله إلا هو، إن التربية الآثمة، التربية الأوربية، تربية الخواجات التي أخرجت من شبابنا وفتياتنا وأبنائنا شباباً لم يتذكروا لقاء الله ولا حسن الخاتمة ولا الموعود الذي وعده الله، يبنون مستقبلهم على هوايات تضحك العقلاء، حتى تجد في المجلات صورة شباب في الخامسة عشر من عمرهم هوايتهم جمع الطوابع والمراسلة وصيد الحمام.

أما يخجل أهل هذه الصور وهم أبناء أبي بكر، وأبناء عمر، وأبناء عثمان، وأبناء علي، وأبناء خالد وسعد، الذين فتحوا الدنيا وأذنوا في سمع المعمورة، وقدموا أرواحهم رخيصة لترتفع لا إله إلا الله محمد رسول الله؟.. فيربى الجيل على هذه الأمور.

وأما أعظم الأدعية في الإسلام فهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠١]، فهل تركت من الخير شيئاً؟

وهل تعلم خيراً ما تضمنته هذه الآية؟

وهل تعلم معروفاً في الدنيا أو الآخرة أو فتحاً أو رزقاً لا يدخل في هذه الآية؟

يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وهم أعراب حجوا مع الرسول ﷺ، فرفعوا أيديهم في عرفات وفي منى وقالوا: اللهم أدرَّ لنا الضرع، اللهم نسألك غيثاً مغيثاً هذا العام، اللهم أنتج لنا إبلنا وأحي لنا زرعنا ومواشينا.

ولكن ما قالوا: ربنا اغفر لنا.

وهناك صنف قابل هؤلاء فطلب الآخرة ولم يطلب من الدنيا شيئاً، حتى أن بعضهم يطلب لنفسه المرض، ففي حديث صحيح أن رجلاً من الأنصار رفع يديه وقال: اللهم ما كنت معذبني به في اليوم الآخر فقدمه لي وعجله لي اليوم. فابتلي بالمرض حتى أصبح كالفرخ من المرض، فزاره ﷺ فقال له: «**يا فلان أقلت شيئاً؟**»

قال له: يا رسول الله، قلت: اللهم ما كنت معذبني به من عذاب فقدمه لي.

قال: «**سبحان الله، وهل تطيق عذاب الله؟ قل: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**»[1].

ومن أعظم الأدعية: اللهم إني أسألك العفو والعافية.

يقول العباس: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به.

قال: «**قل: اللهم إني أسألك العفو والعافية**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٨٨)، وأحمد برقم (١١٦٣٨، ١٣٦٥٢)، والترمذي برقم (٣٤٨٧).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٧٦٩، ١٧٨٦)، والترمذي برقم (٣٥١٤)، وأبو يعلى برقم (٦٧٠٢)، وابن أبي شيبة برقم (٢٤٩٢١)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٧٣٧٥).

بعضهم يزيد كما في المسند لأحمد: اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، فهذا الدعاء عظيم جد عظيم أن تدعو بالعفو والعافية.. العافية في جسمك وأهلك.. والعفو من الذنوب والخطايا.

أما الأدعية النبوية العامة فقد ورد عنه ﷺ أدعية صحيحة، منها قوله ﷺ: **«اللهم اهدني وسددني»**، ففي صحيح مسلم أنه قال لعلي بن أبي طالب: **«يا علي، قل: اللهم اهدني وسددني، واذكر بهدايتك هداية الطريق، وبتسديدك تسديد السهم»**[1]، فكان علي دائماً يقول: اللهم اهدني وسددني.

وهي من أحسن الدعاء، وأوصيكم بها صباح مساء.

ومنها وهذا صحيح: **«اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي»**، علّمه ﷺ لحصين بن عبيد والد عمران بن حصين، كما في سنن الترمذي أنه وفد على الرسول ﷺ فقال ﷺ: **«يا حصين كم إلهاً تعبد»**؟

قال: أعبد سبعة.

قال: **«أين السبعة؟»**.

قال: ستة في الأرض وواحد في السماء.

قال: **«من تعد لرهبتك ولرغبتك»**؟ يعني من إذا اشتدت عليك الأمور، وضاقت السبل، وأغلقت عليك الطرق، من الذي تدعوه؟

قال: الذي في السماء.

قال: **«فاترك التي في الأرض واعبد الذي في السماء»**.

قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٢٥)، وأحمد برقم (٦٦٦، ١٣٢٣)، وأبو داود برقم (٤٢٢٥).

ثم قال له ﷺ: «**يا حصين، ألا أعلِّمك دعاء؟**».

قال: بلى يا رسول الله.

قال: «**قل: اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي**»[١].

وفي الصحيحين عن أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه. قال: قلت يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي.

قال ﷺ: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[٢].

وخرج ﷺ على معاذ بعد صلاة فشبك أصابعه بأصابعه وقال له: «**يا معاذ والله إني لأحبك**».

قال معاذ: وأنا يا رسول الله والله إني لأحبك.

قال: «**لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٣].

وللعبد حفظ هذا الدعاء فإنه عظيم: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[٤].

ومن الأدعية العظيمة خاصة في السجود: «**يا مقلِّب القلوب ثبِّت**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٨٣)، وانظر: المشكاة برقم (٢٤٧٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٦٣٨٨)، ومسلم برقم (٢٧٠٥).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٢١٦١٤، ٢١٦٢١)، وأبو داود برقم (١٥٢٢)، والنسائي برقم (١٣٠٣)، وانظر: المشكاة برقم (٩٤٩).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٧٧٠)، وأحمد برقم (٢٤٦٩٩)، وأبو داود برقم (٧٦٧)، والترمذي برقم (٣٤٢٠).

قلبي على دينك»[١]، وفي رواية: «**يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»**[٢]، ومن الأدعية العظيمة ما صح خاصة في السجود: «**اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك»**[٣]، أو كما قال ﷺ.

ومن الأدعية الصحيحة قوله ﷺ: «**اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار»**[٤].

أما المسألة الخامسة فهي سيد الاستغفار. ذكر صاحب طبقات الحنابلة أن عالماً دفن فرؤي في المنام فقالوا: ماذا فعل الله بك؟

قال: غفر لي مغفرة عامة وخاصة.

قالوا: ماذا توصينا به؟

قال: أوصيكم بسيد الاستغفار.

سيد الاستغفار أمره عجيب، وإني أوصيكم جميعاً بحفظه وتذكره صباح مساء، وفي أدبار الصلوات، وأن تكرروه طويلاً وكثيراً.

سيد الاستغفار عجيب، ونص سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**[٥].. فيه توحيد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٧١٧٨)، والنسائي في الكبرى برقم (٧٧٣٢)، وابن ماجه برقم (١٩٩)، وابن حبان برقم (٩١٩)، والحاكم برقم (٧٩٧٩)، وانظر: مصباح الزجاجة برقم (٦٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٤)، وأحمد برقم (٦٥٣٣، ٦٥٧٣).

(٤) أخرجه الحاكم برقم (٥٧٠٣).

(٥) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٦، ٦٣٢٣)، وأحمد برقم (١٦٦٦٢، ١٦٦٨١).

واعتراف وتسبيح واستغفار، وفيه ذكر واعتراف بنعمته وتبرم من الذنب.

المسألة السادسة: ما هي الأمور التي نستعيذ منها صباح مساء؟

استعاذ ﷺ من أشياء، منها: الهم والغم والحزن، فقد صح عنه ﷺ أنه كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من البخل والجبن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**»(١).

وقال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر**»(٢)، لأن الفقر قد يصل لدرجة أن يتسخط العبد على الله.

وكان ﷺ يستعيذ من غنًى مطغٍ وفقرٍ منسٍ. الغنى المطغي الذي قد يصل لدرجة أن العبد يطغى على عباد الله، والفقر المنسي هو الذي ينسيه رحمة الله وعفو الله وجلال الله.

وكان يقول ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة**»(٣)، وكان يستعيذ ﷺ من عذاب القبر وعذاب النار، وفتنة المحيا وفتنة الممات، وفتنة المسيح الدجال(٤).

وكان إذا خرج من بيته ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أزلّ أو أُزل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل**

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٥٥٥)، وانظر: المشكاة برقم (٢٤٤٨).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٩٨٦٨، ١٩٨٩٦)، والنسائي برقم (١٣٤٧، ٥٤٦٥)، وابن خزيمة برقم (٧٤٩)، وابن حبان برقم (١٠٠٤)، والحاكم برقم (١٠٧)، وانظر: المشكاة برقم (٢٤٨٠).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (١٥٤٧)، والنسائي برقم (٥٤٦٨، ٥٤٦٩)، وابن ماجه برقم (٣٣٥٤)، وانظر: المشكاة برقم (٢٤٦٩).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٨٣٣ ،٦٣٦٨)، ومسلم برقم (٥٨٩).

علي»(١)، وعند ابن عساكر: «**أو أطغى أو يطغى علي**». هذا مما يحفظ ويقال دائماً إذا خرجت إلى وظيفتك، إلى مدرستك، إلى مزرعتك، إلى سوقك، إلى دكانك، وقلت هذا الدعاء تولاك الله.

وإذا خرجت وقلت: «**بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله**»، كان معك ملكان يقول أحدهما للآخر: كفيت ووقيت، ويتخلى عنك الشيطان(٢).

وكان ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، ومن دعاء لا يسمع**»(٣)، أو «**من دعوة لا يستجاب لها**»(٤) أو كما قال ﷺ.

أما المسألة السابعة: فهي نماذج من استجابة الله لأوليائه.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عِمرَان: **١٧٣**] قالها إبراهيم لما ألقي في النار فصارت برداً وسلاماً.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عِمرَان: **١٧٣**] قالها محمد ﷺ في أحد لما قال له الناس: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عِمرَان: **١٧٤**].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٦١٨٩)، وأبو داود برقم (٥٠٩٤) واللفظ له، والترمذي برقم (٣٤٢٧)، والنسائي برقم (٥٤٨٦)، وانظر: المشكاة برقم (٢٤٤٢).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٩٥)، والترمذي برقم (٣٤٢٦)، وابن حبان برقم (٧٩٩)، وانظر: الترغيب والترهيب برقم (٢٤٨٤)، والمشكاة برقم (٢٤٤٣).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٨٢٨٣، ٨٥٦١)، وأبو داود برقم (١٥٤٨)، والنسائي برقم (٥٥٣٦، ٥٥٣٧)، وابن ماجه برقم (٢٥٠)، وانظر: المشكاة برقم (٢٤٦٤).

(٤) هذه الرواية أخرجها مسلم برقم (٢٧٢٢)، وأحمد برقم (١٨٨٢١)، والنسائي برقم (٥٤٥٨، ٥٥٣٨).

فإذا سمعت أحداً يتحرش بك، أو يكيد لك، أو يتربص بك، أو يدير لك الدوائر، فقل: حسبنا الله ونعم الوكيل. إذا كادك كائد، وأراد أن يجتاحك ظالم، أو دبر لك مدبر، ووقف لك خبيث، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

فهذا الدعاء هذا مقامه، فسوف لا يمسُّك سوء بإذن الله.

وأما دعاء الرسول ﷺ في بدر فدعا دعاءً عظيماً حتى سقطت بردته من فوق كتفيه، فنصره الله نصراً مؤزراً ما سمع التاريخ بمثله، لأنه التجأ إلى الله، حتى يقول علي: نظرت إلى الناس ما منهم إلا نائم إلا الرسول ﷺ فرأيته يدعو عند شجرة حتى الصباح.

حتى يقول أبو بكر: يا رسول الله يكفيك مناجاة ربك.

فألح ﷺ حتى نصره الله.

ومن الدعاء المستجاب ما دعاه ﷺ في دوس لما أتى الطفيل بن عمرو وقال: يا رسول الله إن دوّساً انتشر فيهم الزنا، إنهم عصوني فادع الله عليهم.

فرفع يديه ﷺ، فقال الطفيل: هلكت دوس، فقال ﷺ: «**اللهم اهد دوساً وائت بهم، اللهم اهد دوساً وائت بهم، اللهم اهد دوساً وائت بهم**»(١).

فهداهم الله وأتى بهم مسلمين.

ومن الدعاء المستجاب أن أبا هريرة أتى رسول الله ﷺ وقال: أمي يا رسول الله دعوتها إلى الإسلام فسبتني وأسمعتني سباً فيك، فادع الله لها.

قال: «**اللهم اهد أم أبي هريرة**».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٩٣٧، ٤٣٩٢، ٦٣٩٧)، ومسلم برقم (٢٥٢٤).

قال: فعدت إليها فسمعت خشخشتها وراء الباب، فإذا هي تغتسل، ثم لبست ثيابها وخرجت وقالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[1].

ومن دعائه الذي استجيب له ﷺ أن ابناً لأبي لهب آذى الرسول ﷺ فشتمه، وقيل: بصق في وجهه.

فقال: «**اللهم سلط عليه كلباً من كلابك**»[2].

فخرج في تجارة إلى الشام، فكان كلما أتوا ينامون أخذه أصحابه فنام وسطهم.

فلما أصبح قريباً من الشام نام وسط أصحابه، فلما انتصف الليل جاء أسد وهو يسمى تجاوزاً كلباً من الكلاب، فاخترق النائمين فاستيقظوا، ولكن رأوا الأسد فكان يدنو من الرجل يشمشم وجهه، ثم يتركه يعني ليس على الوصف، فهو مرسل بالوصف إلى رجل محدود، والله أرسله.

قال: فيتركه ويأتي إلى جاره، فيزيل عن وجهه الغطاء ويشمشمه فلا يجد تلك الرائحة، حتى وصل الوسط فأخذ رأس ابن أبي لهب ولقمه لقمة واحدة.

وأتاه رجل فسبه ﷺ فقال: «**اللهم اكفنيه بما شئت**»، أي بأي وسيلة شئت. ومن حقارة هذا الرجل ـ لأنه شتم الرسول ﷺ وسط الناس ـ أنه ذهب يحلب عنزة فبجرت بطنه فمات عند رجلها.

وأتى عامر بن الطفيل وأربد بن قيس يريدان اغتيال الرسول ﷺ، فقال عامر لأربد: سوف أصرف محمداً عنك، فإذا صرفته فاقتله.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٤٩١)، وأحمد برقم (٨٠٦٠).

(٢) أخرجه البيهقي برقم (١٠٠٩٠)، والحاكم برقم (٤٠٣١)، وانظر: جامع الأحاديث والمراسيل برقم (١٨٩٥٣).

فانفردا برسول الله ﷺ، هذا يكلمه وهذا يحاول ضربه بالسيف، لكنه لم يستطع لأنه ﷺ معصوم من الناس.

فعلم ﷺ أنهم أرادوا قتله فقال: «**اللهم اكفنيهم بما شئت**».

أما عامر بن الطفيل فأتت به غدة كغدة البعير حتى سالت على صدره، فأخذ يحكها، فكلما حكها نزلت حتى غطت بطنه، فقال: أموت بغدة في بيت امرأة من بني سلول، أركبوني على الفرس، وأخذ يصيح ويقول: غدة كغدة البعير في بيت امرأة سلولية، فقتله الله.

وأما أربد بن قيس فأخذ جمله وبضاعته وأراد السوق، فلما أصبح بين بيته والسوق أرسل الله عليه صاعقة فأخذت الرجل والجمل والخرج والبضاعة[1].

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

وأما ما استجاب الله للصالحين به فكثير وكثير. ومن أكثرهم سعد بن أبي وقاص الذي يقول: يا رسول الله ادع الله أن أكون مستجاب الدعوة.

قال: «**يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**»[2].

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: «**يا رب يا رب، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأنّى يستجاب له؟**»[3].

من قصص سعد: أن رجلاً افترى عليه وقال: لا يحكم بالسوية، ولا يعدل في الرعية، ولا يسير مع السرية، فدعا عليه إن كان كاذباً أن

---

(١) أخرجه الطبراني، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٠١٢٦، ١١٠١٩).

(٢) أخرجه الطبراني، انظر: مجمع الزوائد برقم (١٨١٠١)، وجامع الأحاديث والمراسيل برقم (٢٩٤١٦).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٠١٥)، وأحمد برقم (٨١٤٨)، والترمذي برقم (٢٩٨٩).

يطيل الله عمره ويعرضه للفتن، فأطال الله عمره وعرضه للفتن حتى سقط حاجبا هذا الشيخ على عينيه، وكان يتعرض للبنات في سكك الكوفة ويقول: شيخ مفتون أصابتني دعوة سعد.

وأتى رجل يسب علياً عند سعد بن أبي وقاص فقال: لا تسب أخي.

قال: اللهم اكفنا إياه بما شئت.

فانطلق جمل من الكوفة وتأخر الناس عنه، فأتى هذا الرجل وضربه بيده ـ والقصة عند الذهبي في السير ـ فقتله.

وأما العلاء الحضرمي فإن الصحابة قحطوا وهو قائد الجيش فقال: يا علي يا عظيم، يا حكيم يا عليم، اسقنا. فأتت سحابة فأمطرت، فدخل في البحر فسأل الله يجمّد لهم البحر، فجمّد لهم البحر فمشوا عليه وما فقدوا إلا مخلاة، فأتى الرجل وإذا هي معلقة في البحر ما أصابها الماء، فأخذها.

ومن كرامة الأولياء واستجابة الله لدعائهم أن أم أيمن رضي الله عنها وأرضاها خرجت مهاجرة إلى الله ورسوله من مكة إلى المدينة، وفي أثناء الطريق عطشت وظمئت فبحثت عن الماء حتى أشرفت على الموت، فدعت الله فنزل لها دلو من السماء فشربت منه ثم عاد الدلو، وما ظمئت في حياتها بعدها، وقد عاشت بعد هذه الحادثة أربعين سنة.

وأما البراء بن مالك فقال عنه ﷺ: «**رب ذي طمرين** (أي ثوبين ممزقين) **لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك**»[1]، فكان إذا أقسم على الله أبرّه.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٨٥٤)، وانظر: المشكاة برقم (٦٢٤٨).

حضر معركة مع المسلمين فقالوا: يا براء نسألك بالله أن تقسم على الله هذا اليوم أن ينصرنا.

قال: انتظروني قليلاً. فذهب واغتسل ولبس أكفانه وأتى بالسيف وقال: اللهم إني أقسم عليك أن تجعلني أول قتيل، وأن تنصر المسلمين هذا اليوم، فكان أول قتيل وانتصر المسلمون بإذن الله.

أما المسألة الثامنة: فطلب الدعاء من الصالحين، فهل لك أن تقول لرجل صالح: لا تنسنا من الدعاء يا أخي؟

نعم ولكن بشرطين: الشرط الأول: أن يكون حياً حاضراً.

والشرط الثاني: أن يكون صالحاً.

فأما الحي فيخرج الميت، فلا يجوز أن تذهب إلى مقبرة ولا إلى ميت وتقول: نتوسل بك إلى الله، لأنك إن فعلت ذلك فإنك إذاً لمن المشركين، وإذا فعلت ذلك فقد خسرت حظك من الدنيا والآخرة، وليس لك عند الله من خلاق يوم القيامة، ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]، فالشرط أن يكون حياً.

والثاني: أن يكون حاضراً، فلا تقول لغائب كأن يكون في الرياض أو جدة: يا رب أسألك بفلان أن تغفر لي، هذا لا يجوز بل لا بد أن يكون حاضراً عندك.

والأمر الثاني: أن يكون الرجل هذا صالحاً، فلا تأتي إلى فاجر ولا إلى خواجة كافر أو إلى شيوعي ملحد فتقول له: لا تنسنا يا أخي من دعائك! وأي دعاء له عند الله؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٤٠].

لا حق له عند الله، ولا دعوة، ولا حظ، ولا قبول، ولا فتح،

ولا رضا، ولا عدل، ولكن غضب ولعنة ومحق وسحق والعياذ بالله.

فلا بأس أن تقول لرجل صالح: لا تنسنا يا أخي من دعائك، فعند الترمذي عن عمر قال: قلت: يا رسول الله أريد عمرة.

قال: «**لا تنسنا يا أخي من دعائك**»[1].

وابن تيمية يقول: وعلى طالب الدعاء الذي يطلب من أخيه أن يريد نفع الداعي كذلك، أي تقول: لا تنسنا من دعائك وأنت تريد أن تنفع أخيك أيضاً، لأن الملك سيقول إذا دعا لك: ولك بمثل. فأنت تطلب النفع له أيضاً.

أما المسألة التاسعة: فالتعدي في الدعاء. كأن يدعو بمستحيل، كأن يأتي ويقول: اللهم اجعلني خاتم الأنبياء! أو خيراً من أبي بكر أو خيراً من عمر، أو خيراً من عثمان وعلي، فهذا لا يجوز وهو يحرم.

والدعاء بما ليس له أيضاً لا يجوز، والتنطع بالدعاء كما فعل ابن لأحد الصحابة قال: إني أسألك القصر الأبيض على يمين الجنة.

قال الصحابي: يا بني، إنني سمعت الرسول ﷺ يقول: «**ليأتين أقوام يعتدون في الدعاء والطهور**»[2]، أو كما قال.

وهكذا من التنطع تكلف السجع في الدعاء.

أما المسألة العاشرة: فهي الملل واستبطاء الإجابة. يقول ﷺ كما صح عنه: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت فلم يستجب لي**»[3].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٩٦)، وأبو داود برقم (١٤٩٨)، والترمذي برقم (٣٥٦٢)، وابن ماجه برقم (٢٨٩٤)، وانظر: المشكاة برقم (٢٢٤٨).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٦٣٥٤، ١٦٣٥٩، ٢٠٠٣١)، وأبو داود برقم (٩٦)، وابن ماجه برقم (٣٨٦٤)، وانظر: المشكاة برقم (٤١٨).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٣٤٠)، ومسلم برقم (٢٧٣٥).

فالله الله في عدم الاستعجال، وليواصل العبد الدعاء ولا يستعجل، فإن كل شيء بأجل مسمى عند الله. والله له سبحانه وتعالى أوقات يجيب فيها بقضاء وقدر، فلا تستعجل فإن إجابة الدعاء قد تكون في الآخرة أصلح لك من الدنيا.

أو يمكن أن يصرف الله عنك من الشر أو من الحرمان أضعاف ما أعطاك أو ما يعطيك في هذا الدعاء.

أو أن الله ادخر لك من المثوبة، أو سوف يلبي لك، لكن بعد عشر سنوات أو عشرين سنة، فلا تستعجل ولكن واصل ولا تيأس فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

المسألة الحادية عشر: فهي الأوقات الفاضلة للاستجابة، فمنها أدبار الصلوات، إذا انتهيت من فريضة فهو وقت الدعاء، فادع الله بما تيسر خاصة آخر التحيات قبل السلام.

أما بعد السلام وأن ترفع يديك مباشرة فلم يأت فيه سنة، ولم يفعله ﷺ ولا أحد من أصحابه.

فبعد الصلاة مباشرة ترفع يديك فهذا لم يرد. لكن ادع قبل السلام.

ومنها بين الأذانين، وبين الأذان والإقامة كما عند النسائي دعوة مستجابة، إذا أذن المؤذن فأكثر من الدعاء، واسأل الله أن يلبي لك ويعطيك ما تمنيت.

ومنها السجود، يقول ﷺ في الصحيح: «**أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء**»[1]، وفي رواية: «**فقمن أن**

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٨٢)، وأحمد برقم (٩١٦٥)، وأبو داود برقم (٨٧٥)، والنسائي برقم (١١٣٧).

يستجاب لكم»[١]، أي حري وقريب أن يستجاب لكم. فالله في كثرة الدعاء إذا سجد العبد بعد أن يقول سبحان ربي الأعلى.

وفي الثلث الأخير من الليل، ففي الصحيح «**أن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل فيقول: هل من سائل فأعطيه، هل من داعٍ فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له**»[٢].

ومنها عصر الجمعة، ففي يوم الجمعة ساعة لا يدعى الله فيها بخير إلا استجاب لصاحب الدعوة من المسلمين، وهي آخر ساعة من يوم الجمعة بعد العصر.

ومنها يوم عرفة يوم يتجلى الله للناس بعرفة.

المسألة الأخيرة: الدعاء والقضاء، يقول العبد: كيف أدعو والله قد كتب عليّ هذا الأمر؟

نقول: الدعاء لا يتعارض مع القضاء، أنت تدعو لأنك قد كتب الله لك أن يصرف عنك هذا الشيء لأنك تدعو.

أو كتب الله عليك هذا الشيء، وكتب أنك تدعو فيزيله الله عنك.

مثل أنه قدر على ابنك الرسوب وقدّر أنك تدعوه فينجحه. فتأتي وتقول: كيف أدعو لابني أن ينجح والله كتب عليه الرسوب فلا ينفع.

نقول: ادع الله، لأن الله قد كتب أن تدعوه فينجحه.

يقول ﷺ: «**إن القضاء والدعاء يعتلجان بين السماء والأرض**»[٣]،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٧٩)، وأحمد برقم (١٩٠٣)، وأبو داود برقم (٨٧٦)، والنسائي برقم (١٠٤٥، ١١٢٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم برقم (٧٥٨).

(٣) أخرجه الحاكم برقم (١٨٤٩)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١٧١٩٢).

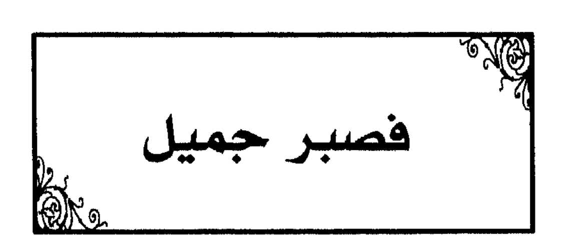
فالدعاء يريد صرف القضاء، والقضاء يريد النزول على الدعاء. فيمضي الله عز وجل الدعاء على ما كتب سبحانه وتعالى.

فعليك بالدعاء، وعليك دائماً بعدم اليأس من روح الله، وأكثر من الدعاء فإنه لا يعارض القضاء، بل يصرفه بقضاء آخر وقدر من الله، أو يلطفه ويخففه، أو يكون أجراً ومثوبة، لأنك لن تدعو إلا بخير.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠١].

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.





الحمد لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً، وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً.

وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكوراً. وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً. الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً.

اللهم لك الحمد خيراً مما نقول، وفوق ما نقول، ومثل ما نقول، لك الحمد بالإيمان، ولك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بمحمدٍ رسول الله ﷺ. عز جاهك، وجل ثناؤك، وتقدست أسماؤك، ولا إله إلا أنت، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

اللهم صلِّ على نبي الرحمة المهداة والنعمة المسداة، لسان الصدق الذي بلغ الوحي بأحسن عبارة، وأذن الخير الذي تلقى الوحي فصاغه بألطف إشارة، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

موضوعنا في هذا المبحث: هو «**الصبر عند أولياء الله**»، وهذا

الموضوع توحيد للعبد، وإحياء للفطرة، يوم أن فطر الله سبحانه وتعالى العباد على الصبر وعلى الجزع وعلى الشكر وعلى الكفران، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ١، ٢].

والصبر من مقامات العبودية عند أهل السنة والجماعة، بل هو من أعظم المقامات. ذكره الله في القرآن أكثر من تسعين موضعاً: مدح مرة الصبر، ومدح مرة الصابرين، وذم الذي لا يصبر، وبيَّن أجور الصابرين عنده سبحانه وتعالى، وما أعدَّ لهم من درجات.

والصبر في الإسلام على ثلاث مراتب:

أولها: صبر على الطاعات.

ثانيها: صبر عن المعاصي.

وثالثها: صبر على الأقدار والمصائب.

وأعظمها الصبر على الطاعات؛ لأنه الصبر العظيم المطلوب، يوم تؤدي الطاعة فتصبر عليها وتصابر نفسك لتؤديها على أكمل وجه بخشوعها وخضوعها.

والصبر عن المعاصي يوم تدعوك نفسك الجماحة الأمارة بالسوء فتصبر وتحتسب.

وصبر على أقدار الله يوم يكتب الله عليك سبحانه وتعالى من أقداره ما يريد أن يخفف به من ذنوبك أو يرفع به من درجاتك.

إذا علم هذا، فإن أولياء الله الصالحين كان مما يتميزون به الصبر مع اليقين.

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية فقيل له: بم تنال الإمامة في الدين؟ قال: بالصبر واليقين، أما سمعت الله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السَّجدَة: ٢٤].

وعباد الله الصالحين ابتلوا في حياتهم بمصائب. منهم من ابتلي بالمال ففقد ماله، ومنهم من أصيب في عقله بمصيبة فذهبت بعقله فبقي أبله مصروعاً مبهوتاً.

ومنهم من أصيب في جسمه فعطّلت بعض حواسه وأعضائه، ومنهم من أصيب بابنه، إما ضل وإما مات وإما ذهب عنه ولم يعد كما سوف يأتي، ومنهم من أصيب في عرضه فاتهم بتهمةٍ وهو منها براء وهي لا تليق به ولا يليق بها فصبر واحتسب.

إذا علم ذلك، فإن الله قص قصص الصابرين ومدحهم سبحانه وتعالى، فقال جل ذكره في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٣].

ثم قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٤].

ثم قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٥-١٥٧].

واختلف أهل أرباب المعاملة أو السلوك أو التربية في تعريف الصبر. فقال أحدهم: هو أن يقطع جسمك وأنت تبتسم تلذذاً بقضاء الله وقدره، وقال الآخر: هو أن ترضى بما رضي الله لك به فأحبه إلى الله أحبه إليك.

إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وقال الثالث: هو أن تحتسب الأجر أعظم مما فاتك من العافية.

إذا علم هذا، فإن الله عز وجل يقول في محكم كتابه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠]، والله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠].

والابتلاء سنة من سنن الله عز وجل يبتلي العبد لأربعة أمور:

الأمر الأول:

الرفعة في الدنيا والآخرة، فإن المبتلين أعظم الناس رفعة حيث يكونون مبتلين في أول الطريق، فإذا صبروا واحتسبوا رفع الله ذكرهم أبد الدهر.

والأمر الثاني:

التربية، فإن الله يربي القلوب بالابتلاء سبحانه وتعالى حتى تخلص وتصدق له عز وجل.

والأمر الثالث:

تحقيق العبودية، فإن الله يريد أن يعرف أن هذا العبد عبد له، ولا يمكن أن يكون عبداً بالادعاء ولا بالحجج التي لا يقوم عليها دليل حتى يعلن العبودية. وكثير من الناس يعلن أنه عبد ولكن إذا ابتلي نكص على عقبيه خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

فمن أعظم فوائد الابتلاء: أنه يحقق لك مقام العبودية إن كنت عبداً، فهذا هو الابتلاء فاصبر له، فالذي كتب عليك الابتلاء هو الذي كتب عليك النعم.

والأمر الرابع:

الأجر والمثوبة عند الله سبحانه وتعالى، وهو لا تضيع عنده الودائع إذا ضاعت عند الناس، وهو لا يخسر من يعامله سبحانه وتعالى بل يستفيد، وهو لا يهزم من يتولاه بل ينتصر.

فالزم يديك بحبل الله معتصماً   فإنه الركن إن خانتك أركان

إذا علم هذا، فإن ممّا يخفف الابتلاء عند كثير من أهل العلم عدّة أمور، ذكر ذلك ابن القيم في كتابه زاد المعاد، منها:

أولاً: أن تؤمن بالقضاء والقدر، ففي صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر وهذا أول حديث في الصحيح، قال ابن عمر لما حدث أن قوماً في العراق لا يؤمنون بالقضاء والقدر: «والذي يحلف به ابن عمر لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما تقبل منه حتى يؤمن بالقضاء والقدر»[(١)].

وفي حديث صحيح عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه لما حضرته الوفاة: «يا بني، عليك بالإيمان بالقضاء والقدر، فوالذي نفسي بيده إن لم تؤمن بالقضاء والقدر لا ينفعك عملك أبداً»[(٢)].

وفي سنن الترمذي بسندٍ حسن عن ابن عباس من حديثه الطويل قال: كنت درف رسول الله ﷺ فقال لي: «**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»، ثم قال: «**واعلم أن النصر مع الصبر**».

قبلها يقول ﷺ: «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»[(٣)].

فأول ما يخفف الابتلاء والمصائب قضية الإيمان بالقضاء والقدر.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨)، وأحمد برقم (٣٧٦)، والترمذي برقم (٢٦١٠).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٢١٩٧، ٢٢١٩٩)، وأبو داود برقم (٤٧٠٠)، والترمذي برقم (٢١٥٥)، وانظر: المشكاة برقم (٩٤).

(٣) الرواية بطولها أخرجها الحاكم برقم (٦٣٥٥)، وأخرج بعض ألفاظها أحمد برقم (٢٦٦٤، ٢٧٥٨، ٢٨٠٠)، والترمذي برقم (١٥١٦)، وانظر: المشكاة برقم (٥٣٠٢).

فمن لم يؤمن بالقضاء والقدر فلا قبل الله له صرفاً ولا عدلاً ولا كلمة ولا زكاة وله عذاب أليم.

ثانياً: أن تعرف أن ما أصابك قليل بالنسبة لما أعطاك الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، فما أصاب الله العبد بمرضٍ أو هم أو غم أو حزنٍ إلا كفر الله به من سيئاته، فاعلم أنها تكفير عنده سبحانه وتعالى لا يضيع.

ثالثاً: أن تتسلى بالمصابين أو المبتلين من الناس، وأن تعلم أن كل دارٍ فيها مصيبة، وأنه ما ملئت دار حبرة إلا ملئت حسرة، وفي كل وادٍ بنو سعد ولذلك قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

فالتسلي بمصائب الناس وتذكر مصائبهم من أعظم ما يدفع الكرب عن النفوس أو يخفف المصيبة.

ذكر ذلك ابن القيم وقال: واعلم أنه في كل وادٍ بنو سعد.

رابعاً: إذا علم هذا، فإن الذي يخففها أيضاً أن تعلم أنها أقل مما كانت، فإن الله عز وجل يخفف بعض المصائب عن بعض.

وأعظم مصيبة تصيب العبد مصيبته في الدين فهي التي لا جابر لها، ولا مسلي لها، ولا معزي لها، ومن كل شيء العوض إلا من الله فإذا فاتك فاتك كل شيء.

فاحمد الله عز وجل أن أصبت بمصيبة في جسمك أو في ولدك أو في مالك أو في عرضك، ولم تصب بمصيبة في دينك، فإنها من أعظم المصائب بل هي أم المصائب، ولا جابر لها إلا التوبة والعودة إلى الله عز وجل.

واسمعوا الآن إلى الصالحين في قصص عجيب، وفي إيراد رحب

واسع عذبٍ، أورده الله سبحانه وتعالى في القرآن، وأورده رسول الهدى ﷺ في السنة، وإلى أهل السير من أرباب الحديث ومن حفظة السنة.

١ - يقول سبحانه وتعالى عن أيوب لما مسه الضر: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٨٣]، فقد أصيب بمرض في جسده مكث ثمانية عشر عاماً لا يهدأ، لا يذوق طعاماً ولا يتلذذ بشراب، ولا يكتحل بمنام. فلما مضى عليه ثمانية عشر عام من المرض - كما قال أهل التفسير - عادت وقالت له زوجته: لم لا تشتكي إلى الله عز وجل؟ لم لا تعرض نجواك وشكواك على الواحد الأحد؟ فإنه يكشف الضر، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النَّمل: ٦٢].

فأبى أيوب عليه السلام أن يدعو الله بل دعا ولكنه لم يصرح، وانظر إلى حسن الأدب في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٨٣].

أنا المريض وبيدك الشفاء، فإن كنت ترى أني قد أصبحت في حالٍ ترضى لي العافية فعافني يا رب، فأحب الداء إلي ما أحببته أنت، أو الأمر ما أحببته أنت. ولذلك ذكروا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه؛ أنهم دخلوا عليه وهو مريض فقالوا: ماذا أصابك؟ قال: الله أعلم ماذا أصابني، قالوا: ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب قد رآني، قالوا: ماذا قال لك الطبيب؟ قال يقول: إني فعال لما أريد.

وأخذها بعض الناظمين:

كيف أشكو إلى طبيبٍ ما بي   والذي قد أصابني من طبيبي

وذكر بعض الكتبة في ترجمة ابن تيمية أنهم دخلوا عليه وهو

مريض، قالوا: يا أبا العباس ماذا أصابك؟ فسكت ثم رفع رأسه وقال:

تموت النفوس بأوصابها ولم يدر عوادها ما بها
وما أنصفت مهجة تشتكي أذاها إلى غير أحبابها

ولذلك انظر إلى يعقوب ما أحسن عبارته يوم قال:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: ١٨].

ثم يقول: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦].

فالبث والحزن يشكى إليه سبحانه وتعالى، فهو من باب رفع الشكوى إليه سبحانه وتعالى.

إذاً الابتلاء بالأمراض والمصائب والزلازل والمحن من الأقدار التي يقدرها الله على الناس، والله عز وجل أعلم بالأجسام التي تتحمل المرض من غيرها.

روى الطبراني بسندٍ فيه نظر أن الرسول ﷺ قال: «**يقول الله تبارك وتعالى: إني أعلم بعبادي من عبادي، منهم من لو ابتليته لما استطاع ولما صبر، ومنهم من لو عافيته لما شكر، فأنا أصرّف عبادي كيف أشاء**»[1]، فله سبحانه وتعالى الحكمة البالغة، فالمرض من الابتلاءات العظيمة التي مرت في تاريخ هذه الدنيا منذ أن خلقها الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٢ ـ ذكر ابن حجر في الإصابة أن الله سبحانه وتعالى ابتلى عمران بن حصين أحد الصحابة الأخيار بن عبيد الخزاعي المجاهد الشهيز الصحابي النحرير، ابتلاه الله بمرض مكث ثلاثين سنة مريضاً لا يقوم من على فراشه، فقال له بعض الصالحين: لو شكوت أو رفعت ضرّك إلى الله، قال: أحبه إلى الله أحبه إلي، ما دام الله

(١) لم أجده.

يرضى هذا لي فأنا أرضاه لنفسي. فكانت الملائكة كما قال الحافظ[1] تصافحه بأيمانها مع كل فجر. وهذه من كرامات الأولياء التي أقرها أهل السنة والجماعة.

فنحن نقول بها ولا نستبعد أنها تصافحه لأنه صبر واحتسب ثلاثين سنة، فشكر الله له سعيه وجزاه في الدنيا بمصافحة الملائكة، والخير العميم والأجر والثواب عند الله تبارك وتعالى.

٣ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يا عطاء ألا أريك امرأة من أهل الجنة بأبي أنت وأمي؟ قال: نعم، قال: هذه المرأة السوداء أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله أني أضرع [يعني يصيبها مس من الجان] فادع الله لي، قال: «**إن شئت دعوت الله لك، وإن شئت صبرت ولك الجنة**»[2].

ما أحسن الخيارين، وما أحسن الخيار الثاني. عرض عليها خطتين وخيرها بين طريقين وأنزلها منزلتين. فقالت: أصبر وأحتسب. وهذا من التوفيق، ثم قالت: فإني أتكشف، فادع الله لي يا رسول الله. فدعا لها ألا تتكشف.

فهي من أهل الجنة تمشي على الأرض لأنها احتسبت عقلها وهو أعظم نعمة بل من أعظم النعم، فلما فوضت الأمر إلى الحي القيوم جزاها الله بجنة عرضها السموات والأرض.

٤ - والله عز وجل قد يبتلي عبده بالبصر، والبصر نعمة من نعمه الجليلة، يوم ترى الحياة، يوم تذوق الجمال، يوم تتعرف على الأحياء وعلى الأشياء وعلى الذوات وعلى الأشخاص بالعينين الجميلتين.

---

(١) انظر: أسد الغابة (ترجمة عمران برقم ٤٠٣٤)، وسير أعلام النبلاء (ترجمة عمران برقم ٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٦٥٢)، ومسلم برقم (٢٥٧٦).

لكن إذا حكم الله بطمس نورهما ما لك من حيلة إلا الصبر والتسليم.

في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ابتليته بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة**»(١)، ما أحسن هذا الكلام وما أحسن إيراد الحديث. لم يقل عينيه وإنما قال حبيبتيه، لأنه يحبب العينين إلى صاحبهما، فكأنهما أحب إليه من كل شيء. ويقول: من ابتليته، ولم يقل: من أخذت عينيه، ليبين أن هناك أجراً ومثوبةً، أن هناك كنزاً ومدّخراً، وأن هناك جنة ومآلاً.

قالوا ليزيد بن هارون الواسطي كما في سير أعلام النبلاء والتذكرة: يا أبا خالد أين ذهبت العينان الجميلتان؟ قال: أذهبهما والله بكاء الأسحار. ابتلاه الله بسلب العينين لكن عوضتهما الجنة.

وابن عباس حبر الأمة عمي في آخر حياته، فأتاه بعض الشامتين يعزيه واستهزأ بعينيه، فعلم ابن عباس ذلك فقال:

إن يأخذ الله من عينيَّ نورهما ... ففي فؤادي وقلبي منهما نور
عقلي زكي وقلبي غير ذي عوجٍ ... وفي فمي صارم كالسيف مشهور

صدق رضي الله عنه. إن يأخذ الله نور العينين ففي القلب نور وبصيرة، وإن يأخذ الله ضياء هاتين العينين الجميلتين ففي الروح ضياء مشع يبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما حيلة الإنسان إلا أن يصبر.

ذكروا عن ابن هبيرة صاحب الإفصاح، الحنبلي الوزير الشهير الكبير التقي الذي دعا الله في أيام منى بالغيث فسقوا الغيث وهم في

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٥٣)، وأحمد برقم (١٢٠٥٩).

يوم منى فقال وهو يبكي: يا ليتني دعوت الله بالمغفرة.

دخل عليه أحد الناس وهو جالس في الوزارة وكان وزيراً للمستنجد العباسي، وقد أدركه ابن الجوزي بل ابن الجوزي من أصحابه. فدخل عليه أحد الناس فقدّم له ابن هبيرة جائزة ومسح على رأس هذا الشخص، فقال الناس لابن هبيرة: ما لك أعطيته ومسحت على رأسه؟ قال: هذا وأنا ونحن شباب عرفته ولم يعرفني ضربني مرة على رأسي فذهبت عيني منذ ثلاثين سنة ما أخبرت أحداً بها!

ما أخبر أحداً لأن الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى.

٥ ـ والابن نعمة من النعم الجليلة، والله عز وجل ذكر الصالحين فقال عنهم أنهم كانوا يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

ومن أحسن ما يجمل الحياة المال والبنون، فهما زينة الحياة الدنيا، وما أحسن أن ترى أطفالك يترعرعون أمامك ويهشون ويبشون بنور الإسلام، ويسجدون للواحد القيوم، ويرددون عليك آيات القرآن. ولكنْ إذا حكم الله سبحانه وتعالى بأخذهم فما لك من حيلة.

جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول سبحانه وتعالى: ليس لعبدي المؤمن إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة**»[١]، ولم يقل الولد ليخرج الأخ، ولم يقل الأخ ليخرج الأب، ولم يقل الأب ليخرج الصديق والصاحب، وإنما قال الصفي. وما أحسن هذا الكلام، فالصفي كلما أصابتك لوعة من فراقه أو حرقة أو حزن عوضك الله إذا صبرت واحتسبت الجنة.

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه قال:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٢٤)، وأحمد برقم (٩١٢٧).

قال رسول الله ﷺ: **«إذا مات ابن العبد المؤمن قال الله سبحانه وتعالى لملائكته الذين قبضوا نفسه (وهو أدرى): قبضتم ابن عبدي المؤمن؟ قالوا: نعم يا رب، وهو أعلم، قال: قبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا: نعم يا رب، قال: فماذا قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع - أي قال: الحمد لله إنّا لله وإنا إليه راجعون - قال الله: ابنوا لعبدي قصراً في الجنة وسمّوه بيت الحمد»**[(١)]، هذا الحديث حسن.

والقصر هنا كالربابة البيضاء أو كالكوكب الدري، مكتوب عليه قصر الحمد. يدخله الرجل الصالح يوم يحتسب مصيبته في ولده على الله سبحانه وتعالى.

والمرأة المسلمة تشارك الرجل في هذه المصائب، بل ذكر ﷺ للنساء في موت الأطفال ما لم يذكره للرجال، فإنه قال لما زارهن: **«ما منكن امرأة تقدم ثلاثة إلا كانوا لها حجاباً من النار»**، قالت امرأة: واثنين يا رسول الله؟ قال: **«واثنين»** (على المفعولية)، قالت: وواحداً؟ - في بعض الروايات - قال: **«وواحداً»**[(٢)]. فالحمد لله أن جعل لفضل موت ابن واحدٍ صالح تحتسبه عند الله دخول الجنة التي عرضها السموات والأرض بإذن الله.

٦ - وأصيب كثير من الصالحين كذلك في أجسامهم، الله يرزقك أعضاءك تتمتع بها، ويرزقك سبحانه وتعالى قوة وحيوية وطاقة، ونشاطاً، ولكن له الحكمة أن يسلب عنك القوة.

ذكر أهل العلم وأهل السير وأهل التراجم في سيرة عروة بن الزبير ابن حواري الرسول ﷺ. الذي هو أكبر راوٍ في كتب الحديث

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٩٢٢٦)، والترمذي برقم (١٠٢١)، وانظر: المشكاة برقم (١٧٣٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٠٢، ١٢٥٠، ٧٣١٠)، ومسلم برقم (٢٦٣٤).

عن عائشة رضي الله عنها وأرضاها، والذي ذكروا عنه أنه كان يختم القرآن في أربعة أيام. فأراد الله عز وجل أن يرفع درجته عنده فكتب عليه ابتلاء. حيث سافر عروة بن الزبير إلى الشام، وفي الطريق أصابته آكلة في رجله فاجتمع عليه الأطباء فقالوا: نقطع رجلك من القدم. فقال: أصبر وأستغني. فدخل المرض إلى ساقه فقالوا: نقطعها من الساق قال: أصبر وأستغني، فدخل المرض إلى الفخذ فقالوا: ما لك من حل إلا قطعها وإلا مت، فقال: الله المستعان إنا لله وإنا إليه راجعون.

فقالوا: لا نقطعها حتى نسقيك كأساً من الخمر، قال: يا سبحان الله! عقل منحنيه ربي أذهبه بكأس من الخمر! لا والله. ولكن إذا توضأت ودخلت في الصلاة فاقطعوها.

فتوضأ واستقبل القبلة وبدأ في صلاته يناجي رب العزة سبحانه وتعالى، وهو في الآيات يحلق بروحه مع تلك الآيات البينات، فتقدم إليه الأطباء بالمناشير فقطعوا رجله. فلما غلبه الدم سقط مغشياً عليه على وجهه، وبعد ساعات استفاق. فقالوا: أحسن الله عزاءك في ابنك رفسته دابة الخليفة فمات.

يا سبحان الله! في هذه الفترة فترة الإغماء رفست ابنه دابة الخليفة فمات. انظر إلى المصائب كيف تحدث، وانظر إلى ألطاف الله وحكمه سبحانه وتعالى في القضاء والقدر.

فقال: الحمد لله، إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم لك الحمد إن كنت أخذت فقد أعطيت، وإن كنت ابتليت فقد عافيت، أعطيتني أربعة أعضاء وأخذت عضواً واحداً، فلك الحمد ولك الشكر ثم قال:

لعمرك ما مدّيت كفي لريبة   وما حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا دلني فكري ولا نظري لها   ولا قادني فكري عليها ولا عقلي

وأعلم أني لم تصبني مصيبة   من الله إلا قد أصابت فتى قبلي

فرجع محتسباً إلى الله سبحانه وتعالى لأنه الذي قدر وابتلى تبارك وتعالى.

والابتلاء قد يكون صعباً على النفوس، ولكن يرفع الله سبحانه وتعالى به درجة الأنبياء، ويمحو الله به خطايا الصالحين.

وإبراهيم عليه السلام أستاذ التوحيد ومعلم العقيدة الذي بث مذهب التوحيد في الدنيا وأسسه، فكان رسول الله أشبه الناس به.

ابتلاه الله بمصائب منها: أنه ألقي في النار حيث جمع له حطب ثم وضع في مكان ودفع ليقع في النار، فتقطعت به الحبال إلا حبل الله، وأوصدت أمامه الأبواب إلا باب الله. لكن انظر إلى التوكل على الله سبحانه وتعالى، أتاه جبريل فقال: ألك إلي حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فنعم[1].

فلما ألقي في النار ماذا قال؟ قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**».

ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم لما ألقي في النار، وقالها رسولنا ﷺ لما قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤][2].

---

(١) في البزار وأبي يعلى: (لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك). قال الهيثمي: فيه عاصم بن عمر بن حفص. وثقه ابن حبان وقال: يخطىء ويخالف. وضعفه الجمهور. وقال ابن كثير: (وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا).
راجع (المجمع ٨/٢٠٤، برقم ١٣٧٦٦)، والبداية والنهاية (١/١٣٨)، وتفسير الآية.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٥٦٣).

فلما ألقي في النار تذكر عظمة الله، وأن لا كافي إلا الله، وأن لا حافظ إلا الله.

يا واهب الآمال أنت منعتني ونصرتني
وعدا الظلوم علي كي يجتاحني فحميتني

فالمانع هو الله سبحانه وتعالى.

فلما وقع في النار أتت عناية الله عز وجل، فقال الله عز وجل: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، ولو قال برداً وسكت لأصبحت زمهريراً يقطعه، ولكن قال: وسلاماً، أي هدوءاً وراحة وعافية وصحة.

وابتلاه الله بابنه الشاب إسماعيل على الراجح من أقوال أهل العلم لمّا بلغ معه السعي ودرج وسار وأتى، فلما بلغ معه السعي - والابن إذا أصبح في هذه السن أصبح يشاغف القلب لأنه إذا كبر قليلاً نقص حبه - أراد الله أن يخْلي قلب إبراهيم لحبه سبحانه وتعالى لأنه الخليل كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليلا

فكان من مقامات الخليل أن يكون أحب شيء إليه هو الله عز وجل. فلما بلغ السعي هذا الابن الصالح ابتلاه الله أو ابتلى الله أباه ورأى في المنام - ورؤيا الأنبياء حق - أنه يذبح ابنه، فقام في الصباح بعد أن تأكد من الرؤيا وعرض الرؤيا على ابنه، فكان رده رد المؤمن الموحد ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ٣٤].

وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوّده أبوه

قال: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافات:

١٠٢]، ما أحسن التواضع! ما قال: افعل ما تؤمر ستجدني من الصابرين، وإنما قال: إن شاء الله. فالصبر يؤتيه الله عز وجل من يشاء. والتثبيت منه تبارك وتعالى، فتقدم إليه، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصَّافات: ١٠٧].

فنجح في الاختبار وثبت أنه صادق وأنه من المحسنين، وترك له لسان صدق في الآخرين. فالألسنة تثني عليه وتمدحه أبد الدهر، فعليه السلام أولاً وآخراً، وجزاه الله خيراً في مواقف الصدق خيراً وأجراً ومثوبة.

٧ ـ والله عز وجل ذكر المبتلين كذلك في الأزمان وفي الكرب. فيونس بن متى عليه السلام خرج مغاضباً قومه ولكن لم يستأذن ربه. فذهب في السفينة، فلما ألقي من السفينة دخل في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت، فانقطعت به الحبال إلا حبل الله ونسي كل أحد إلا الله. فما تذكر زوجةً ولا ولداً ولا صاحباً. فقال في الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «**لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، دعوة أخي يونس ما قالها مكروب إلا كشف الله كربه**»[(١)].

وأكثر ذكره في الأرض دأباً ... لتذكر في السماء إذا ذكرتا
وناد إذا سجدت له اعترافاً ... بما ناداه ذو النون بن متى

إذا ناديت واعترفت: بلا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، كشف الله كربك وغمك وحزنك، ورزقك من حيث لا

(١) أخرجه أحمد برقم (١٤٦٥)، والترمذي برقم (٣٥٠٥)، والنسائي في الكبرى برقم (١٠٣٩١)، والحاكم برقم (٤١٧١)، والمشكاة برقم (٢٢٩٢).

تحتسب، فكان جزاء الصابرين عند الله أجراً ومثوبةً.

فانظر كيف أخرجه الله ونجّاه وقال: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصَّافات: ١٤٣، ١٤٤].

٨ - ويعقوب عليه السلام يصاب بمصيبة. والعجيب أن المصائب التي عرضت في القرآن على أنواع، ولم تكن على وتيرة واحدة، فقد نوّع الله المصائب والنعم على الناس لأن له الحكم البالغة.

فيعقوب ضل منه ابنه يوسف عليه السلام وأصبح في مكان لا يدري أين هو، فأخذ يردد دائماً: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: ١٨].

وقد بلغ يوسف في قلبه الشغاف من الحب، فلما ابتعد عنه كان مقدار هذا الابتعاد أربعين سنة:

بنْتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم وما جفت مآقينا
نكاد حين تناديكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

أخذ يبكي ويكظم أنفاسه حتى ابيضت عيناه من الحزن، فهو كظيم. وأخذ يقول: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦]. فلما علم الله تفويضه رفعه بالابتلاء لما صبر وشكر. وهذه ميزة العبد يوم أن يفقد شيئاً غالياً أو نفيساً عليه فيحتسب ذلك عند الله عز وجل.

٩ - ويوسف عليه السلام ابتلي في عرضه. اتهم فصبر واحتسب وفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى، فرفعه الله رفعةً وأثنى عليه سبحانه وتعالى وقال: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: ٢٤]، لأنه صبر على هذه البلوى التي هي عظيمة. ولذلك يذكر ابن القيم في مدارج السالكين نقلاً عن ابن تيمية قوله: إنما عظمت مصيبة يوسف عليه السلام بأمور:

- أنه شاب وهو أقدر على الفاحشة.

- أنه غريب، والغريب لا يجد ملازماً ولا عتاباً من الناس.

- أنه في بيت امرأة عندها سلطان لا تخاف على نفسها من السلطان، ولا من تطبيق الحدود.

- أن المرأة جميلة وقد لبست حليها وذهبها وزينتها.

- أنها خلت به وغلّقت الأبواب وهددته، ومع ذلك صبر.

قال: معاذ الله!

فنحن نقرأ قصته دائماً في القرآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

١٠ - ومن الابتلاء في العرض في تاريخ الإسلام: قصة الإفك في حديث عائشة رضي الله عنها وأرضاها، الذي رواه البخاري في غزوة المريسيع وفي كتاب المنافقين.

كان ﷺ إذا أراد أن يخرج لغزاة - أي لغزوة - أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج نصيبها أو سهمها خرج بها رسول الله ﷺ، قالت عائشة: فخرجت معه ذات غزوة، فلما قفلنا[١] من الغزوة راجعين نزلت في منزلٍ ألتمس عقداً لي فاتني، فارتحل المركب وما شعروا بي، فظنوا أني في الهودج [وهو البيت الصغير الذي توضع به المرأة]، فحملوا الهودج على الجمل وذهبوا وارتحلوا من المنزل. وظنوا أن أم المؤمنين الطاهرة بنت الطاهر الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سموات أنها في الهودج، فذهبوا وأتت في وقت الظهيرة فلم تجد أحداً في المنزل فماذا فعلت؟ تغطّت وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البَقَرَة: ١٥٦].

(١) الكلام لعائشة رضي الله عنها.

فجاء رجل من الصالحين المجاهدين الزاهدين الأخيار اسمه صفوان بن معطل فوجدها متغطية، فقال: الله المستعان عائشة زوجة رسول الله ﷺ.

قالت عائشة: والله ما كلمني ولو بكلمة. ثم أناخ بعيره فأركبها على البعير فركبت وذهب يقود بزمام البعير. وعائشة على البعير. والرسول ﷺ قد نزل هو والصحابة في الطريق، فأتى بالجمل وعليه عائشة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

علموا أنها طاهرة وأنها بريئة وأنها شريفة وأنها صديقة، وأما الذين في قلوبهم مرض فقد تعرك النفاق في قلوبهم وعشعش الشك في نفوسهم، نعوذ بالله من ذلك، فقاموا يوشوشون بالأخبار. لماذا تأخرت؟ ولماذا أتى بها هذا الرجل؟ وما هو السبب؟ نفاق وكبر وعتو وإعراض عن الله وعن شرعه.

أمّا ﷺ فلم يدر حتى وصل المدينة. قالت عائشة: فأتاني مرض فأنكرت منه ﷺ ذاك اللطف الذي كنت أجده قبل ذلك يوم أمرض. لأنه وصله الخبر ﷺ ومرضت هي في بيته. فكان يمر عليها ويقول وهي مريضة: كيف حالها؟ ما يزيد عن هذه الكلمة.

قالت: فكان هذا يريبني، أي أشك فيه، لماذا لا أجد تلك الحفاوة وذاك الحنان وتلك الشفقة التي كنت أجدها قبل ذلك؟

فاستأذنته ﷺ أن أمرض في بيت أبوي فأذن لي. فارتحلتْ رضي الله عنها وأرضاها وهي مصابة بمرض. ولكنها لا تدري أنها أصيبت في عرضها وهو أشرف ما يملكه الإنسان. يقول سيد قطب رحمه الله: إن هذه الأيام أوقفت الرسول ﷺ والصحابة على أعصابهم شهراً كاملاً. أصيب ﷺ في عرضه وأصيب في رسالته، ويشكّك في

مبادئه، فلم يصبح عند المنافقين إلا في مقام التهمة.

إنسان مصلح يريد تجديد دم البشرية والخروج بها من الظلام يصاب في عرضه، في زوجته. كيف يثبت في الساحة؟ ويؤدي الرسالة؟ ويعلم الناس؟ ويجاهد؟ ويفتي؟ وهو متهم في عرضه ﷺ.

إنها مصيبة عظيمة. والعجيب أن من أقدار الله أن الوحي لم ينزل في هذه الفترة حتى يربي هذه الأمة ويرى المؤمن من المنافق ويرى الصادق من الكاذب.

عاد ﷺ إلى قريبه وابن عمه أبي الحسن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه وأرضاه، والذي هو بمنزلة هارون من موسى منه ﷺ، فقال: «**يا علي ماذا ترى في أهلي؟**» قال: النساء غيرها يا رسول الله كثير. كأنه يقول تزوّج.

فذهب إلى أسامة فشاوره، فقال أسامة رضي الله عنه وأرضاه: يا رسول الله! زوجك ما علمنا فيها إلا خيراً. فذهب ﷺ إلى الجارية التي كانت تخدم عائشة، وشاورها ماذا ترين؟ فقالت: ما رأيت إلا خيراً صائمة قائمة عابدة، والله لقد كانت تنام فتأكل الداجن عجينها، يعني من غفلتها وبراءتها ولطفها. تأتي الشاة من طرف البيت فتأكل العجين الذي هو في الصحفة.

وتأتي عائشة فتخرج مع نساء فتخبرها امرأة أنها اتهمت. قالت: فسقطت على وجهي وزاد مرضي مرضاً، وهمّي هماً، والله ما اكتحلت بنوم، لقد بكيت حتى ظننت أن البكاء يخرق كبدي.

فدخل عليها ﷺ وقال: «**يا عائشة إن كنت ألممت بذنب فتوبي إلى الله واستغفريه، وإن كنت بريئة فسيبرئك الله عز وجل**». فقالت عائشة لأبيها: ردّ عني، فقال: والله ما أعلم ماذا أقول. فقالت لأمها: كلمي رسول الله ﷺ.

قالت: والله ما أدري ماذا أقول.

فجلست عائشة وقالت: والله إنّ مثلي ومثلكم كما قال أبو يوسف ـ ونسيتُ اسمه من الغضب ومن الهم والحزن ـ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وما برح ﷺ من مكانه حتى أتاه الوحي، فنام واستيقظ فإذا هو يتلو تلك الآيات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النّور: ١١].

فبرأها الله من فوق سبع سموات ورفع لها عظيم الدرجات، ومحا عنها كثيراً من السيئات لأنها صبرت في عرضها واحتسبت عند الله[١].

وجلد ﷺ الذي ذهبوا بهذه الشائعة شائعة القذف، نسأل الله العافية والسلامة.

ومحمد رسولنا ﷺ ابتلي على كافة الأصعدة. في صعيد المعركة ابتلي بالقتال فصبر واحتسب. مات ابنه ﷺ فلذة كبده وشجى روحه وهو في العامين من عمره. يقول أنس: ذهبت مع رسول الله ﷺ فقدّم له ابنه إبراهيم ونفسه تقعقع، فأخذه ﷺ واحتضنه وهو في سكرات الموت، والرسول ﷺ يبكي وهو يقول:

«**إنا لله وإنا إليه راجعون. تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[٢]، ما أحسن هذه الكلمات!

وابتلي ﷺ بفقد بناته، فصبر واحتسب. وجلس عند قبر زينب

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠)، ومسلم برقم (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٠٣)، ومسلم برقم (٢٣١٥).

كما في الصحيح وأخذ ينكت الأرض ويبكي وهو يقول: «**والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»[(١)].

وابتلي ﷺ في دعوته بالشائعات. قالوا ساحر، قالوا شاعر، قالوا كاهن، فاحتسب ذلك عند الله عز وجل.

فمن هذا نأخذ أن الابتلاء سنة وأنه أنواع، وأنه يمر بالمؤمن من حيث لا يشعر ومن حيث لا يحتسب، فما عليه إلا الصبر.

وابتلي الصالحون سلفاً وخلفاً يقول ابن القيم: يا هزيل العزم ـ أو كلمة تشبهها ـ ناح في الطريق نوح، وذبح فيه يحيى، وقتل زكريا، وسجن الأئمة، وجلدت ظهور العلماء.

هذه طريق الابتلاء، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبيَاء: ٧٣].

أدخل الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ إمام أهل السنة والجماعة السجن وجلد بالأسواط. على ماذا؟ على زهده وعبادته يجلد؟ على علمه في الحديث يوم حفظ ألف أثر بين مروي مرفوع وموقوف ومسند ومقطوع وأثر وكلام تابعي.

على صيامه في النهار يجلد؟

على إعراضه عن زهرة الحياة الدنيا، على أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، على دعوته المشعة الفياضة، على استقامته في ذات الله.

على تربيته لأجيال الأمة وتعليمه للعلم.. لا؟ إنه ابتلاء يرفع الله به منزلته.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٦٢١، ٦٤٨٦)، ومسلم برقم (٢٣٥٩) بدون ذكر جلوسه عند قبر زينب.

جلد ووضع في السجن وأخرج، فكان كالذهب الأحمر أدخلته النار فعاد ذهباً خالصاً أحمر.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكبوت: ٢، ٣].

فالدين ليس دعاوي:

والدعاوي ما لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياء

يدّعي أحد الناس أنه يحب الله، فإذا سمع الأذان لم يتحرك إلى المسجد، هذا منافق إن لم يكن له عذر شرعي.

يدّعي أنه يحب الله ورسوله ولكن إذا أصيب بمرض تسخّط القضاء والقدر..

يدعي أنه يوالي الله ورسوله، وأنه يحب الله، فإذا مات ابنه تسخط وأنكر القضاء والقدر، وقال كلماتٍ لا أصل لها. أين الإيمان؟ أين الصدق؟

الإيمان معناه أن تقوم إلى الماء البارد في صلاة الفجر وهو أحب إليك من الجلوس مع الأصحاب في بساط من بساط السمر، أو في مناجاة الأحبة، ففي حديث أن الله عز وجل يقول:

«يا عبادي، إذا قام العبد المؤمن وتوضأ من الماء البارد يدعوني أشهدكم أني قد غفرت له وأدخلته الجنة»[1].

وعلامة الصدق أن تثبت في صفوف المؤمنين في الصلاة، وأن تأتي إليها في شوق وحرارة. لأن المنافق قد يصلي لكن دون حب، دون إخلاص، دون انقياد. يقول جل ذكره: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ

(١) لم أجده فيما بين يدي.

قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّساء: ١٤٢].

يصلون ولكن كسالى، يصلون ببرود، يقرأون القرآن ببرود، فلا صدق ولا إخلاص ولا محبة ولا اندفاع، فلا ينفعهم ذلك.

الإمام أحمد سجن لأنه يقول ربي الله، فرفع الله درجته فأصبحنا نذكره في كل مجلس، وعلى كل منبر، وفي كل منتدى، وعلى رأس كل حفل. وانظر كيف رفع الله ذكره.

وأما خصومه فمحق الله ذكرهم ما يذكرون إلا قليلاً. الذي عارضه مثل الوزير ابن الزيات دعا عليه الإمام أحمد فجلد وعذب وأدخل في فرنٍ حتى قطّع تقطيعاً.

وأحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة البدعي الجهمي أحد أهل البدعة.

دعا عليه الإمام أحمد فأصيب بالفالج. لأن الإمام أحمد قال: اللهم عذبه في جسده، لأنه هو الذي كان متسبباً في الجلد. فشل نصفه والنصف الآخر سليم.

قالوا: كيف حالك يا أحمد بن أبي دؤاد قال: «أما جسدي هذا فوالله لو وقع عليه ذباب كأن القيامة قامت، وأما جسدي هذا فوالله لو قطع بالمناشير قطعة قطعة ما أحسست به»، لماذا؟ لأنه عارض الحق.

أما الإمام أحمد فبقي مذكوراً في كتب الحديث آلاف المرات.

يذكر أن أحد الصالحين ابتلي، حين دخل على وزير ظالم فضربه على وجهه بكفه، فأجلسه. فقال الصالح العابد: اللهم إنه ضربني فاقطع يده. فابتلاه الله بظالم فقطعت يده ولذلك يقول:

ليس بعد اليمين لذة عيشٍ   يا حياتي بانت يميني فبيني

ذكره ابن كثير.

وابن تيمية ابتلي بأنواع من الابتلاء، وهو ممن عاش مرحلة الابتلاء في تاريخ الإسلام فإنه ابتلي في عرضه بالتهم الرخيصة التي لا مصداق لها ولا حق. وأدخل السجن رضي الله عنه ورحمه لأنه يدعو إلى الله، إلى لا إله إلا الله، وإلى تصحيح المعتقد وإلى الخروج بالناس من الظلمات إلى النور.

فلما أدخل السجن رد عليه الباب، فالتفت إلى البواب وهو يوصد عليه الباب وهو يقول:

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

دخل على سلطان عهده أو سلطان عصره السلجوقي، فقال له السلطان: يا ابن تيمية يقول الناس إنك تريد ملكنا. فتبسم ابن تيمية تبسم المستعلي بلا إله إلا الله، الذي يريد ما عند الله، والدار الآخرة، والذي ينظر إلى أن الدنيا رخيصة لا تساوي مجلس نصف ساعة في مسجد.

قال: والله الذي لا إله إلا هو، ما ملكك وملك آبائك وأجدادك يساوي عندي فلساً واحداً.

ولذلك بقيت كتبه وبقيت معالمه وبقيت مدرسته حية في كل قلب مسلم، وما عرفنا اسم السلطان إلى اليوم.

رفع الله ذاك العالم وكان وحيداً، لأنه يعبد الله. وأما السلطان بموكبه وجنوده وحاشيته فأخفت ذكره فما نعرف اسمه.

وأنت لا تجد مبتلىً صبر واحتسب إلا رفع الله ذكره وأعلى شأنه، فأصبح يذكر أبداً بالدعاء والثناء ومنها الأجر والمثوبة.

● **فوائد الابتلاء:**

١ ـ لذة الانتصار: فإن الله عز وجل أقر عيون الصحابة بعد أن كانوا مستضعفين بالنصر.

وما أحسن الإنسان يجاهد ويبذل ويعطي ثم ينتصر في آخر المرحلة.

«بلال بن رباح»: أهين إهانة ما يعلمها إلا الله عز وجل من الوثنيين، والله عز وجل يعلم أن بلالاً يقول: لا إله إلا الله، وأنه يصلي، وأنه يريد الله والدار الآخرة. ويراه يسحب في جبال مكة ويوضع عليه الصخر وهو يقول: أحد أحد. وفي قدرة الله عز وجل أن يخسف بهؤلاء الفجرة، وفي قدرة الله عز وجل أن يطلقه.

لكن أراد سبحانه وتعالى أن يعلمه مدرسة من مدارس الابتلاء. وبعدها يأتي بلال بن رباح فينتصر إيمانه على الكفر، ويثبت يقينه على الطاغوت، ويهتدي بهدي الله عز وجل، فيصبح سيداً من السادات. فبلال بن رباح معروف الآن، وأما خصماؤه فليسوا معروفين.

بلال يعرفه مسلمو الملايو والسودان والعراق وكل صقع يذكر فيه لا إله إلا الله.

يعرفه المسلمون لأنه مؤذن الإسلام.

فاستفاقت على أذانٍ جديد ملء آذانها أذان بلال

ولذلك يوم دخل ﷺ يوم الفتح مكة، أمر بلالاً أن يؤذن، فارتقى بلال على الكعبة المشرفة التي بنيت على التوحيد. ارتقى يؤذن ليغيظ به ﷺ المشركين رؤساء الضلالة والطاغوت. يقول: انظروا لهذا العبد الذي في نظركم لا يساوي فلساً واحداً أصبح سيداً بلا إله إلا الله.

انظروا لهذا المؤمن التقي المتوضىء، اليوم يرتقي على البناية فيؤذن بلسان التوحيد لتسمعه آذان البشرية. انظروا إلى من سحبتموه

على الصخور وأهنتموه وضربتموه وشتمتموه، يؤذن يوم الفتح الآن. فتستمع الدنيا وينصت الدهر لأذان بلال:

وقل لبلال العزم من قلب صادق أرحنا بها إن كنت حقاً مصليا
توضأ بماء التوبة اليوم مخلصاً به تلقَ أبواب الجنان الثمانيا

فرضي الله عن بلال كيف ابتلي فصبر فرفع الله ذكره أبد الآباد، هذا هو النصر.

٢ ـ الأجر العظيم: ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك وعكاً شديداً، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي إنك توعك وعكاً شديداً، قال: «**نعم**»، قلت: ذلك بأن لك أجر رجلين؟ قال: «**نعم إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم**». وقال ﷺ ويتحدث إلى ابن مسعود: «**ما من مؤمن يصيبه هم أو غم أو حزن أو كرب حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه**» ـ وفي لفظ: «**إلا حط الله بها الخطايا كما تحط الشجرة ورقها**»[1].

فانظر إلى الابتلاء معه الأجر والمثوبة، فاحتسب كل ما يصيبك في ذات الله عز وجل من همٍّ أو غمٍّ أو حزنٍ أو حتى حر الشمس.

٣ ـ الرفعة: فالله أراد بابتلائك رفعتك وما أراد خفضك، إذا علم أنك تريده والدار الآخرة رفعك بالابتلاء.

٤ ـ منها أنه علمك سبحانه وتعالى درساً من دروس العبودية لا ينسى. لأنك تذل بالابتلاء وتتواضع نفسك وتتهذب أخلاقك، لأن بعض الناس جاهل ما تربى فإذا أصيب بمرضٍ أو أدِّب بمصيبة ذل وأسلس القياد لله الواحد الأحد.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٤٧، ٥٦٤٨، ٥٦٦٠، ٥٦٦١)، ومسلم برقم (٢٥٧١).

٥ - ومنها أنك تتربى تربية الصبر، وهي المدرسة الكبرى التي أراد ﷺ أن يخبرها للناس.

ولذلك يقول الإمام أحمد: تدبرت الصبر في القرآن فرأيته في أكثر من تسعين موضعاً. وقال أهل العلم: من ركب الصبر أوصله إلى الرضا. وقال عمر رضي الله عنه: أدركنا خير عيشنا بالصبر.

وقال بعض الصالحين: لما صبرنا نجحنا وأفلحنا، فمن لا يصبر فلا حظ له ولا حكمة له ولا نهاية معه ولا غاية منشودة يطلبها.

إذا علم هذا فعلينا يا عباد الله أن نصبر في كل ما أصابنا، وأن نحتسب أجرنا على الله عز وجل. يقول ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه وأرضاه مرفوعاً يقول ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته نعماء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن**»[1].

فاصبر في كل ما يصيبك. فإن النصر سوف يكون معك إن شاء الله، ومنها أن تصبر على كل ما يفوتك من الأحباب والأقارب، وكل ما يصيبك في جسمك من تعطيل بعض الحواس وتحتسب ذلك عند الله.

ونحن نسأل الله العافية لا الابتلاء والفتن. ففي حديث العباس: أن الرسول ﷺ كما في المسند قال: ألا أحبوك يا عم؟ وفي رواية قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو الله به. فقال: «**قل اللهم إني أسألك العفو والعافية**»[2]!

وفي حديث سنده حسن أن الرسول ﷺ ذهب إلى رجل من الأنصار فوجده مريضاً قد ضمر جسمه، قال: «**ما لك**»؟ قال: قلت يا

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٩٩)، وأحمد برقم (١٨٤٥٥، ١٨٤٦٠).

(٢) سبق تخريجه.

رسول الله: اللهم ما كنت معذبني به في الآخرة من عذاب فعجله لي في الدنيا فابتلاني الله. قال ﷺ: «**ألا قلت أحسن من ذلك، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**»[1].

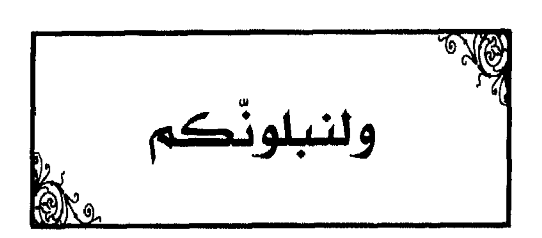
فنحن نسأل الله العافية لنكون مستورين، لأننا لا ندري علّنا أن نبتلى فنفتضح ولا نصبر، فنسأله أن يعافينا وإياكم من كل سوء وأن يجعل أحسن الأقدار علينا وألطفها، وأن يرزقنا من الخير أعمه، ومن البر أتمه، ومن العيش أرغده، ومن الوقت أسعده، وأن يتولانا وإياكم في الدارين، وأن يحسن عاقبتنا في الأمور كلها.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على محمد، صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً.



(١) سبق تخريجه.



ولنبلونّكم

اللهم لك الحمد خيراً مما نقول، وفوق ما نقول، ومثل ما نقول، لك الحمد بالإيمان ولك الحمد بالإسلام.

عز جاهك، وجل ثناؤك، وتقدست أسماؤك.

من استنصر بك نصرته، ومن تقرب إليك أحببته، ومن اعتمد عليك كفيته، ومن حاربك خذلته، ومن ضادك كشفت أستاره، وهتكت أسراره، وأظهرت عواره، وفضحت أخباره.

والصلاة والسلام على معلم الخير وهادي البشرية ومزعزع كيان الوثنية، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكبوت: ٢، ٣].

أحسب الأخيار والأبرار والصالحون والعلماء والدعاة أن الإسلام ادعاء، وأن لا إله إلا الله كلمة يدعيها المدعي ويفتري بها المفتري؟

ويقول تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [الأنبيَاء: ١٨]، بل يقذف الله بالحق على

باطل الشائعات، وباطل المفتريات، وباطل الكلمات الكاذبات، فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون ومما تتكلمون به ومما تظنون.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

ويقول سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال جلّ اسمه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال جل اسمه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٥-١٥٧].

إن هذا الدين صعب المراس، وإنه لا يؤتى لكل أحد إلا بابتلاء، وإن من أسرار خلوده أنه يعيش مع المبتلين في الأرض فيظهر الله صدقهم ونصحهم ووضوحهم ويعلم الله ثباتهم، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣]، الناس قد جمعوا لكم بالعراقيل وبالمخططات وبالشائعات فخافوهم، ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣، ١٧٤].

رماني الخصم بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال
فعشت ولا أبالي بالرزايا ... لأنني ما انتفعت بأن أبالي

يقول ابن القيم رحمه الله: يا ضعيف العزم، الطريق شاق وطويل، ناح فيه نوح عليه السلام وذبح زكريا، واغتيل فيه يحيى،

وذبح فيه عمر، وضرج عثمان بدمائه، وقتل علي، وجلدت ظهور الأئمة وحبسوا.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكبوت: ٢، ٣]، فالناصر هو الله.

كان ﷺ يبتهل في الليالي ويقول: «**اللهم أنت الحق، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق**»[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفَال: ٦٤]، أي يكفيك الله.

يا حافظ الآمال أنت منعتني وكفلتني

وعدا الظلوم علي كي يجتاحني فنصرتني

وقال سبحانه: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢﴾ [يُونس: ٨٢]، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عِمرَان: ٥٤]، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: ٢٦].

فالزم يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركانُ

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

الابتلاء تاريخ وقصة طويلة منذ أن نزلت لا إله إلا الله في الأرض.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥)، ومسلم برقم (٧٦٩).

ابتلي نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ.

فتعال إلى بعض قصصهم، وإلى تلك الدروس العظيمة التي نستفيدها من حياتهم رضوان الله تعالى عليهم.

أما موسى فذاق الأمرَّين، فهو رسول التوحيد وكان أنقى وأوضح من الشمس في رابعة النهار.

قال له فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]؟

قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

ولكن على صدقه ونصحه وعظمته ماذا فعل به؟

قال أهل التفسير وأهل التاريخ: أتى قارون بكنز عظيم وقال لامرأة داعرة: إذا اجتمع الناس وقام موسى خطيباً فقومي وابكي ومزقي ثوبك وشدي شعرك وأقسمي أن موسى زنا بك.

فقام الجمع وقام موسى يتكلم عن التوحيد والإيمان.. وقارون يريد أن يمرغ دعوته عليه السلام في التراب، وأن يمرغ منهجه لئلا يثق به الناس مرة ثانية، ولئلا يصدقوه، ولكن ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

فالنور نوره، والرسالة رسالته، والرسول رسوله، والمنهج منهجه.

قام موسى يتكلم وإذا بالبكاء يرتفع والمرأة تلطم وجهها. إنها الخطط البائسة، إنها الأكاذيب التي يقدمها بعض المغرضين الحاقدين على الإسلام وعلى علماء الإسلام وعلى دعاة الإسلام.

سكت موسى والتفت إلى المرأة فتلعثم وبكى.

أما في الأرض إلا موسى الذي أرسله الله بالرسالة فيفعل هذه الفعلة الشنيعة؟

فوقف يبكي ولكنه صمد وعرف أنه ابتلاء، فرفع عصاه ووقف

أمام المرأة وقال: أسألك بالذي شق البحر لي أفعلت ذلك؟

قالت: لا، ثم بينت أمرها.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب: ٦٩]. فزاد وجاهة، وزاد قوة، وزاد ثباتاً على منهجه لأنه صادق.

وعرف الكاذب من أول وهلة.

ويوسف عليه السلام اتّهم قبل موسى بالزنا من امرأة العزيز فرموا به في السجن فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يُوسُف: ٣٣]، ومكث في السجن سبع سنين، وعلم الله أنه صادق ومخلص فأنقذه الله ومكّن له في الأرض لأنه صبر على الابتلاء.

فالصبح قريب ولا يأتي الفرج إلا منه سبحانه وحده.

أما رسولنا ﷺ فعاش مع تهمة وريبة وشائعة استهلكت شهراً من حياته كما يقول المفسرون.

شهراً كاملاً أوقف على أعصابه.

لقد أتى المغرضون خصماء الإسلام أذناب اليهود فقالوا: لقد زنت عائشة!!

لا والله.. والله لا تزني وهي الصادقة بنت الصادق والمبرأة من فوق سبع سموات، ولكن هكذا يلطخ الحق، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غـافـر: ٥١]، ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النّحل: ١٢٧].

أتى الخبر رسول الله ﷺ فمكث في بيته لا يجف له دمع، لأن دمعة الظلم حارة يعرفها من ذاقها.

ولكن يأتي بعدها التمكين بإذن الله.

يقول الشافعي رحمه الله لمالك: أيبتلى العبد أو يمكّن؟

قال: لا يمكّن حتى يبْتلى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السَّجدَة: ٢٤].

فالرسول ﷺ أصيب في أعز شيء في حياته؛ لأن ضياع المال سهل ولو احترق البيت.

وهلاك الأولاد سهل.

وضياع الوظيفة سهل.

فكل شيء يهون إلا أن يبتلى المسلم في عرضه أو عرض أهله.

لأنه إذا لطّخت سمعته فإنه سيخسر كثيراً.

فجلس ﷺ شهراً كاملاً ينتظر الوحي من السماء ليبرئه من هذه التهمة التي حلّت به من فريق المنافقين الذين يتربصون بالصالحين الدوائر في كل مكان وزمان.

فنزل جبريل بعد شهر بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النُّور: ١١، ١٢].

لكن كثيراً من الناس ما قال هذا الكلام؛ لأن الشائعة إذا ظهرت فمن يقنع الناس ومن يثبت للناس أنها خطأ.

صح عنه ﷺ أنه قال لأحد الصحابة: «**كيف وقد قيل**»[1]، لما ادّعت امرأة أنها أرضعت هذا الصحابي وزوجته وانتشر الخبر.

قد قيل إن صدقاً وإن كذباً فما اعتذارك من قول إذا قيلا

(١) أخرجه البخاري برقم (٨٨، ٢٠٥٢، ٢٦٤٠).

إن هذا هو الطريق، طريق تقديم الرؤوس وتقديم الدماء وتقديم الأمـوال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التّوبَة: ١١١].

وفي الابتلاء قضايا:

أولها: أن الله عز وجل جعله سنة ليعلم الصادق من الكاذب، وليعلم المؤمن من المنافق، ولو كان كله رخاء ويسر لادّعى كل مدّعٍ أنه صادق.

ولكن والله ليظهرن الله الصادقين أهل الصلوات الخمس.

ولن يخزي الله أولياءه أبداً.

خاف ﷺ وهو في غار حراء يوم نزل عليه الوحي لما رأى الملك.

فذهب إلى خديجة رضي الله عنها وأرضاها ترتعد فرائصه.

قال: «**خفت على نفسي**».

فقالت: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق[1].

أتظن أن الله يخزي أهل الصلوات الخمس؟ وأهل القرآن والسنة؟ وأهل التسبيحات؟ وأهل الصيام؟ وأهل قيام الليل؟ وأهل الصدق مع الله؟

لا والله.

(١) أخرجه البخاري برقم (٤، ٣٢٣٨، ٤٩٢٢)، ومسلم برقم (١٦٠).

والله إنما يجعل الرجس على الذين لا يؤمنون، وإنما يخزي أعداءه ومحاربي دينه الذين لا يعرفون الصلاة، ولا يعرفون القرآن، ولا يعرفون المسجد، ولا يعرفون السنة، ولا يعرفون الصدق مع الله، ولا يعرفون موعود الله.

يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه: صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

فمن فعل معروفاً وقاه الله سبحانه وتعالى منازل الخاسرين، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾ [محمَّد: ٣١].

ثانياً: ومن دروس الابتلاء أيضاً تمحيص الصف الإسلامي ليعرف الله من الذين يحب أن يوصم الصالحون بالوصمات، وأن تلطخ سمعة الأخيار والدعاة وطلبة العلم والعلماء من غيرهم ممن يحب الصالحين.

حينها يعرف سبحانه وتعالى من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].

ثالثاً: من أسرار الابتلاء التي ينزلها سبحانه وتعالى في الأرض تمحيص الخطايا والذنوب التي تعلق بالأخيار والتي لا يسلم منها الأبرار فيحتها سبحانه وتعالى حتاً.

فنسأله سبحانه أن نكون ممن إذا أذنب استغفر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلي صبر، فإنها منازل الصادقين.

قالوا لعثمان: ادخل على الرسول ﷺ يبشرك بالجنة على بلوى تصيبك[١].

فقال: الله المستعان.

ودخلوا على ابن تيمية وهو قد مرض بسبب السجن من أعداء السنة، فقالوا: ماذا أصابك؟

وكان قد أدخله السجان وأغلق عليه الباب، فقال ابن تيمية: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

فدمعت عيناه وقال:

تموت النفوس بأوصابها ولم يدر عوادها ما بها
وما أنصفت مهجة تشتكي أذاها إلى غير أحبابها

فالابتلاء تمحيص وتنقية من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وهو غسل للقلب وغسل للمنهج وغسل للطريق من أوضاره التي تعلقت به، إما شهرة وإما سمعة وإما رياء لا يسلم منها العبد.

يقول ﷺ في الصحيح: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته نعماء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[٢].

رابعاً: أن هذا الإسلام مهما قالوا بأنه قد انتصر فما زال في الطريق عقبات وعراقيل ومخططات معقدة يحار العبد أمامها، ومخططات يعجز الشيطان أن يكتشفها من كل باب ومن كل نافذة ومن كل جهة.

---

(١) كما ورد عند البخاري برقم (٣٦٧٤، ٣٦٩٣، ٣٦٩٥)، ومسلم برقم (٢٤٠٣).

(٢) سبق تخريجه.

ونحن لا نملك إلا أن نفوض أمرنا إلى الله، ولا نعتمد على حيلة إلا تدبير الله كما قال نوح عليه السلام: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القَمَر: ١٠].

فاترك الحيلة في تحويلها إنما الحيلة في ترك الحيل

خامساً: أن نكتشف أعداء الإسلام ومخططاته، فنعلم أنها لا تقتصر على جانب دون آخر، بل هي تأتي من كل مكان: قتل وسجن وتشريد وتلطيخ سمعة وكذب وشائعات.. إلخ، ولكنها في النهاية تبوء بالفشل جميعها ولله الحمد ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرّعد: ١٧].

سادساً: من دروس الابتلاء أن يجتهد العبد وينهض من كبوته ويجتهد من جديد ويعاود نشاطه بعد أن خرج من هذا الاختبار بنجاح إن شاء الله.

كما قال سبحانه: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النِّساء: ١٠٤].

فليس علينا نحن إلا أن نقدم ما نملك في سبيل نصْرة هذا الدين بالمال والنفس والكلمة والموعظة، والنتائج بيد المولى سبحانه.

سابعاً: أن على العبد أن يتضرع إلى الله ويلتجىء إليه وينطرح بين يديه، لأن النصر بيده ولأن العز في الذل له.

يقول ﷺ لابن عباس كما عند الترمذي بسند صحيح: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد**

كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

والله الذي لا إله إلا هو، لو اجتمع أهل الأرض جميعاً على أن يكيدوا لك والله معك فلن يكيدوك شيئاً.

ولو اجتمعوا على أن ينصروك والله ضدك لما فعلوا شيئاً في نصرك.

فالقوة التي لا تغلب هي قوة الله.

فينبغي على العبد أن يتخلى عن الاعتماد على الناس، إنما يعتمد على الله.

ثامناً: صدق التوحيد، ويعرف ذلك من جرب أن لا إله إلا الله لا تظهر حارة صادقة قوية إلا يوم يبتلى العبد فهو يقول: لا إله إلا الله صادقاً من قلبه.

ومن أعظم ميز التوحيد أنه يقف معك في الأزمات.

يقول محمد بن عبدالوهاب رحمه الله المجدد: عامي موحّد يغلب ألف مخلط.

فالتوحيد يظهر في الأزمات كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العَنكبوت: ٦٥]، وهكذا كل أزمة تمر على العبد فإنه يخلص فيها توحيده لله.

أسأل الله لي ولكم الصبر والثبات عند الابتلاءات.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) سبق تخريجه.

اليسر بعد العسر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

عنوان هذا الدرس **(اليسر بعد العسر)**.

فالله عز وجل كلما كرب العبد، وكلما ضاقت به الضوائق، وكلما اشتدت عليه الشدائد، فرّج الله سبحانه وتعالى عنه وأزال غمّه وهمّه.

وهذه قصة أقدمها بين يديكم وهي مروية في صحيحي البخاري ومسلم عن كعب بن مالك الذي فرّج الله كربته بعد شدته، فقد أذنب وعاد إلى الله عز وجل بعد أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت هو وإخوانه، ثم تاب وأناب فغفر الله له.

يقول كعب رضي الله عنه وأرضاه: تجهز صلى الله عليه وسلم لغزوة تبوك، وغزوة تبوك كانت في حرارة الصيف وفي شدة الحر وفي وهج الشمس.

خرج ﷺ، فنادى في الناس فخرج معه ما يقارب عشرة آلاف من أصحابه رضوان الله عليهم.

وقبل المعركة أراد ﷺ أن يهيىء الجيش فما وجد عليه الصلاة والسلام مالاً، فصعد المنبر ودعا للتبرع ودعا للبذل والعطاء فقال:

«**من جهز جيش العسرة فله الجنة**»(١).

فوقف عثمان بن عفان رضي الله عنه وقال: أنا يا رسول الله، فدمعت عيناه عليه الصلاة والسلام ثم قال: «**اللهم اغفر لعثمان ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راضٍ، ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم**»(٢)، أو كما قال ﷺ.

فلما خرج، ﷺ، رأى بعض الصحابة أن الثمار قد دنت في المدينة، وأن المكوث في البيوت أحسن من الحر، فجلسوا.

والذين تخلفوا عن الغزوة ثلاثة وثمانون رجلاً لم يسجلهم ﷺ في كتاب ولم يكتبهم في ديوان.

أما ثمانون فكذبوا على الله وهم منافقون.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩].

فخرج ﷺ مع أصحابه مشياً على الأقدام في حرارة الصيف وظمئه، وفي نصب وفي جوع وفي مشقة لا يعلمها إلا الله.

جاء الجد بن قيس أحد المنافقين وقال: يا رسول الله ائذن لي، أنا لا أريد أن أخرج معك إلى تبوك.

قال: «**ولم؟**».

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب فضائل الصحابة (فضائل عثمان بن عفان ابن عمرو القريشي رضي الله عنه).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٦٢٥٥)، والترمذي برقم (٣٧٠٠) بنحوه، وانظر: المشكاة برقم (٦٠٧٣).

قال: أنا رجل مفتون بالنساء فإذا رأيت بنات بني الأصفر افتتنت، «بنات الأصفر يعني بنات الروم»، وقد كذب على الله فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩][1].

وقال بعض المنافقين لبعض: لا تخرجوا في الحر واطلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتأخر، فرد الله عليهم: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١].

خرج عليه الصلاة والسلام وكان كعب بن مالك صادق الإيمان لكنه تخلف، وقد دخل مكاناً له وعنده زوجتان وقد فرشتا له في عريش وعنده نخيل دنا قطافها فرأى المكان فأعجبه فجلس.

قال: وقلت: غداً ألحق بالرسول عليه الصلاة والسلام.. وهذه خطيئة، ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ [التوبة: ١٢٠].

كيف يخرج رسول الهدى عليه الصلاة والسلام ويتخلف هؤلاء؟

وذهب صلى الله عليه وسلم، فلما أصبح في الصحراء قال: قلت: غداً أتهيأ فثبطني الشيطان فجلست.

ومشى عليه الصلاة والسلام حتى اقترب من تبوك فنزل بالجيش ما يقارب عشرة آلاف، فنزل عند شجرة بجيشه العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام، وفي أثناء الجلوس قال للصحابة: «**أين كعب بن مالك؟**».

ما تذكره إلا عند تبوك.

---

(١) قصته أخرجها البيهقي في السنن برقم (١٨٢٣٦)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (١١٠٤٣)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب (ترجمة الجد برقم ٣٥١)، وأسد الغابة (ترجمة الجد برقم ٧٠٧).

قال رجل من بني سلمة من قرابة كعب بن مالك، لكن الأقارب عقارب فلم ينتقده إلا القريب! إلا من رحم ربك.

قال هذا القريب: يا رسول الله، ألهاه النظر إلى برديه واشتغاله بأمواله.

فقال معاذ رضي الله عنه وأرضاه: لا والله ما قلت خيراً، والله ما علمنا فيه إلا خيراً، والله ما علمناه إلا صادقاً مجاهداً.

فسكت عليه الصلاة والسلام ولم يعلق على الحادث.

وبينما الرسول صلى الله عليه وسلم جالس تحت الشجرة وإذا برجل أقبل كالصقر، فقال ﷺ: «**كن أبا خيثمة**».

فاقترب الرجل فإذا هو أبو خيثمة وهو أحد المجاهدين الكبار في الإسلام.

فقال ﷺ: «**أين أبو ذر؟**».

قالوا: تخلف يا رسول الله.

قال: «**إن يرد الله به خيراً يلحق بنا**».

وأبو ذر مسكين فقير يحشر يوم القيامة مع عيسى بن مريم، كان زاهداً ما عنده إلا جمل هزيل، أتى بهذا الجمل فركبه فرفض الجمل أن يقوم وبرك على الأرض، فحمل أبو ذر متاعه على كتفه ومشى في الأرض ليلحق بالرسول عليه الصلاة والسلام.

وبينما هم جلوس فإذا أبو ذر يطل وهو يمشي في آخر الصحراء، فقال عليه الصلاة والسلام: «**كن أبا ذر**».

فاقترب فإذا هو أبو ذر.

قال: «**رحمك الله يا أبا ذر، تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك**»[١].

أما كعب بن مالك واثنان معه هما: هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، هؤلاء الثلاثة صدقوا لكن تخلفوا بلا عذر.

فأخذهم من الهموم والغموم ما لا يعلمه إلا الله.

قال كعب: فكنت في غياب الرسول عليه الصلاة والسلام أخرج في الأسواق فلا أرى إلا منافقاً، أو شيخاً كبيراً عذره الله، أو طفلاً، أو امرأة، فأزداد هماً إلى همي.

قال: وسمعت أن الرسول عليه الصلاة والسلام، أقبل من تبوك إلى المدينة.

فماذا يقول للرسول عليه الصلاة والسلام؟ وكيف يتكلم معه؟ ما هو عذره؟ إن كذب فسوف يكشفه الله بالوحي، وإن صدق فسوف يهلك.

قال: فلما أقبل الرسول عليه الصلاة والسلام، حضرني بثي، أي أشد الحزن، ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦].

قال: وعلمت أنني لا أخرج من غضب الله ولا من غضب رسول الله ﷺ إلا بالصدق.

فلما نزل ﷺ المدينة بالجيش توضأ وبدأ بالمسجد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، فصلى ركعتين ثم جلس للناس يستقبلهم ويسلمون عليه ويرحبون به، لأنه غاب ما يقارب شهراً أو أكثر.

قال كعب بن مالك: فتقدمت للرسول ﷺ فسلمت عليه، فلا

---

(١) انظر: الإصابة (١٢٢/١١)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب (ترجمة أبو ذر برقم ٢٨٦)، وسير أعلام النبلاء (ترجمة أبو ذر برقم ١٠٦).

أدري هل ردّ عليّ أم لا، ووضع يده في يدي.

حتى وضعت يميني ما أنازعها   في كف ذي نقمات قوله القيلُ

فقال لي: «**يا كعب بن مالك، ما لك تخلفت؟**».

قال كعب: والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرَج من غضبه بكلام، إني رجل شاعر وإني قد أوتيت جدلاً.. (أي هو رجل فصيح)، لكن يا رسول الله إن غضبت عليّ اليوم في صدق أقوله أرجو من الله عز وجل أن ترضى عني غداً.

قال: «**قم حتى يقضي الله فيك وفي صاحبيك**».

فقام رضي الله عنه لا يكاد يرى الطريق من الهم والغم، فلحقه بنو سلمة قرابته وقالوا: المتخلفون اعتذروا إلا أنت ما أحسنت تعتذر، عد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام واعتذر بعذرك.

قال رضي الله عنه: فوالله أردت أن أعود فأكذب نفسي عند الرسول عليه الصلاة والسلام.. لكن عصمه الله.

قال: فسألتهم هل معي أحد وقع عليه مثل ما وقع لي من التخلف؟

قالوا: معك رجلان هلال بن أمية ومرارة بن الربيع، وهما من أهل بدر.

قال: قلت: لي بهما أسوة.

فخرج من المسجد وقام عليه الصلاة والسلام في الناس في أهل المدينة رجالاً ونساءً وأطفالاً وقال: «**لا تكلموا الثلاثة الذين خلفوا: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع**».

فمنع صلى الله عليه وسلم الناس من كلامهم.

قال كعب بن مالك: فتغيرت لي الأرض التي كنت أعهد، فوالله

ما هي بالأرض التي كانت، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت كما وصف الله ذلك، وأظلم في عيني كل شيء.

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

واستمر الصحابة لا يتكلمون مع كعب.

تأتي امرأته في البيت تريد أن تصنع له الطعام ولا تلتفت إليه، وإذا أتى يأكل أعطته ظهرها لأنها تريد أن تقاطعه.

فالولاء في الله، والحب في الله، والبغض في الله، والعطاء في الله، والمنع في الله..

يقول لامرأته: اسقيني، فتأخذ الماء فتضعه في الإناء فتعطيه إياه ولا تلتفت إليه لأنه رجل تخلّف وعصى الله ورسوله.

ينزل إلى السوق فيسلم على الصحابة فلا يكلمه أحد.. يشتري الحب والزبيب والتمر واللحم: يا فلان بعني.

قال: لا أبيع.

يذهب إلى أقاربه فلا يفتحون له الباب ولا يزوره أحد.

قال: فتسورت حائط ابن عمي أبي قتادة فارس الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو ممنوع أن يدخل من الباب فأتى من الجدار يريد أن يكلمه.

قال: فدخلت وقلت: يا أبا قتادة أسألك بالله هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟

فلم يكلمني.

قلت: يا أبا قتادة، أسألك بالله ألم تعلم أني أحب الله ورسوله؟

فلم يجبني.

وفي الثالثة دمعت عيناه.

فقال أبو قتادة: الله ورسوله أعلم.

وبعد أن تمت لهؤلاء الثلاثة أربعون ليلة أرسل صلى الله عليه وسلم إليهم أن اعتزلوا نساءكم.

انظر إلى الشدة!

وانظر إلى الكرب الشديد!

وانظر إلى الزلزلة التي لا يعلمها إلا الله!

إنسان يرى أنه قد غضب عليه من السماء بسبب معصية، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قاطعه، وأن الصحابة لا يكلمونه.. أين شعوره؟

أين أشواقه؟ أين حياته؟ أين صبره؟

فأتت امرأة هلال بن أمية إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فقالت: يا رسول الله ماذا أفعل؟

قال: اعتزلي هلالاً.

قالت: يا رسول الله هلال شيخ كبير، والله ما زال يبكي منذ تخلف عنك إلى اليوم، والله ما يأكل من الطعام إلا قليلاً، فأذن لها بشرط أن لا يقربها.

قال كعب بن مالك: وكنت أنا أشب القوم، أي أصغر الثلاثة، فكنت أنزل إلى الأسواق فلا يكلمني أحد، وأسلّم فلا يردون، وأبايعهم فلا يبيعون.

قال: وبينما أنا في السوق وإذا بنبطي أتى يبيع ملابساً من أهل الشام أرسله ملك غسان برسالة إلى كعب بن مالك يريد أن يفسد ما بينه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام.

قال: ففتحت الرسالة فإذا هي من ذاك الملك يقول: إنك لست بمضيع، وإنا سمعنا أن صاحبك قد جفاك فالحق بنا نواسك.

يقول: الحق إلينا واترك الدين فإن محمداً ﷺ جفاك.

قال كعب: فقلت: هذا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتها.

ثم لبث في بيته حتى تمت خمسون ليلة.

وبعد خمسين ليلة بعد أن ضاقت الأرض بما رحبت على الثلاثة عاشوا فيها المرارة والأسى واللوعة والقلق، أتى الفرج من الله من فوق سبع سموات، ليس من أحد إلا من الله.

أما المنافقون فيقول تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣]، يقول: ما لك تعفو عنهم وهم قد كذبوا على الله وخانوا شرع الله وعطلوا الجهاد في سبيل الله؟

وتمت خمسون ليلة فأتى الفرج من الله.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٨].

قال كعب: فصليت الفجر، ولما سلمت من الصلاة فإذا برجل على فرس أقبل يريد أن يبشره، وبرجل آخر يمشي على قدميه على جبل سلْع.

يريدان جميعاً أن يبشراه، وهذه شيمة المؤمن أن يفرح لأخيه وأن يبشره إذا أتى ما يسره، وأن يقدم له ما يفرحه، فإن هذا من عمل الخير ومن شيم المؤمنين.

قال: فسبق صوت ذاك الذي على الجبل. قال: يا كعب بن

مالك أبشر بتوبة الله عليك، أبشر بخير يوم ولدتك فيه أمك.

قال: فسجدت لله شاكراً. وهذا سجود الشكر، والرسول عليه الصلاة والسلام كان يسجد سجود الشكر إذا أتاه ما يفرحه ويسره عليه الصلاة والسلام.

نزل مرة ﷺ من على الدابة وسجد، والحديث حسن فقال سعد بن أبي وقاص: ما لك يا رسول الله؟

قال: «**أخبرني جبريل الآن أن الله يقول: لا يصلي عليك رجل مسلم بصلاة إلا وصليت عليه بها عشراً**»(١).

فسجد لله على هذه النعمة.

وأتاه كتاب من علي من اليمن يبشره أن قبائل همدان قد أسلمت، فسجد عليه الصلاة والسلام شاكراً لله وقال: «**السلام على همدان السلام على همدان**»(٢). فلا يشترط له الوضوء بل متى ما جاءك الفرح فاسجد.

خاصة في الأمور الدينية، وتأتي الأمور الدنيوية تبعاً لكن بعض الناس يظن أن انتصاره إذا ما حصل على وظيفة أو منصب أو سيارة أو فيلا.

أما أمور الدين فلا يحسب لها ذاك الحساب والله يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يُونس: ٥٨].

المهم سجد رضي الله عنه وأرضاه ورفع رأسه.. قال: وكان عندي ثوبان.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٥٩٢٨)، والنسائي برقم (١٢٨٣، ١٢٩٥)، والدارمي برقم (٢٧٧٣)، وانظر: المشكاة برقم (٩٢٨).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن برقم (٣٩٦٤)، وانظر: فتح الباري (٦٦٣/٧).

فأعطى المبشِّر واحداً منهما.. فمن بشرك بشيء فلك أن تعطيه شيئاً من المال، ولا يكون الإنسان جافاً صلباً مثل الحجر.

ومضى إلى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، وإذا بالرسول ﷺ حوله أصحابه وهو جالس وسطهم كالبدر.

يقول شوقي:

والمرسلون وقد حفّوا بسيدهم كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم

هؤلاء مثل الشهب والنجوم إذا حفت بالقمر ليلة أربعة عشر، أو مثل الجنود إذا حفوا بالعلم. والعلم هو محمد عليه الصلاة والسلام، والقمر هو محمد عليه الصلاة والسلام، والجنود هم أصحابه، والنجوم هم أصحابه.

قال: وإذا وجه الرسول عليه الصلاة والسلام يتهلل كأنه القمر ليلة أربعة عشر، وكان ﷺ إذا سر بالأمر رؤي لوجهه أسارير تبرق، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: كنت إذا رأيت وجه الرسول ﷺ وقد سرّ أتذكر قول سويد بن كاهل الجاهلي:

وإذا نظرت إلى أسرّة وجهه لمعت كبرق العارض المتهلل

نعم يفرح عليه الصلاة والسلام يوم تاب الله على أحد الصحابة، والتوبة لا يعادلها شيء في الدنيا أبداً، ووالله ما قصور الدنيا وملك الدنيا وذهب الدنيا وفضة الدنيا تعادل توبة الله على العبد.

قال كعب بن مالك: فلما دخلت المسجد قام لي طلحة بن عبيدالله أحد العشرة المبشرين بالجنة، ووالله ما قام لي إلا طلحة رضي الله عنه تكريماً لكعب بن مالك، واقترب منه وسلّم عليه وصافحه.

ولما وصلنا إلى هذا أقول: القيام للقادم على ثلاثة أوجه:

١ - قيام له.

٢ - وقيام عليه.

٣ - وقيام إليه.

أما القيام عليه فهو محرم، كأن يجلس الجالس ويقوم على رأسه أناس من باب التعظيم والتفخيم، فهذا محرم لأنه فعل الأعاجم بملوكهم.

وعند أحمد وأبي داود أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن القيام وقال: «**لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضاً**»[١].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار**»[٢].

كأن يجلس الجالس في المسجد ويدور الحديث ويقوم عليه بجنبتيه وأمامه وخلفه رجال، فهذا منهي عنه في الإسلام وهو ما يسمى القيام عليه.

أما القيام له، فإن كان للتعظيم والتفخيم فهذا يلحق بالتحريم وإن كان للتقدير وإعطاء المسلم حقه فلا بأس بذلك، فإن من الحق أن تقوم للمسلم من باب التواضع ومن باب إعطائه حقه لا كبْراً ولا تعظيماً له ولا تفخيماً.

جاء زيد بن حارثة فقام له ﷺ وقبّله[٣].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١٦٧٧، ٢١٦٩٧)، وأبو داود برقم (٥٢٣٠)، وابن ماجه برقم (٣٨٣٦)، وانظر: المشكاة برقم (٤٧٠٠).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٦٤٧٣)، وأبو داود برقم (٥٢٢٩)، والترمذي برقم (٢٧٥٥)، وانظر: المشكاة برقم (٤٦٩٩).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٧٣٢)، وانظر: المشكاة برقم (٤٦٨٢).

وصح أن فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام كانت إذا دخلت على أبيها قام لها واحتضنها وقبلها وأجلسها مكانه.

وكان إذا زارها في بيتها قامت إليه عند الباب واحتضنته وقبلته وأجلسته مكانها ﷺ، ورضي الله عنها وأرضاها[١].

وفي حديث في سنده كلام أن جعفراً ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ لما قدم من الحبشة قام له عليه الصلاة والسلام من بين الصحابة وقال: **«لا أدري بأيهما أسرّ بقدوم جعفر أم بفتح خيبر»**[٢].

وقبل جعفراً وأجلسه.

دخل أحد العلماء على جماعة من الناس فقام أحدهم وهو أديب شاعر.

فقال العالم: لا تقم لا يجوز القيام.

فقال الشاعر:

قيامي والإله إليك حق وترك الحق ما لا يستقيم

وهل رجل له لب وعقل يراك تسير إليه ولا يقوم

وأما القيام إليه فهو جائز بالإجماع، مثل أن تقوم له لتعينه على شيء كأن تفتح له الباب أو نحوه.

أتى سعد بن معاذ سيد الأوس الذي اهتز له عرش الله[٣] وشيعه سبعون ألف ملك، قدم على حمار ليحكم بين الرسول ﷺ وبين بني

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥٢١٧)، والترمذي برقم (٣٨٧٢)، والنسائي في الكبرى برقم (٩١٤٧)، والحاكم برقم (٤٧٨٢، ٧٧٨٨)، وانظر: المشكاة برقم (٤٦٨٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم (٢٧٩٤١، ٢٩٤١٧)، والحاكم برقم (٤٢٩٩، ٤٩٩١)، وانظر: مجمع الزوائد برقم (٩٨٤٥، ١٥٤٨٩)، والمشكاة برقم (٤٦٨٧).

(٣) كما ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري برقم (٣٨٠٣)، ومسلم برقم (٢٤٦٦).

قريظة، وكان مريضاً مجروحاً من القتال، فلما أتى قال ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»[1].

فالقيام إليه جائز كما أسلفت.

قال كعب بن مالك: فقام لي طلحة بن عبيدالله، فوالله ما أنساها لطلحة.

لأن الإحسان ينفع حتى مع الكلاب السود.

المغيرة بن شعبة أحد الأمراء كان في قصره، فقال لحارسه: لا تدخل عليّ أحداً.

فأتى رجل صديق للحارس قال: أريد الأمير المغيرة بن شعبة.

فأدخله الحارس.

فقال المغيرة: أما قلت لك لا تدخل أحداً اليوم؟

قال: إنه صديقي وصاحبي، وله أيادٍ عليّ، فخجلت أن أمنعه.

قال: أحسنت أصاب الله بك الخير، والله إن المعروف ينفع ولو في الكلب الأسود.

يقول رجل أعرابي لابن عباس: يا ابن عباس إن لي عندك يداً، يعني أنني فعلت معك معروفاً.

قال ابن عباس: ما هي؟

قال: رأيتك في الحج الأول وأنت في الشمس فظللتك بكسائي.

قال ابن عباس: يا غلام أعطه ألف دينار، وأعطه كسوة، واعتذر إليه على التقصير رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٤٣، ٣٨٠٤، ٤١٢١)، ومسلم برقم (١٧٦٨).

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ويقول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

فقال ﷺ: «**يا كعب أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك يوم تاب الله عليك**».

قال كعب: يا رسول الله من توبة الله عليّ أن أنسلخ من مالي.. ما دام الله ردني إلى هذا الدين فمن حق الله عليّ أن أنسلخ من مالي وأن أتصدق به في سبيل الله.

قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**أبق عليك بعض مالك فهو خير لك...**»[1]، لكي لا يظن الإنسان أن إضاعة المال من الإسلام، فبعض الناس يقولون: لا نمسك درهماً ولا ديناراً، فيتركون ورثتهم بلا شيء، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس**»[2].

وعاد كعب وقد فرح بعفو الله وبرحمة الله، وكان هذا فرجاً له بعد الشدة، أي أن الله فرّج عنه كربته بعد أن اشتدت عليه الضوائق.

قال ابن عباس: لن يغْلب عسر يسرين.

قالوا: فيم؟

قال: قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشّرح: ٥، ٦].

(١) أخرج قصته كعب بن مالك البخاري برقم (٤٤١٨، ٤٦٧٧)، ومسلم برقم (٢٧٦٩).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٩٦، ٢٧٤٢)، ومسلم برقم (١٦٢٨).

فالله قد ذكر اليسر مرتين والعسر مرة، لأنه معرف بالألف واللام فهو واحد معروف.

وأما اليسر فهو نكرة، أي أنه متعدد.

فواجب على المسلم كلما ضاقت به الشدائد أن يمد يده إلى الله، فلا أحد يفرج الكرب إلا الله، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العَنكبوت: ٦٥].

والعرب تقول في الأمثال: إذا اشتد الحبل انقطع، أي إذا اشتد الكرب سهلها الله عز وجل.

● فوائد من حديث كعب:

ومن حديث كعب بن مالك نأخذ أكثر من مائة فائدة، لكن أذكر ما تيسر من هذه الفوائد.

١ ـ منها: أنه ذكر في الحديث أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يخرج صباحاً إذا أراد السفر، وهذا درس للمسلمين في أسفارهم أن يحرصوا على السفر بعد صلاة الفجر للحديث الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**»[1]، الحديث رواه أحمد والترمذي وغيرهما.

٢ ـ ومنها: أن السفر يسن أن يكون يوم الخميس، لأن كعب بن مالك ذكر أن الرسول ﷺ سافر يوم الخميس، وهو غالب سفره ﷺ أنه يسافر يوم الخميس.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٥٠١٢، ١٥٠١٧)، وأبو داود برقم (٢٦٠٦)، والترمذي برقم (١٢١٢)، وابن ماجه برقم (٢٢٣٦)، وانظر: المشكاة برقم (٣٩٠٨).

وأما يوم الجمعة فبعض أهل العلم على كراهية السفر فيه.

وبعضهم يقول الكراهة أو التحريم هي للسفر بعد الأذان الأول، أما في صباح الجمعة فلا حرج، لكن الأحسن أن يستقر العبد يوم الجمعة فيجعلها في العبادة والغسْل والذكر وتدبر القرآن لأنه عيد المسلمين.

٣ ـ ومنها: أنه ينبغي على المسؤول أن يتفقد رعيته، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما نزل في تبوك قال: «**أين كعب بن مالك؟**» وللحديث الصحيح الذي في البخاري: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1].

٤ ـ ومن الدروس أيضاً أن يذكر ما يعلم في الشخص، وأن الجرح والتعديل عند أهل العلم يجوز في مواطن ولا يعد من الغيبة، فهو من الحالات التي أجاز العلماء فيها الغيبة.

٥ ـ ومن الدروس أن على المسلم أن يذب عن عرض أخيه، مثل ما فعل معاذ رضي الله عنه وأرضاه عندما ذب عن كعب ودافع وقال للساب: بئس ما قلت، ما علمنا إلا أنه مجاهد يحب الله ورسوله.

وفي حديث يروى عنه ﷺ: «**من ذب عن عرض أخيه المسلم كان حقاً على الله أن يعتقه من النار**»[2]، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فحق على المسلم إذا سمع في مجلس من المجالس انتهاكاً لكرامة ومكانة أحد المسلمين الصالحين أن يرد وأن يذب، وأن يبين أن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٨٩٣، ٢٤٠٩، ٢٥٥٨)، ومسلم برقم (١٨٢٩).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٧٠٦٢، ٢٧٠٦٣)، والطيالسي في مسنده برقم (١٦٣٣)، وانظر: المشكاة برقم (٤٩٨١).

هذا خطأ، وأن يخبر بمناقب هذا الشخص إذا علم أن فيه خيراً.

٦ - ومنها: أن الرسول عليه الصلاة والسلام، كان يبدأ بالمسجد إذا قدم من السفر، فكان يصلي فيه ركعتين.

وصح عنه ﷺ من حديث أبي قتادة عند البخاري ومسلم أنه قال: «**إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين**»[1].

٧ - ومنها: أن يجلس للناس فيسلم عليهم ويسلمون عليه إذا قدم من سفر، وهذه من أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام.

٨ - ومنها: أن يقبل عذر المعتذر، فإذا اعتذر لك أخوك فاقبل عذره واحمله على الظاهر، ولا تقل: أراد كذا، أو في نيته كذا، أو ما صدق، بل التمس له عذراً.

٩ - ومنها وهو أعظم درس: هجر أهل المعاصي.. يقول الحسن البصري: يا عجباً، هؤلاء (يعني الثلاثة) ما سفكوا دماً، ولا قطعوا طريقاً، ولا أفسدوا في الأرض، ولا نهبوا مالاً، وقد وصل بهم من الجزاء ما تعلمون، فكيف بمن ارتكب الكبائر والفواحش؟

فهجر أهل المعاصي من مذهب أهل السنة والجماعة.

والذي أعلن بدعته فهجره مطلوب بل واجب.

وهكذا أصحاب المعاصي الأخرى، مثل مدمن المخدرات، ومثل المدمن على سماع الغناء، ومثل الذي يخالف السنة في مظهره ومخبره، فحقه أن يهجر بعد أن ينصح.

أما الهجر الدنيوي فلا يجوز إلا ثلاث ليالٍ لحديث أبي أيوب عند البخاري ومسلم قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يحل للمسلم أن**

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤٤، ١١٦٧)، ومسلم برقم (٧١٤).

يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث ليالٍ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[(١)].

وأما في أمور الدين فتهجر العصاة حتى تؤدبهم إذا رأيت أن للهجر منفعة.

ولكن استثنى ابن تيمية إذا كان الهجر يؤدي بهم إلى زيادة الإعراض.

ومن أراد أن يراجع هذه المسألة فليراجعها في المجلد الثامن والعشرين من فتاوى شيخ الإسلام، ذاك الكتاب العجيب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الهجرة والجهاد.

١٠ ـ ومنها: أن على المسلم أن يبشر أخاه المسلم بالمبشرات، مثل إذا ولد له مولود، أو نجح ابنه، أو سمع عنه ذكراً حسناً، أو رأى له رؤيا صالحة.

لأن أهل الحسد وأهل الحقد يكتمون الخير ويظهرون السوء، وإذا رأى لأخيه المسلم خيراً أو سمع خيراً كتمه، وإذا سمع بشيء يجرح عرضه أعلنه بين الناس.

١١ ـ ومنها كما مر علينا أن على من بشّر بشيء أن يعطي المبشر هدية، لأن المسلم كريم ويبذل وصاحب عطاء.

١٢ ـ ومنها: أن خير أيام المسلم يوم أن يتوب إلى الله.

لقوله ﷺ لكعب: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**».

ولكن كيف يقول ﷺ هذا مع العلم أن يوم إسلام كعب كان خير يوم مرّ عليه؟

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠٧٧، ٦٢٣٧)، ومسلم برقم (٢٥٦٠).

يجيب أهل الحديث على ذلك فيقولون: معنى ذلك أنه خير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك بسبب إسلامك هو هذا اليوم، وهذا تكلف.

وأجاب آخرون فقالوا: هذا اليوم يوم الإسلام ويوم التوبة يجتمعان فيصبحا يوماً واحداً، وهو خير يوم لك منذ ولدتك أمك.

خلاصة هذا الدرس: إذا اشتدت عليك الشدائد وأحكمت الضوائق فلا يفرجها عنك إلا الله عز وجل.

يقول ابن الجوزي في صفة الصفوة: لا يفرج الكرب إلا الله، ولا يرزق إلا الله.

وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

